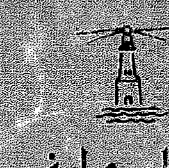
المستشار

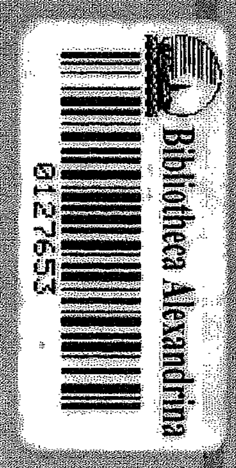
عبد الحليم الجندي

مالك بن أنس

إمام دار الهجرة



دار المعارف



مَالك بن أنَس

إمَام دَار الهجْرة

مالك بن أنس

إمام دار الهجرة

المستشار

عبد الحليم الجندى

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م ع

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

فى هذا الكتاب صورة لإمام دار الهجرة تتراءى بين معالم اليسر والسماحة واتباع الأمر الأول ، الذى أظهر قلة من المسلمين الأولين ، على كثرة العالم المعروف ، فى بضع سنين .

وهذا الوجه الخلقى للصورة هو الخصيصة الأولى لرجل حيي حياته كلها فى المدينة . فشغلت حياته بطولها . نصف حياتها — يومئذ — فى الإسلام . وأضافت إلى سؤددها مجداً جديداً لها . بالعلم والعمل . وتيسير الوسائل للتطور .

والمسلمون من فاتحة القرن ؛ وكلما أنشب العالم الحرب . يتحسسون السبيل للنهضة . ولقد قلنا قبل . ما نكرره اليوم فى يقين وثقة ؛ زادتهما التجارب العالمية إثباتاً وقوة[1] : إن ماضينا الضخم ؛ من تراثنا المسلم ، هو مركز الثقل الذى يحفظ توازننا ، فى أمنة واطمئنان . إلى جوار كونه ينبع من صميم الواقع . ويستنهض خلايا الجسم ذاته ، ليقوى على علله وعاهاته .

وليس كمثل أئمة الفقه دلائل على أن الإسلام عصرى فى كل عصر . يقصد قصده فى كل حضارة . أن كانت سيرهم قدوة للتقدم العلمى والحضارى . وأسوة للسمو النفسى والفكرى . وكان فقههم ثبتاً وضيئاً لدعاة النهضة من بنى العصر . الباحثين عن القوى العملية والعلمية المحركة لأداة التقدم . وكانت آية العدل المطلق . وآلة اليسر المسعف ؛ مصدرى القوة فى مقاصد الشريعة التى أبلغت المسلمين أوجهم كلما التزموها .

وحياة مالك عالم عريض كعوالم الدول . نتج من عصر النبى عليه السلام . والعصر الذى خلف من بعده . فأى عصر وأى قدوة ! وأى اتصال بالواقع

(١) مقدمة : أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام طبعه سنة ١٩٤٥ ومقدمة الإمام الشافعى طبعة سنة ١٩٦٧ .

الذى ظهر وازدهر وتطور ، بظهور الرجال واختفائهم، وازدهار الدول وانقضائها !

والتاريخ لا يعرف إماماً — كهيئة مالك — وسعت حياته ثلاثة أجيال كبيرة . وثلاث عشرة خليفة . يجيئون ويذهبون . وهو باق بالمدينة سادن أمين للسنّة . كأنه معلم من معالم الطبيعة . كالجبل أو كالبحر . ولما جلس إليه ستة من الخلفاء، فيهم ثلاثة من أعلم الخلفاء وأعظم العظماء، فى يدهم مصاير القارات والحضارات . كان ذلك تسليماً من الزمان على طوله . بأن فقهه يحمل عناصر العالمية والتقدم . فمدوا إليه بالأسباب وواجهوا . فى ظله . أقطار عالمهم كله .

وما كان أعظمها تجربة للفكر الحى العملى الذى يفعل الواقع وينفعل به . فتشهد القرون له فى شتى القارات والحضارات بآسيا . حيث نشأ . وأفريقية حيث استحكم . وأوربا حيث تفرد العلم الإسلامى بالفكر العالمى فى جوامع الأندلس وجامعاتها . فنقلت أوربا علومها لتنتقل بها من جهالة القرون الأولى إلى عصر النهضة .

والتاريخ يعيد نفسه إذا أصلح الناس أنفسهم

إلى القراء هذا المثل العالى . ليتأملوا . ويأملوا

والله بالغ أمره .

الباب الأول

المدينة ـ دار الهجرة

« أمرت بقرية تأكل القرى »
« يقولون يثرب وهى المدينة . تنفى »
« الناس كما ينفى الكير خبث »
« الحديد » .

(حديث شريف)

نشأ مالك بالمدينة التى إليها كانت الهجرة . وبها نزل القرآن . وأحل الحلال وحرّم الحرام. ولم يبرحها إلى بلد آخر. ومنها نشأت نظرياته فى الفقه والاستدلال . وإليه انتهت طرائقها . فأصبح فى الطليعة من سدنة السنّة . وقد سُنت كثرتها بالمدينة . وفيها قضى عظماء الصحابة عظم حياتهم . فشاركوا فى الحفاظ عليها ، واستمرار « الأمر الأول » فى الأجيال اللاحقة . ومن ثمة كانت المدينة والسنة كل شىء فى الرجل ومذهبه . يستوى فى ذلك رجالها أو الحوادث التى نجمت فيها . مذ وطئت ثراها أقدام النبى عليه السلام والصديق أبى بكر . فظهرت فى الحياة والعبادات والمعاملات السنن التى صحبت الفجر عند انفجاره ؛ فى عصر الرسول ، والإسلام عند انتشاره ، فى عهد الخلفاء الراشدين .

ولما استطارت الفتن فخلّفت على وجه الأمة ما يشبه جراحات المعارك . تَوالدت الملل والنحل والطوائف والانقسامات ، فأجاءت إلى الوجود ، فى حياة مالك وأبيه وجده ، أعظم دولتين فى الإسلام . وشارك مالك فى عصريهما بكفل زاخر من الفقه الذى تدين به الأمة .

وإذ كان من تعاليم النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين « عليكم بسنّتى . وسنّة خلفائى الراشدين المهديين من بعدى : تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » ،

وكان عصر الخلفاء الراشدين والصحابة عميق الأثر فى تابعيهم من أساتذة مالك ، وكان العصر الذى منح مالكاً بعض خصائص السابقين وذخائرهم استمراراً واتباعاً للقرن الأول . فالعصران مدخلان لتصوير خصائص مالك .

وفصلا هذا الباب ، كمثل سائر الفصول فى الكتاب ، تجرى كحياة مالك . فى مدينة واحدة هى المدينة : دار الهجرة — والسنة واليسر والسماحة .

الفصل الأول

يثرب – أو المدينة المنورة

بلغ النبي عليه الصلاة والسلام ، وأبو بكر معه ، قرية « قباء » – على مبعدة فرسخين من يثرب – فأقام أياماً ، فبنى مسجد قباء ولحق به هنالك على بن أبى طالب ، بعد أن رد للناس ودائع خلّفه النبي ليردها ، ولينام فى فراشه ، فيحميه وصاحبه إذ يأويان إلى الغار . اثنين الله ثالثهما . مأمورين بالهجرة إلى يثرب . وقد أصبحت فيما بعد : المدينة المنورة . كراهة لاسم يثرب . لما فى اللفظ من تثريب .

وفى يثرب ترك عليه السلام ناقته تسعى حتى بركت . فبنى داره واتخذ مسجده ، وأمر ألا تشد الرحال إلا إلى مسجده هذا . والمسجد الحرام . والمسجد الأقصى .

ومن المدينة ومسجدها انطلق الإسلام .

ولقد أبقاه أبو بكر على حاله ، « اتباعاً » لما صنع النبي ، وزاده عمر « اجتهاداً » لمواجهة الزيادة التى طرأت على العاصمة الأولى للإسلام .

فى هذا المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم كمسجد قباء ، سيجلس مالك بن أنس غداً ، متبعاً ، ومجتهداً ، لحراسة السنة التى سنها سيد المرسلين . بقوله وعمله . فى عاصمة الإسلام ، فصارت السنة وسماحتها وعمل المدينة وعلمها . أحرف الهجاء فى منهاج مالك . وتطاول به العمر ، فلبث أحقاباً يتلقى علوم الإسلام ويلقيها على عظماء الفقهاء والخلفاء والتلاميذ والأئمة ، ليقدموها للزمان كله .

* * *

كانت تربطه عليه الصلاة والسلام ، روابط شتى بيثرب من قبل . فيها

الخزرج أخوال جده عبد المطلب . وفيها ولد عبد المطلب وترعرع حتى دعاه أخوه المطلب ليشغل مناصب أبيهما هاشم . فغلبه عليها أخوهما نوفل . فاستعدى أخواله فنصروه فردت إليه حقوقه بمكة . ثم تعهد عبد المطلب حفيده فنشأه يتيماً فى حجر أمه . وفيها دفن أبوه عبد الله إذ مات فى زيارة لأهله هنالك . عائداً من تجارة بالشام . ولما خرجت باليتيم أمه فى السادسة من عمره ليرى قبر أبيه . ويتعرف على ذويه بالمدينة . رجع إلى مكة من دونها إذ جادت بروحها فى طريق العودة ، فدفنها بالأبواء على مبعدة ثلاثة وعشرين ميلا من المدينة .

وفى العام التاسع من حياته سافر فى تجارة مع عمه أبى طالب إلى بصرى بالشام ، فلما قفلا راجعين مرا بقبرى أبويه زائرين مترحمين . وكم قص النبى بعد الهجرة أحاديث رحلته وعودته بغير أم . مضاعف اليتم ، من يثرب .

كان المسلمون بمكة قلة يلقون العذاب من المشركين بالعشىّ والإشراق : مستبشرين . ثم هاجر إلى الحبشة فى السنة الخامسة للبعثة ثلاثة وثمانون ، يتصدرهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبى . ثم جاء نصر الله بستة من الخزرج من المدينة يلقون الرسول عند منى ، ويواعدونه العام القادم . وفى العام القادم تضاعف العدد . فكانت بيعة العقبة الأولى عند منى . وفى العام التالى بايعه بيعة العقبة الكبرى أو الثانية ، ثلاثة وسبعون وامرأتان . راجين أن يكون بين ظهرانيهم بيثرب . حيث الأمان من مكة . فأمر صحبه بالهجرة إليها متفرقين . واستأذنه أبو بكر فقال له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً » .

ثم هاجر فآخى بين المهاجرين من مكة والأنصار بالمدينة من كل فريق خمسة وأربعون يتصدرهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبى وقاص والزبير بن العوام وطلحة وأبو عبيدة بن الجراح . ومن المهاجرين والأنصار تألف المجتمع الجديد فى المدينة .

ولم يكد ينصرم عام حتى جيّش المسلمون ببدر ثلثمائة رجل ونيفاً يهزمون من المشركين نحو ألف . وراية المسلمين مع على بن أبى طالب .

وتوالى نصر الله بالمدينة . وقعت وقعة بدر فى السنة الثانية . وفى الثالثة أُحد .

وحمراء الأسد . وفى الرابعة والخامسة بدر الأخرى وبنو النضير والأحزاب . وبنو قريظة . وفى السادسة الحديبية وفى السابعة خيبر والعمرة . وفى الثامنة فتح مكة وغزوة حنين .

غزا بنفسه خمساً وعشرين غزوة . وقيل سبعاً وعشرين وسراياه ست وخمسون . قال على : « ما كان منا أحد أقرب إلى العدو منه » .

خاطب عليه الصلاة والسلام مكة يوم الفتح بقوله : « والله إنك لأحبّ أرض الله إلىّ . والله لولا أنى أخرجت منك ما خرجت » فحسب الأنصار أن رسول الله حنّ إلى وطنه . فقال لهم : « قد سمعت الذى قلتم يا معشر الأنصار . المحيا محياكم . والممات مماتكم . والله لو سلكت الأنصار وادياً لسلكت وادى الأنصار وشعبهم . ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار » .

وفى سنة تسع توجه تلقاء أرض الروم فى الشمال فكان أقصى أمره تبوك . ورجع إلى المدينة فأقام . وبعث أبا بكر أميراً على الحج سنة تسع . فكانت الحجة الأولى فى الإسلام .

ودخلت سنة عشر فأقامها بالمدينة . وجاءته وفود العرب من كل وجه . وبعث رسله إلى ملوك الأرض . فلما حضر الموسم خرج إلى مكة فأقام للناس حجهم . وعرّفهم مناسكهم . وخطب ثم نزل فتلا قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) .

وصدر إلى المدينة فأقام بقية ذى الحجة من سنة عشر . والمحرم وصفر واثنتى عشرة ليلة من ربيع الأول سنة إحدى عشرة .

ولحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى عن ثلاث وستين سنة . منها عشر سنين بالمدينة هى السنوات العشر التى أرست كثرة الأسس الإسلامية . ومات عن نحو عشرة آلاف صحابى بالمدينة . ومن عداهم ألفان تفرقوا فى سائر البلدان .

وأمست جزيرة العرب كلها جزيرة إسلامية عاصمتها « المدينة » .

تكونت الدولة الإسلامية — والتشريع عمادها — بالمدينة . فنزل الوحى يتغيا غايات خاصة بالأمة والدولة وقواعد الحرب والسلم والقضاء والإفتاء والعبادات والمعاملات دون أن يقتصر على أمور الاعتقاد والأخلاق التى عرفها المسلمون بمكة .

وكمثل الوحى أخذت السنة فى المدينة تظهر فى المعاملات لا فى مجرد العقائد .

وتجلت النظرات الأخلاقية فى التشريع العملى . فترقرقت مظاهر التسامح واليسر والعفو فى صفحاته . قال عمر بن إسحق : « لـَمَن أدركت من أصحاب رسول الله أكثر ممن سبقنى منهم فما رأيت قوماً أيسر سيرة ولا أقل تشديداً منهم » .

وضحت السنة بالمدينة تشريع الزكاة فى مصدرها ومصرفها ومقدارها وطبيعتها كضريبة واجبة على الربح والدخل ورأس المال .

وشرع الصيام وتحويل القبلة إلى الكعبة فى العام الثانى للهجرة بالمدينة .

وفى المدينة حددت الزوجات بأربع . ونهت السنّة عن الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها . وحرمت من الرضاع ما يحرم من النسب . وحرّم الزواج بمشركة وزواج المسلمة بغير المسلم . وحرّمت الخمر تحريماً كاملا . وتجلى عداء الإسلام للانتهاز والاستغلال فى النهى عن الربا أو الكسب دون عمل . وعن الغرر أو الكسب بالمغامرة . وأرسيت قواعد الأسرة . ووضحت قواعد الميراث .

وبين القرآن خمس عقوبات دنيوية هى القصاص ، بينه فى سورة البقرة — وهى مدنية — بعد إذ كان قد أبقاه بمكة فى سورة الإسراء لأنه من مألوف العرب . ونزل حد الزنا فى سورة النور وهى مدنية . وشرع حد القذف . وبين حد السرقة فى سورة المائدة وهى مدنية . وفيها أيضاً حد قطع الطريق وبينت السنة فى المدينة حد شرب الخمر .

وغلبت فى مجتمع المدينة آية الرحمة . ودرئت الحدود بالشبهة . . . وتجلت بالقول والفعل خصائص الحنيفية السمحة : لا تكلف نفس إلا وسعها . ولا تزر وازرة وزر أخرى . ولا تكليف إلا ببلاغ . ولا عقاب لمن اضطر غير باغ . ودُعى الناس للتوبة ووعدوا بالمغفرة .

وروعيت المصلحة ودُفعت المشقة . وترك للعرف مكانه فيما يصلح للجماعة مما كان فى الجاهلية . وأوصى الرسول بأهل الذمة فقال : « من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » .

. . .

كانت المساواة بعد التوحيد . أساساً للدين الجديد – وبهذا تصدر بين الصحابة بلال الحبشى . وقال النبي عن سلمان الفارسى : « سلمان منا أهل البيت » .

وحرص الرسول على تعليم المسلمين العدل والمشورة ، بالفعل والقول . باعتبارهما جوهر المساواة ومظهرها . اعترضه فى الطريق بالمدينة يهودى له عليه دين لم يحل فقال اليهودى : إنكم بنى عبد المطلب أهل مطل ! ! قال عمر : إيذن لى يا رسول الله أن أضرب عنقه . قال : « أنا وصاحبى أحوج إلى غير هذا منك يا عمر . مره بحسن التقاضى . ومرنى بحسن الأداء » . والتفت إلى اليهودى يقول : « أيها الرجل إنما يحل دينك غداً » .

وقال عليه الصلاة والسلام عن نفسه ورأيه : «إذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » أى أنه معرض للصواب والخطأ .

روت أم سلمة : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواريث بينهما قد درست وليس عندهما بينة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم تختصمون إلىّ وإنما أنا بشر ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض . وإنما أقضى بينكم على نحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً . فلا يأخذه . فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها إسطاماً فى عنقه يوم القيامة » فبكى الرجلان فقال كل منهما : حقى لأخى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما إذ قلتما فاذهبا فاقتسما ثم توخيا الحق بينكما . ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه » . وزاد أبو داود « إنى إنما أقضى بينكما برأيى فيما لم ينزل علىّ فيه » .

وفى شريعة الشورى يعلن المساواة كذلك فيقول لأبى بكر وعمر : « قولا .

فإنى فيما لم يوح إلىّ مثلكما » ويعلن مكانة رأيهما عنده فيقول : « لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما » . وكان يكثر الاستشارة ، ليعلم الصحابة أن يشتوروا . قال أبو هريرة : « ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ودخلت خصائص التواصل والتراحم والقناعة فى أسلوب حياة الجماعة : جاء عبد الله بن عمرو رجل سأله : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال : ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال : نعم ، قال : ولك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال : فأنت من الأغنياء . قال الرجل : إن لى خادماً ، قال : فأنت من الملوك .

وسنرى بعد ، عائشة يجيئها نصيبها فى الفتوح فتقسم فى الناس سبعين ألفاً وهى ترقع ثوبها ! ! !

قسمت فى الناس مائة ألف لها ثم أفطرت على خبز شعير ! ! وبعث لها ابن الزبير بغرارتين فيهما مال ، ثمانون ألفاً ومائة ألف ، فجعلت تقسمه فى الناس ، ثم أمست ما عندها درهم . وقالت : يا جارية هلمى أفطرى . فجاءتها بخبز وزيت . وقالت الجارية : أما استطعت فيما قسمت أن تشترى بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ قالت : لا تعنينى . لو كنت ذكرتنى لفعلت ! . . .

وكان الرسول يقول : « الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة » . .

وازدان المجتمع الإسلامى بمبادئه التى صيرت المرأة الموءودة فى الجاهلية فخراً للمجتمع بالعلم والفضل ، وشريكة مساوية فى الحقوق للرجل ، وصار من أزواجه عليه السلام المعلمات اللواتى لم يشق غبار لهن ، واللواتى يرجع إليهن أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية وغيرهم .

وكان عليه السلام يعقد حلقة الدرس فى المسجد للرجال والنساء ثم طلب النساء لهن يوماً غير يوم الرجال فكان لهن يومهن .

ولما خالفه من زوجاته من خالفن . قصد عمر إلى بنته حفصة يعلمها . وقصد أبو بكر إلى بنته عائشة يقضى ضدها فى احتكامها إليه . وفى الحديبية

لم ينحر الناس ولم يهدوا ولم يحلوا . فأفضى عليه الصلاة والسلام إلى أم سلمة بما صنعوا فأشارت بأن ينحر ويهدى ويحل . واتبع مشورتها فهدى الله الناس فصنعوا . وما كان رجوعه إليها إلا سنة المشورة . واحترام المرأة والزوجة .

وفى خطبة وداعه أوصى خيراً بالنساء قال : « واستوصوا بالنساء خيراً » .

وكان السلام طبيعته . وتأليف القلوب فى منهاجه : كان فى الخامسة والثلاثين من عمره . وقبل مبعثه بأعوام . يوم دخل الكعبة . من باب بنى شيبة . أول داخل . وقد اختصمت القبائل . أيها يرفع الحجر الأسود فى بناء الكعبة . واصطلحوا على أن يحتكموا إلى أول قادم فإذا هو لأول . ليحكم : فيبسط رداءه ويضع عليه الحجر — ويجعل لكل قبيلة ممثلاً يأخذ بطرف من الرداء ويرفعون الحجر جميعاً ، ويحكم حكماً إسلامياً قبل أن ينزل الإسلام : فيساوى بين القبائل ويمنع الحرب ويوحد العرب .

ولما أحس عليه الصلاة والسلام بدنو أجله خرج فجلس على المنبر فقال : « أيها الناس . من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه . ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه . أو من أخذت له مالاً فهذا مالى فليأخذ منه . ولا يخش الشحناء من قبلى : فإنها ليست من شأنى . ألا وإن أحبكم إلىّ من أخذ منى حقاً إن كان له أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس » .

. .

وإذا كان من الأمور ما يشبه العدسات الصغيرة التى تظهر أشياء كثيرة فى صلح الحديبية متشابه من ذلك . هنالك الخلفاء الراشدون الأربعة إلى جوار الرسول . ولكل فضل ، وهناك مقدار ما يرجح اليسر . وخصائص أبى بكر وعمر .

بلغ النبى مكة فى ألف وأربعمائة . وأخذت قريشاً المفاجأة . فهبت تصده عن الكعبة واختار عثمان للمفاوضة فأنجحته سجاياه . وأملى الرسول العهد على علىّ بن أبى طالب قال : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » قال سهيل بن عمرو ممثل المشركين : أمسك . لا أعرف الرحمن الرحيم. اكتب باسمك اللهم . ثم قال الرسول : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » قال سهيل :

« لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . قال عليه الصلاة والسلام ، وهو فى مركز القوة : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله . . . » .

تضمنت العهدة أن من جاء المسلمين بغير إذن وليه ردوه . ومن جاء قريشاً من المسلمين لم يردوه . قال عمر لأبى بكر : يا أبا بكر . أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال بلى . قال عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا

قال أبو بكر : يا عمر ألزم غرزه (رحله . ركابه - يقصد موقفه) فإنى أشهد أنه رسول الله .

قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله

وانقلب عمر إلى الرسول مغيظاً محنقاً ، ولكن الرسول أجاز العهدة ووقع صحيفتها .

وتشاء السماء أن يمتحن المشركون وفاء المسلمين ، فلم يكد النبى يوقع العهد حتى جاءه أبو جندل بن سهيل نفسه موثقاً بالحديد فراراً بدينه . قال سهيل للنبى : قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا . فهو لى. فقال رسول الله : « يا أبا جندل قد لجت القضية بيننا وبين القوم ، ولا يصلح لنا الغدر ، والله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » .

وأخذ المشركون أبا جندل .

ثم خرج (أبو بصير) من مكة مسلماً إلى المدينة بغير إذن وليه وأرسلت قريش إلى النبى تستعيده فأعيد مع اثنين من قريش فقتل أحدهما فى طريق مكة وفر إلى ذى الحليفة يقطع الطريق على تجارات مكة . وتداعى إليه سبعون فارون مثله . ولحق بهم أبو جندل من مكة . فتوسلت قريش أن يقبلهم النبى عنده لئلا يقطعوا الطريق على تجارتها ! ثم نقضت قريش العهد بمعونتها لبنى بكر — أوليائها — على بنى كعب — أولياء النبى — فخرج المسلمون إلى مكة . فكان الفتح دون إهراق دم . وإسلام قريش . وإسلام جزيرة العرب

وأصبح سهيل بن عمرو نفسه أكثر كبراء قريش صياماً وقياماً وصلاة وصدقة . وخطيب أهل مكة ليثبتوا على الإسلام عند الردة . وانتهى به الجهاد إلى الاستشهاد فى اليرموك .

فى هذا الموقف يتراءى لنا النبي يسراً كله . وأبو بكر اتباعاً كله أبلغه الاجتهاد فيه ما شاء الله أن يبلغه .

ويتراءى لنا عمر فى المنهاج ذاته متبعاً . مجتهداً . مجادلاً .

لكن أبا بكر هو الصديق « وثانى اثنين » عناهما القرآن . أولهما النبي

وهذا المنهاج للرجلين معاً سيكون منهاج المدينة كلها تتوارثه جيلاً بعد جيل حتى يؤول إلى مالك بن أنس فيقف منه ومن دين الإسلام مواقف حراس القلاع أو حراس المنائر . وتخلع القلعة أو المنارة اسمها على الحارس ، فيتلازمان على الزمان .

الصديق يجتهد :

خلف الصديق الرسول عليه السلام ، وكان من قوله يوم أنفذ أسامة : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن استقمت فتابعونى ، وإن زغت فقومونى » وقال لفاطمة الزهراء : « إنى والله ما أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » .

« فالابتداع والاتباع » تعبيران من تعبيرات أبى بكر فى الأيام الأولى لخلافته يتخذهما قاعدة لسياسة الدولة والأمة . وسيصيران فيما بعد مشغلة العلماء والفقهاء والأمة .

فى غزوة مؤتة أمّر الرسول على الجيش زيد بن حارثة – مولى النبي – فإن مات كانت الإمارة لجعفر بن أبى طالب ، يريد – عليه السلام – ليكون فى إمارة المسلمين المولى والقرشى ابن عم النبي .

ولما أمّر النبي فى آخر أيامه أسامة بن زيد على الجيش كان فيه أبو بكر وعمر . ولم يفصل الجيش عن المدينة لموته عليه السلام .

وسرى الهمس فى الأنصار – فقصدوا عمر يقولون : « أبلغه – أبا بكر – عنا

واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلاً أقدم سنًّا من أسامة » فحدثه عمر فوثب من مكانه وأخذ بلحية عمر وقال مغضباً : « ثكلتك أمك يا ابن الخطاب . استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتأمرنى أن أنزعه » ! !

ورجع عمر إلى الأنصار يقول : « امضوا ثكلتكم أمهاتكم . . ما لقيت فى سبيلكم من خليفة رسول الله » .

وسار أبو بكر على قدميه يودع جيش أسامة ، ودابة أبى بكر من ورائه يقودها سيد من سادات قريش هو عبد الرحمن بن عوف .

قال أسامة . وهو راكب مركب القائد : يا خليفة رسول الله ! والله لتركبن أو لأنزلن . قال أبو بكر : « والله لا تنزل ووالله لا أركب . وما علىّ أن أغبّر قدمى فى سبيل الله ساعة » حتى إذا أخذ يودعه قال له أبو بكر : « إذا رأيت أن تعينى بعمر فافعل » وبلغت شجاعة القائد الشاب أن تخلى عن عمر .

* * *

رجع أبو بكر إلى المدينة يواجه ردة العرب فى أرجاء شبه الجزيرة .ا ردة كاملة أو عن بعض الفروض (الزكاة) . قائلين إنهم بايعوا محمداً ، ومحمد قد مات . أو قائلين إنهم لا يخضعون لسلطان المدينة ، بل يسترجع كل قبيل سلطانه .

ادعى النبوة « مسيلمة الكذاب » فى اليمامة شرقى الجزيرة العربية وادعتها فى شمال العراق « سجاح » . وسيزف المتنبآن فيتزوجان! وادعى النبوة فى الجنوب لقيط بن مالك فى عمان . وكان قد ادعاها فى اليمن « الأسود العنسى » فى أواخر أيام الرسول فواصل أتباعه الارتداد . وفى بنى أسد تنبأ طلحة بن خويلد . . . وانتشر الكفر انتشار النار فى الهشيم فوق رمال شبه الجزيرة .

ولم يضيع خليفة الرسول لحظة فى إعداد العدة ليقاتل المرتدين لكن عمر قال : كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله إلا بحقه » وهم يقولونها ؟ قال أبو بكر لفقيه المسلمين عمر : والله لأقاتلن من

فرّق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال . وأضاف : « والله لو منعونى عناقاً لقاتلتهم على منعها » ثم قال : « يا ابن الخطاب رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك . أجبّار فى الجاهلية وخوار فى الإسلام ؟ إنه قد انقطع الوحى وتم الدين . أوَ ينقص وأنا حىّ » ؟

لا جرم كان أبو بكر أفقه فى اجتهاده واتباعه . فالزكاه حق فى المال وركن للدين ، وكانت حروب الردة خيراً فى شكل شر . وطدت أركان الدين . وأعدت العرب إعداداً عسكريًّا لتنقل الجيوش المحاربة ذاتها بالدين إلى كل مكان فى بضعة وعشرين شهراً .

وكان عمر جليلا فى اتباعه لما تبين له الحق من أبى بكر . يقول أبو رجاء البصرى : دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلا يقبل رأس رجل ويقول له : أنا فداؤك . ولولا أنت لهلكنا ! قلت من المقبِّل ومن المقبَّل ؟ قالوا هو عمر يقبل رأس أبى بكر فى قتال أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين .

حارب خالد بن الوليد المتنبئين الثلاثة طلحة ومسيلمة ومن باطنه سجاح . وكان لصناديد المسلمين إمرة الألوية الأخرى . وكانوا جميعاً من المهاجرين أما الأنصار فأبقاهم أبو بكر للدفاع عن المدينة .

وحالف النصر ألوية الإسلام فى كل مكان . وقتل خالد بن الوليد مالك ابن نويرة قائد المرتدين وبنى بامرأته فى ميدان القتال ، على غير مألوف المسلمين . فاختلف فى أمره أبو بكر وعمر — عمر يرى محاسبة خالد من فوره . وأبو بكر يراه يحرز النصر تلو النصر فلا يشيم سيفاً سله الله . فلا يعزله . ويتبع ما صنعه الرسول معه يوم قتل بعض الأسرى فى حرب بنى حذيمة فلم يعزله وودى القتلى .

وستثبت الأيام سداد أبى بكر فيفتح خالد أعظم الفتوح للإسلام . ويثبت عمر صدق عزمه عندما يلى الخلافة فيعزله . فالنصر من عند الله سبحانه .

ولم يكن عزل عمر لخالد راجعاً إلى وجوب أن يخضع السلاح للوشاح أو

السلطة العسكرية للسلطة الشرعية ، كما يقول المثل اللاتيني من عهد الرومان Cedant arma togoe وهو مبدأ لم يؤخذ على خالد فيه أثارة من الريب . فلقد كان مثلاً أعلى فى طاعة ولى الأمر واتباعه . وإنما أخذه عمر بالشدة للأسباب التى أخذه بها أبو بكر باليسر .

وجملة رأى عمر أن خالداً سيف الله المسلول ، وهو بهذا مطالب بأن يأخذ نفسه بالفضائل الإسلامية أضعاف ما كان يطالب بها غيره .

وعمر كان يميز نفسه ، وأهله ، بأن يأخذهم بأكثر مما يأخذ به سائر الناس . ويضاعف لهم العقاب إن أخطأوا — وخالد ابن عم حنتمة أم عمر . وهو ابن لبابة الصغرى أخت أم المؤمنين ميمونة . وأخت لبابة الكبرى زوج العباس عم النبى

ولقد أعلن عمر بعد عزل خالد أنه خشى أن يفتتن به الناس .

وخالد مثل يقتدى به . . وعمر يضرب الأمثال كافة للناس .

* * *

استشهد يوم اليمامة — فى حروب الردة — مائتان وألف من المسلمين بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصحابة وحفاظ القرآن .

فذهب عمر إلى أبى بكر يقول : إن القتل استحر بالقراء فى المواطن . فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه وإنى لأرى أن تجمع القرآن .

قال أبو بكر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هو والله خير . ولم يزل يراجعه حتى شرح الله بذلك صدر أبى بكر . ورأى الذى رآه عمر .

وعهد الخليفة إلى زيد بن ثابت فتتبع القرآن من الرقاع والأكتاف والعسب (جريد النخيل) وصدور الرجال فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله . ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر . وأخرج زيد السور كما جمعت آياتها فى عهد الرسول . . .

وهكذا كان العمل غير العادى فى تاريخ البشر والذى حفظ لهم كلام الله كله كما نزل . عملاً من الأعمال اليومية لأبى بكر وعمر !

وليست اجتهادات أبي بكر التي أسلفناها إلا أمثالا على اجتهاداته التي أعزت الإسلام وأظهرت جلالة الفقه عنده وعمقه . ومنها انبثق النبع الدافق فتعلمت الأمة — وفيها عمر — على أبي بكر أن تجتهد وهي تتبع الرسول — كمثل ما تعلمت الأمة على عمر . وسنرى عمر غداً المجتهد الأكبر .

* * *

مرض الصديق بعد سنتين وشهور من خلافته فقال الناس : يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا فاختر لنا . قال سأجتهد لكم رأيي وأختار لكم خيركم . ثم أرسل إلى عمر فقال : يا عمر أحبك محب . وأبغضك مبغض . وقديماً يحب الشر . ويبغض الخير . فقال عمر : لا حاجة لي بها . فقال أبو بكر : لكن بها إليك حاجة والله ما حبوتك بها . ولكن حبوتها بك .

ولما دنت ميته دخل عليه عبد الرحمن بن عوف يعوده ونكلم أبو بكر كلاماً للأمة فقال فيما قال : « والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فيضرب عنقه في غير حد . خير له من أن يخوض غمرات الدنيا . . ثم أنتم غداً أول ضال بالناس يميناً وشمالاً . لا تضيعوهم عن الطريق . يا حادي الطريق جرت » .

عمر يجتهد

ولي عمر إمارة المؤمنين . وكما يقول ابن قتيبة : اتبع في عمله سنة صاحبيه وآثارهما كما يتبع الفصيل (ولد الناقة) أثر أمه ثم اختار له الله ما عنده .

كان عمر طوالا كأنه راكب يمشي في الناس . عظيما كل العظمة التي يتصورها فكر . لكن أبا بكر كان أكبر : في شخصه من النبي أكثر . وكان عصره أقرب إلى عصر النبوة من عصر عمر .

ولما أغذّ عمر الخطى للحاق بأبي بكر كانت آية النجح في محاولته ثباته في مكانه . بعد النبي وأبي بكر تماماً .

ولما أبّن عمر أبا بكر قال : « يا خليفة رسول الله لقد كلفت القوم بعدك تعباً . ووليتهم نصباً . فهيهات من شق غبارك . فكيف اللحاق بك » .

أعلن عمر أن التقوى هى العدة الوحيدة للدنيا والآخرة . للحياة وللنصر .

قال لسعد بن أبي وقاص : «أما بعد فإنى آمرك ومن معك بتقوى الله . فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى من المكيدة فى الحرب . وآمرك وأصحابك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم » .

وقال لعبد الرحمن بن عوف إذ طلب إليه أن يلين : « يا عبد الرحمن لقد لنت للناس حتى خشيت الله فى اللين ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى الشدة فأين المخرج » فخرج عبد الرحمن من عنده وهو يقول : أفّ لهم من بعدك !

وقال عمر : « إن الناس لا يزالون مستقيمين ما استقامت أئمتهم وهداتهم » .

وقال : « الرعية مؤدية للإمام ما أدى الإمام إلى الله ، فإذا رتع رتعوا » .

وأيدت أقواله أعماله . فالأعمال أعلى صوتاً من الأقوال .

رآه الناس عام الرمادة وقد اسود لونه — وكان أبيض مشرباً بحمرة — وحرم نفسه السمن واللبن واللحم وجاع مثلهم . ولو لم يرفع الله الجدب لمات همًّا على المسلمين . . . .

وقدمت السوق بضاعة من سمن ولبن فاشتراهما غلام له بأربعين درهماً وذهب إليه — وكان قد حلف لا يأكل سمناً ولا لحماً حتى يحيا الناس — قال الغلام : قد أبر الله يمينك وقد اشتريت ذلك بأربعين درهماً . قال عمر : أغليت . فتصدق بهما . فإنى أكره أن آكل إسرافاً . وأطرق هنيهة ثم قال : كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم .

وأضحى زهد الزاهدين بعض زهده . والدنيا ملك يده . فنزل بعيشه إلى مستوى الفقراء الذين لا يجدون إلا مائدته . فكان يأكل معهم . ولا يطعم فى داره حتى لا يؤثر نفسه بشىء !

وأكثر ضرب الأمثال للناس من نفسه وزوجه وبنيه . . خرج ليلة إلى ظاهر المدينة ومعه مولاه أسلم . فسمعا امرأة جاءها المخاض . فسألها عن حالها

فقالت : ليس عندى شىء . فهرول إلى زوجته أم كلثوم — وعاد يحمل دقيقاً وشحماً على ظهره وتحمل هى أشياء تصلح للولادة . وجعل يحدث زوجها وأم كلثوم تحدثها حتى وضعت فصاحت أم كلثوم : يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام . فعرف الرجل ساعتئذ أن أمير المؤمنين وزوجه هما اللذان يخدمانه وزوجه !

وجاء أم كلثوم عقد من الجوهر من ملكة الروم فى بريد المسلمين . رداً على هدية إليها من طرائف بلاد العرب . فوقع العُقد فى يد عمر . فأمر فنودى : الصلاة جامعة — واستشار — قالوا : هو لها . قال : لكنه حمل إليها فى بريد المسلمين . وقوّم ما أهدته إلى ملكة الروم — فرد مثله إليها . وأضاف الجواهر إلى بيت المال .

وجلس يوماً يقسم مروطاً . وبقى مرط أعجبه واقترح بعضهم أن يعطيه لابنة رسول الله التى عنده (يقصدون زوجته أم كلثوم) بنت على من فاطمة الزهراء قال : لا بل (أم سليط) الأنصارية أحقّ لأنها كانت تزفر لنا القرب يوم بدر .

وكانت المساواة عنده قانوناً كقوانين الطبيعة الصارمة .

أقام حد الخمر على ابنه عبد الرحمن الأوسط (أبى شحمة) . قال العراقيون مات من السياط — والآخرون يقولون : لقد مات لغير السياط بعد شهر .

وعزل خالد بن الوليد . وهو ابن خاله . وسعد بن أبى وقاص وهو من خؤولة الرسول . وخالد سيف الله المسلول . وسعد مرشح عمر فيما بعد للخلافة . وهما كلاهما أعظم قائدين فى الإسلام . وحاسب عماله كمثل ما حاسب نفسه وأهله ومنع الغزاة الأرض التى فتحوها وقوادهم مجموعون تقطر أسيافهم من دم العدو .

وفى ذات يوم قدم الأمير الغسانى جبلة بن الأيهم فى كوكبة أفراس تحمل فوارس الشام فرحب به وأدنى مجلسه . وكان لجبلة فى بلاط إمبراطور الروم مكان . وخرج الأمير إلى الحج مع الخليفة فوطئ إزاره رجل من فزارة . فلطمه فشكا الرجل لعمر . وأقر جبلة باللطمة .

قال عمر : إما أن ترضى الرجل وإما أن أقيده منك قال : كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة ؟

قال عمر : إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله إلا بالتقى والعافية . وقال : إنك إن لم ترض الرجل أقدته منك .

قال : إذنْ أتنصر .

قال عمر : إن تنصّرت ضربت عنقك لأنك أسلمت فإن ارتددت قتلتك.

قال جبلة إذ رأى الصدق من عمر : أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه ، فأنظره عمر. حتى إذا جن الليل هرب جبلة برجاله إلى الشام ثم إلى الإمبراطور فى بيزنطة .

* * *

لكن فتوحات عمر كسرت كسرى وقصرت قيصر : فإذا امبراطوريتان تمسكان نصفىْ كرة الأرض تساقطان ، فى بضع سنين — تحت ضربات المؤمنين . لقد فوجئ التاريخ البشرى بعرب الصحراء تحيلهم تعاليم الإسلام فى أعوام ، إلى علماء ، وحكماء وساسة نوابغ ، وإلى أبطال مغاوير ، بغير استثناء، لأنهم كانوا يلتمسون الشهادة وهم يحاربون ، وكانوا يتواعدون على الجنة ، وفوجئ بوجه الدنيا وعقلها يتغير . والإسلام ينتصر .

وتقدمت مبادئ الإسلام قعقعة أسلحته . كهيئة الضوء يسبق الصوت فى الطبيعة . وأقبلت حضارات مصر والرومان وفارس والشام فى أربعة أعوام (١٧ — ٢٠) تلتمس أحكام الإسلام . وحق على عمر أن يضيف إلى فتوحه العسكرية فتوحه الفكرية ليكفل المواءمة بين ما عليه الناس وما سوف يكونون . ولم يعد يكفيه الاقتداء بمن سبقوه . بل أضحى عليه الابتداء بما لم يسبقه إليه أحد .

كانت خلافة أبى بكر سنتين وأشهراً. وهى امتداد أو اختتام لعصر النبوة — أما خلافة عمر فسنوات عشر هى فاتحة العصر الجديد للعالم .

وكانت خلافة أبى بكر حرباً وإعداداً للحرب وانتصارات لا تقوم فيها مشكلات مجتمعات أو معاملات . أما خلافة عمر فكانت فتوحاً للعالم المعروف كله ومعايش وأرزاقاً . وفيها المشكلات .

وساعدته الأمة بالانتصارات فى ميادين المعارك . وبالشورى معه ، والطاعة له ، والاعتراض عليه ، فأصبحت الأمة الإسلامية صفًّا ، عمر على رأسها. تحس بأنها تؤدى مهمة للتاريخ . فأدركتها بتضحياتها وفضائلها . وكان عمر جديراً بأمته جدارتها به .

* * *

وانطلق الفاروق يجتهد لنفسه وللإسلام — رفع الحظر الذى قرره أبو بكر على المرتدين كيلا يشتركوا فى حروب الإسلام . فأبلوا أحسن البلاء . . . وأجلى النصارى واليهود من جزيرة العرب على أن يختاروا أرضاً أخرى صالحة وألا يفتنوا فى دينهم . ووضع الديوان لأرباب الأعطيات . ومصر الأمصار التى يصدر عنها المجاهدون . ووضع التاريخ الهجرى فى السنة السابعة عشرة . ونظم الحكم فى البلاد المفتوحة . ورتب الشئون المالية للدولة . وقرر استقلال القضاء عن الخليفة .

وآثر السابقين إلى الإسلام وأهل الرسول فى العطاء . كان أبو بكر يقول : « إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه يوفيهم ذلك فى الآخرة . وإنما هذه الدنيا بلاغ » لكن عمر قال : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » وقال : « ابدءوا بقرابة النبى صلى الله عليه وسلم » وقال : « الرجل وبلاؤه فى الإسلام . والرجل وقدمه فى الإسلام والرجل وغناؤه فى الإسلام » . ثم عدل فى أواخر أيامه فقال : « لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم . ولأجعلنهم رجلا واحداً » .

وراح يفتح الأبواب فى حدود القرآن والسنة : فى الزواج والطلاق . مثل أن يحرم الدخول بمن تزوجت فى العدة ويمضى الطلاق الثلاث مرة واحدة . ثلاثاً ، وفى الحدود فيقدر حد الشارب . وفى الميراث فيورث مع الأخوة لأم الأخ الشقيق . وفى القضاء فيقضى ، ويعدل عن فقهه . ولا يعدل عن قضائه ، ويحترم قوة الأمر المقضى .

واجتهد فى الحرية الشخصية فنفى من المدينة تفادياً للخطر وكان سباقاً لسد الذرائع وللعمل بالمصالح . لا ينام كيما يجعل الرعية تنام .

وكانت ومضات فكره مصابيح فى الاتباع أو الابتكار .

كان يعس ليلة فسمع امرأة تغنى :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فلما أصبح سأل عن نصر هذا فإذا هو من أحسن الناس شعراً وأصبحهم وجهاً . فأمره أن يطم شَعره . ففعل فظهرت جبهته فازداد حسناً ، فأمره أن يعتم ففعل فازداد حسناً ، قال عمر والله لا تكون بأرض أنا بها وأمر له بما يصلحه وسيره إلى البصرة .

وفى ليلة أخرى سمع — وهو يعس — نسوة يقلن : أىّ أهل المدينة أصبح ؟ قالت إحداهن : أبو ذئب . فلما جىء به إلى عمر رآه من أجمل الناس فقال له : أنت والله ذئبهن . ثم قال : والذى نفسى بيده لا تكون بأرض أنا بها . قال الرجل فإن كنت لا بدّ مسيرى فسيرنى حيث سيرت ابن عمى . يريد نصر ابن حجاج — فأمر له بما يصلحه وسيره إلى البصرة كذلك .

وانطلق فى ليلة ثالثة ؛ فإذا قوم على شراب عرف أحدهم فدعاه إليه فى الصبح . قال له : كنت وأصحابك على شراب . قال : وما أعلمك يا أمير المؤمنين ؟ قال شىء شهدته . قال : أو لم ينهك الله عن التجسس يا أمير المؤمنين ؟ فتجاوز . . .

وفى عام الرمادة كان يقول : نطعم المسلمين من بيت المال حتى إذا لم نجد شيئاً أدخلنا على كل أهل بيت من الأغنياء مثلهم من المحتاجين وما نزال نفعل حتى يطعم المسلمون جميعاً .

* * *

واجتهد عمر . فمنع تدوين الحديث مخافة أن يخلط القرآن بشىء ، وكان العرب بالقرآن حديثى عهد . ولقد ظهرت فيما بعد مخاطر إقبال الناس على الحديث فلعله كان على حق . وظهر أن عدم التدوين كان وسيلة للانحراف من أكثر من وجه . فلعل التدوين كان الحق .

ولقد كان عمر فى بعض الأحيان يعتذر عن عدم معرفته بحديث فيقول :

« ألهانى الصفق فى الأسواق » أو ينادى فى الموسم بمن يعلم السنة فى موضوع بذاته ! عن مالك عن ابن شهاب : أن عمر نشد الناس بمنى . من كان عنده علم من الدية فليخبرنى فقام الضحاك بن سفيان الكلابى فقال : كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها فقال له عمر : ادخل الخباء حتى آتيك فلما نزل عمر أخبره الضحاك فقضى عمر بذلك .

وذات يوم نادى فى الناس : أذكر الله امرءاً سمع من النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنين شيئاً . فقام حمل بن مالك قال : كنت بين جاريتين لى فضربت إحداهما الأخرى بمسطح (عود الخباء) فألقت جنيناً ميتاً فقضى فيه رسول الله بغرة . فقال عمر : « لو لم أسمع فيه لقضينا بغيره » .

وكان يعدل عن رأيه إذا تبين له الحق .

لقيه قوم من نصارى أذرعات يلعبون أمامه بالسيوف والريحان كما تعودوا فى الحفاوة بالعظماء عندهم فقال : ردوهم وامنعوهم : فهو لا يطيق المظاهر ، قال أبو عبيدة بن الجراح : يا أمير المؤمنين هذه عادتهم وإنك إن تمنعهم يروا فى نفسك نقضاً لعهدهم . فقال : دعوهم . عمر وآل عمر فى طاعة أبى عبيدة .

* * *

ولئن كان خالد بن الوليد قد ارتفع فى عالم الحرب إلى سماء لا تطاولها سماء . أو كان يعلو على قيصر ونابليون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت بمثله من جراحات المعارك . فقال وهو يموت : « شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى موضع إلا فيه ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح . ولقد طلبت القتل فى مظانه فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى حتف أنفى فلا نامت أعين الجبناء » واندق فى يده يوم مؤتة تسعة أسياف . ويوم مؤتة يوم واحد من عشرات . فإن خالداً الضخم لم يكن إلا واحداً من قواد عمر .

وإذا كان فتح مصر على يد عمرو — أخطر تطور فى التاريخ الطويل لمصر . ففتح مصر من أصغر فتوحات عمر بطولات . سبقه تدمير إمبراطوريتين بتمامهما

يحكمان العالم المعروف كله ومنه مصر .

وإذا كانت انتصارات عمر قد فتحت الآفاق فى أرض الله كلها للإسلام .

وإذا كان قد وضع التاريخ الهجرى فأمسى حديث البشر صباح مساء .

إذا كان ذلك كله كذلك فالدنيا تذكر عمر أكثر ، بأمر أكبر ، فتقول « عدل عمر » ، أكثر مما تقول : فتوحات عمر أو إصلاحات عمر ؛ لأن عمر قد صير العدل ديناً له . والإسلام صميمه العدالة .

والعدالة جماع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وبهما وبالإيمان كان المسلمون خير أمة ، فحقق عمر بعدله قول الله جل ثناؤه : (كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

وإنما العدل صفة من صفاته وأسمائه . سبحانه . ومن هنا دخل فى صميم العقيدة الإسلامية أصلا إسلامياً أول وارتفع به اسم عمر .

* * *

وذلل السبل لعمر امتداد الزمان به سنوات عشراً ، واستقرار الأمور له دهراً ، وتعاقب الحوادث وتعاظمها . مع اعتماده الأساسى على المشورة . فشاركته الأمة حكمه . وكثرت اجتهاداته ، وأثرت اتجاهاته ، فى مذاهب الفقه . تتلاقى عندها كالروافد فى المجرى العريض الواحد . وما هو إلا بحر الاجتهاد لاستنباط الأحكام والبحث عن العلل ومقاصد الشارع وتخريج النظائر فى شريعة معقولة المعنى . تحمل فى صميمها أسباب خلودها ووسائله .

ويتجلى مقام عمر الأعلى حينما تراه قمة للطريقتين اللتين تنتظمان فقه الفقهاء . وهما كما يتجلى بعد أكثر من ألف عام وثلثمائة عام — طريق واحدة قاصدة . هى طريق السنة .

هنالك يتراءى عمر فى اتباعه واقتدائه بين النبى عليه الصلاة والسلام وأبى بكر ، ومن مأثور قوله عنهما : «هما المرءان أقتدى بهما » وبين مدرستى أبى حنيفة ومالك ، فأبو حنيفة إمام العراق تلميذ فى مدرسة عبد الله

ابن مسعود . وأقرب فقه إلى ابن مسعود فقه عمر . قال الشعبي : كان عمر لا يقنت ولو قنت عمر لقنت عبد الله . وكان عبد الله يقول : لو سلك الناس وادياً وشعباً وسلك عمر وادياً وشعباً لسلكت وادى عمر وشعبه .

وفى الوقت ذاته نرى مالكاً إمام الحجاز يمت إلى أبى بكر وعمر بكل أسباب مدرسة المدينة من الفقهاء السبعة تلاميذ مدرسة عمر . وعمر بن عبد العزيز – حفيد عمر – وسلسلة الذهب : الشافعي عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر . ونرى مالكاً يصنع صنيع عبد الله بن عمر فى اتباعه للأمر الأول ويلقى الدروس فى مسجد الرسول ، حيث كان يجلس عمر بن الخطاب نفسه . بل يتخذ لنفسه مسكناً بالكراء فى دار عبد الله بن مسعود نفسه .

وكانت تربط مالكاً بأبى بكر روابط وثيقة من الفكر فى طريق الاتباع . وهو قد تعلم فى مدرسة بنى تيم قوم أبى بكر . وفيها وفى مدرسة عائشة تعلم المعاصرون له .

ولقد شهد التاريخ خليفتى الرسول فى اتباعهما يتجاريان ، وكأنهما يتباريان ، وإن سلم السبق لأبى بكر – وعمر يسبح سبحاً طويلا فى التيار المقدس .

* * *

وربما أظهرت بعض اللمحات مقدار ما يتكامل الرجلان فى الحقيقة والطريقة وإن اختلفا فى الطبيعة . وكأنما كان اختلاف الطباع وسيلة للمزاج الموفق الذى ألف منهاجهما .

فموقفهما فى صلح الحديبية واحد فى حقيقته أو نتيجته إذ انتهى عمر إلى رأى أبى بكر ، وبعد قليل من الجدل ، وإن كان أبو بكر قد استبان له الحق قبله . بمجرد أن النبى صنعه .

وموقفهما فى إنفاذ جيش أسامة الذى أعده النبى هو كهيئة الموقف نفسه .

وكهذين الموقفين اجتهاد عمر فى حروب الردة . اجتهاد من بحث عن الحق فى مجلس أبى بكر فوجد الحق كله معه ، فتبعه .

وثمة اجتهادان آخران مشتركان يدلان على مقدار ما يشتركان ويتساويان .

أولهما : جمع القرآن . وكان رأياً لعمر . وأبو بكر هو الذى تساءل قبل أن يقبله : « كيف يصنع شيئاً لم يصنعه الرسول » فلما انتهى إليه كان له فضل عمله . ولعمر فيه فضل الابتداء به . والثانى : أن خلافة عمر كانت اختياراً من أبى بكر بابتداء منه . ولم تكن لعمر فيها رغبة . واعتراضه من فوره مثل تساؤل أبى بكر من فوره عند جمع القرآن : كلاهما مرحلة اجتهاد لبلوغ الحق فلما انتهى الرجلان إلى تنصيب الخليفة الذى سيرسى أركان الدولة وينشر الدين ويفتح أبواب الاجتهاد . كان عمر صنو أبى بكر .

وهذان مثلان آخران لعمر فيهما وجهة نظر . أولهما : تفضيل عمر فى العطاء لمن قاتل مع الرسول على من قاتله . مخالفاً أبا بكر . وأنفذ عمر رأيه هو ، لكنه أعلن عزمه على العدول بعد . والثانى : عزل خالد . حيث عمل أولا برأى أبى بكر ثم أنفذ رأيه عندما أتيحت له السلطة . فهذان موقفان يتلاقيان فى أمور ويفترقان فى أمور وفى موطن لقائهما والفراق بينهما أكثر من مصلحة .

كانت بصيرة الصديق ترى الرأى الحق فى أكثر المواقف . دون حاجة لجدل . فلقد كان أطول من عمر صحبة ، وأعلى منه سناً بسنوات عشر قضاها كلها مع صاحبه صلى الله عليه وسلم . وبهذه الصحبة التى أتيحت لأول المسلمين من الرجال سبق أبو بكر وسمق . فصار التوفيق لما يلزم للدين جوهر طبيعته وإن ناقش وإن استشار . وصار التصديق والاتباع الفاهم الملهم طريقة له . ومن مأثور قوله : « الصبر نصف الإيمان . واليقين الإيمان كله » فاتباعه كان تمحيصاً بلغ من قبل مرتبة اليقين بالحق فيما كان وما قد يكون . فلم تكن اجتهاداته أو ابتكاراته فى الأمور إلا دفقاً من النور تلقاها من الرسول فألقاها للناس ، فى مناسباتها ، آراء مبتكرة .

وكان عمر الفاروق بين الحق والباطل . وللتفرقة يجادل . ليبلغ مبالغه . ولقد طالما نزل القرآن بموافقته فى مسائل أحصى بعضهم أنها بضع عشرة وأحصى آخرون أنها عشرون ونيف . منها ما خالف فيه النبى وأبا بكر كرأيه فى أسارى بدر . ولما بلغه معاتبة النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخل عليهن فقال : « إن

انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن » فأنزل الله آيته فى ذلك . وجادل الرسول فى الصلاة على ميت منافق فنزلت : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) .

وكان عمر يذكر فضل الله عليه فيقول – كما فى صحيح مسلم –: وافقنى ربى فى ثلاث : قلت يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى فنزلت : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب . فنزلت : (وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) وفى أسارى بدر فنزلت : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) .

* * *

ولقد ألقت السماء إلى الأرض معانيها عندما ألهمت عمر أن يكلف من يطلب بعد مماته إلى عائشة الإذن بأن يدفن فى قبر صاحبيه – زوجها وأبيها – وعندما ألهمتها أن تؤثره على نفسها برفقتهما . ليجتمع فى المكان والزمان ثلاثة أصحاب انتهت حياتهم ، كلهم ، فى الثالثة والستين . وانتهت بهم هنالك كذلك ، حقبة واحدة تشتمل على النظرية والتطبيق . . . فى مراحل ثلاثة متكاملة . هى عصر الرسالة . وعصر ما بينها والدنيا – عصر أبى بكر . وعصر ما يجب أن تكون عليه الدنيا ، كما نزلت لها – عصر عمر .

كانت العصور الثلاثة ، عقداً من أنوار السماء . تنتظم (المدينة المنورة) حياته أو سنواته . التى صيرتها عاصمة الإسلام . واقترن المكان بالأشخاص والأشياء والآراء اقتران محتويات الوعاء بالوعاء . وأمست المدينة كالنص ومضمونه ، فكرة لا مجرد بلدة . ونظاماً لا مجرد مكان . أصبحت علماً على الإسلام يطلق عليه الفقهاء والأئمة : المدينة المنورة التى إليها كانت الهجرة ، أو دار السنة أو دار الهجرة .

الفصل الثانى

من المدينة إلى دمشق

« إنها حـرم آمن »
« إنها حـرم آمن »
« إنها حـرم آمن »
(حديث شريف)

دخل « الاتباع » التاريخ الإسلامى من باب السياسة . وأصبح المؤهل الأول للخلافة . والبيعة . ورضى الجماعة ، ونبراساً للأمة . وأساساً للفقه .

فلقد عهد عمر قبل أن يجود بروحه إلى ستة من السبعة الباقين على قيد الحياة ممن بشرهم النبى بالجنة ومات النبى وهو عنهم راض ، ليختاروا من بينهم خليفة مستبعداً سابعهم — (سعيد بن زيد بن نفيل) لأنه ابن عمه .

كان عمر يقول عن على : لو وليها الأجلح (الأصلع) لحملهم على الجادة . لكنه تذكر ما قيل لأبى بكر عن شدة عمر إذ رشحه وجواب أبى بكر أنه سيقول لله إذا سأله استخلفت على أهلك خير أهلك ... فلم تعد الأيام كالأيام . وأبو بكر لقى ربه والمسلمون مشتبكون مع فارس والروم فى كل الميادين فلم يكن يملك للإسلام ساعة يضيعها فى المشاورات .

تولى عبد الرحمن بن عوف إدارة المداولات بين الحاضرين وخلع نفسه من الخلافة على أن يختار غيره . فبقى على وعثمان وسعد بن أبى وقاص ، والزبير ابن العوام — وطلحة .

وكان عبد الرحمن من أكرم المسلمين وأعظمهم تقوى . فراح يسأل الناس سواء الغلمان أم القوم لهم أسنان ، ومن الرجال والنساء وأمهات المسلمين . وأسر إلى على فيما بينهما : أرأيتك ، لو لم أولك فمن تشير على أن أختاره؟ قال عثمان . وأسر السؤال إلى عثمان فقال : على ... فقربت عليه الشقة .

ومضت أيام الشورى فرقى المنبر . وجلس مجلس النبى . وطال وقوفه ، وهو

يدعو الله دعاء لم يسمعه الناس ثم قال : هلم إلىّ يا على . فقام فبسط يده فأخذ بيد على فقال : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر ؟ قال على : اللهم لا . ولكنى أحاول من ذلك جهدى وطاقتى .

فأرسل يده وقال : هلم إلىّ يا عثمان فأقبل حتى وقف عند المنبر وبسط يده فأخذ بيد عثمان وقال :

هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر ؟ قال عثمان : اللهم نعم .

قال : اللهم اشهد . اللهم اشهد . . وبايع عبد الرحمن عثمان . ثم قام الناس فبايعوا عثمان . . . وبايع على فيمن بايع .

والله يعلم أن علياًّ كان يجتهد اجتهاد أبى بكر وعمر . وقد طالما استشاراه والرسول قد استقضاه .

وأن قوله بمحاولة جهده وطاقته إنما هو احتياط الفقيه . يعد بما يقدر على الوفاء به . والله يقول : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ويقول : (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) أو هو تواضع الذين لا يتعالون باقتدارهم . وإنه لمقتدر !

والشك فى « اتباع » على لمجرد قوله بمحاولة جهده شك فى اتباعه القرآن والسنة واتباع أبى بكر وعمر . وهو لا يتصور . وليس معنى قول عثمان إنه يبايع على الكتاب والسنّة وفعل أبى بكر وعمر أنه لن يجتهد فى النازلة إذا نزلت ؛ فالاجتهاد أول واجبات الإمام . ولقد طالما اجتهد عثمان للمسلمين وأحسن الاجتهاد . ولسوف يحاول لهم جهده وطاقته . ولسوف يصيبه المكروه من جراء بعض اجتهاداته .

وإنما هى إرادة الله جعلته يجيب عبد الرحمن جواباً يرضاه فيبسط إليه يده يبايعه . والله هو القابض الباسط الفعال لما يريد .

كان علىّ فى الأربعين ، أو يزيد شيئاً . وكان عثمان يحدر نحو الثمانين عاماً . أو منها . وحسب البعض أن الخلافة آيلة حتماً إلى علىّ بحكم سنه .

ولقد أراد الله سبحانه امتحان المسلمين اثنى عشر عاماً فى خلافة عثمان . وبمقتل عثمان . ثم مقتل على بعد نحو خمسة أعوام من الحروب . لينتقل الناس

من عصر الخلفاء الراشدين إلى عصر الملك العضود — ملك معاوية وأهله — فى دنيا البشر العاديين .

والذى حدث يوم البيعة ، يكشف لنا منذ اليوم الأخير للسنة الثالثة والعشرين — أن (محاولة الجهد والطاقة) قد تؤخذ على أنها عدم اتباع للسنة ولعمل أبى بكر وعمر ، أو أنها دربٌ من الدروب غير المألوفة . مع أن فقه أبى بكر كان فيه من الاجتهاد مابزّ فقه عمر . وعمر فى كل ضروبه هو المجتهد الأكبر .

* * *

كانت الخلافة عبئاً يبهظ كاهل الشيخ وهو يعبر الثمانين إلى التسعين على قول ، ومع ذلك ظل فى ولايته سنين وهو أحب الناس وأنجحهم . . واستحبت أنفس الناس أن تستريح . واستحب آخرون أن ينعموا بما أفاءت عليهم الفتوح . واشرأبت رءوس كانت تزدان بالزهادة أيام عمر الذى كان يقول : « إنى واقف لقريش بشعاب الحرة فآخذ بحُجُزها فحائل بينها وبين الفتنة » . لكن عثمان أذن للصحابة أن يبرحوا المدينة إلى الأقاليم واتصل بعضهم بالجند . وبالناس . واستبدل بعضهم الأموال واتجروا .

وكان اليسر والسخاء والحياء عظم طباعه . وخلقه هو الذى أنجحه يوم الحديبية . ومن أجله كانت بيعة الرضوان يوم ذاك . وفى هجرته للحبشة ومعه زوجته رقية بنت الرسول يقول عليه السلام : « إنهما لأول من هاجر إلى الله بعد إبراهيم ولوط » وهو قد هاجر إلى المدينة بعد . فله هجرتان . وتزوج من أم كلثوم بنت النبى . زوجته الأخرى — فهو لهذا « ذو النورين » . وفى زواجه من بنت الرسول قال عليه السلام : « لو كنّ عشراً لزوجتهن عثمان » وهو قد شهد المشاهد كلها مع النبى إلا أن يمنعه سبب قاهر .

وهو أكثر المسلمين عطاء فى سبيل الله . اشترى بئر رومة يوم قال الرسول من يشترى بئر رومة [1] . . . وله بها شرف فى الجنة — وكانت ليهودى يبيع ماءها

---

(١) تقع شمال غربى المدينة عند حرة الوبرة . والمدينة بين حرتين — غربية وهى حرة الوبرة وشرقية هى حرة واقم . وسيجىء ذكرها بعد . والحرة الحجارة السوداء .

للمسلمين — فساوم عثمان اليهودى فأبى أن يبيعها كلها فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم وجعلها للمسلمين . فأصبح له يوم ولليهودى يوم . وراح — المسلمون يستسقون كفايتهم فى يوم عثمان . وكسدت سوق اليهودى . فخرج عن نصفه الباقى لعثمان بثمانية آلاف .

وذات يوم قال النبي من يزيد فى مسجدنا ؟ فاشترى عثمان موضع خمس سوارى فزاده فى المسجد . وقال النبي من جهز جيش العسرة فله الجنة . وجهزه عثمان بتسعمائة وخمسين بعيراً أكملها ألفاً بخمسين فرساً . بل دفع ألف دينار فوق ذلك فقال عليه السلام : ماضر عثمان ما فعل بعد ذلك .

ووسع قواد عثمان رقعة الإسلام . فى أفريقية وفى روسيا ففتحت أرمينية . وقتل يزدجرد ملك الفرس فى وسط آسيا . ووقعت غارة على الأندلس فى أقصى الجنوب الغربى من أوربا . ودخلت سفائن الإسلام أقصى جنوبها الشرقى فى مضيق القسطنطينية . واحتلت قبرص . ووقعت معركة ذات الصوارى لتجعل البحر الأبيض بحيرة إسلامية . . .

ويزيد عثمان فضلاً عند الله والناس ما صنعه بكتاب الله بعد غزوة أرمينية سنة ٣٠ على نحو ما صنع أبو بكر وعمر بعد « اليمامة » .

قدم حذيفة بن اليمان وكان يغازى أهل الشام وأهل العراق فى فتح أرمينية وأذربيجان فأفزعه اختلافهم فى القراءة فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل إلى أم المؤمنين فأرسلت الصحف التى جمع فيها القرآن أيام أبى بكر . فنسخت فى مصاحف . وبعث إلى كل أفق بمصحف وأمر بما سواه أن يحرق . فالمسلمون الذين يحفظون ويقرءون المصحف العثمانى منذ ذاك . وفى كل ساعه من ساعات الحياة . يذكرون عثمان .

لكن عثمان له أهل . هم بنو أمية . وقد طالما كادوا للإسلام قبل فتح مكة . وإن كان الإسلام يجب ما قبله . ومن أقرباء عثمان من كاد للنبى وكذب عليه أو ارتد عن الإسلام . وكان عثمان شيخاً كبيراً — يستعين بمن يعرفهم . وكان مسماحاً ، وهاباً . فطمع أصحاب المطامع . ومن ثمة أطلق القول فيه ناقدوه .

من حق عثمان أن يواجه التاريخ واللائمين بأنه لم يرشح نفسه وإنما رشحه الفاروق . وإن أصحاب الشورى اختاروه . وإن المسلمين بايعوه . وإن تخليه تقصير عن القيام بواجب المسلمين كما قام صاحباه أبو بكر وعمر .

ومن حقه أن يقول إنه اجتهد جهده . وإنه لم يرد إلا الإصلاح ما استطاع . وإن منفعة شخصية لذاته ليست فى احسبان .

ولقد كان يطعم الخل والزيت ويلبس ثوباً بخمسة دراهم . يتجافى جنبه عن المضاجع . وكان يصلى العشاء فيوتر بركعة يقرأ فيها القرآن .

ولقد بقى الصحابة يطيعونه حتى آخر أيامه فدلوا على إيمانهم به واستحقاقه طاعتهم . وفى طليعتهم على وعمار وابن مسعود وأبو ذر وإن اعترضوا على بعض تصرفه .

وهم أثبات على أن عثمان كان وما يزال وجيهاً عند الله والناس كمثل على ابن أبى طالب وعمر وأبى بكر .

ويمكن تصوير النقد لعثمان فى جملته بأنه محاولة لمؤاخذته عن عدم اتباع سنة سابقيه فى طريقة الحكم . بل إن من النقد ما يوجه إليه فى الفقه .

* * *

وأول ما نستبعده من نقد النقدة هو الفقه . ذلك أن من الخطأ العلمى مؤاخذته لأنه أتم الصلاة بمنى حيث كان النبى يقصرها للسفر . فالإتمام أصل . ولقد خطب عثمان الناس فأعلن أنه أراد أن يعلم البعض ووافقه الصحابة فى اعتذاره . وضربه بعض فقهاء أهل السنة مثلاً على سد الذريعة . وتعليم الناس الرخصة بالقصر لا يجعل تعليمهم الكمال خطيئة .

لكن هذا النقد يظهرنا على منحى اللائمين بعدم « الاتباع » لأنه لم يقصر الصلاة كما قصرها النبى بمنى . وفى شبهة الإقامة بمكة — مخالفة للاتباع كذلك . إذ الإقامة بمكة هى التى تمنع قصر الصلاة ، فى حين أن مقر الخلافة هو المدينة . . ولا سوى المدينة .

ولقد رفض عثمان أن يتحول إلى مكة فى أثناء الفتنة أو إلى الشام نجاة بنفسه .

وآثر الموت بالمدينة على النجاة بعيداً عنها .

أما عن استعمال العمال من أقربائه . فلمعاوية بينهم وضع فريد . أن كان عمر هو الذى استعمله بعد موت أخيه يزيد . ثم ضم إليه عثمان فلسطين وحمص . ومعاوية نابغة حكم وسياسة .

وأما عن استعمال الآخرين فيذهب البعض إلى أنه ليس لزاماً عليه أن يقلد السابقين . فى حين يذهب ناقدوه إلى أن النبى وأبا بكر وعمر لم يستعملوا أقرباءهم بل استعمل النبى على مكة عتاب بن أسيد . وقد أسلم يوم فتحها . وكان فى العشرين . وهو من بنى أمية . أباً وأماً . وهم ألد الخصوم . والرد على ذلك بسيط : هو أن الزمان تغير ومن التغيير كان عثمان يقول : أين لنا بمثل عمر ؟

وأعطى عثمان ولاته منحاً ... وقيل إنه لما نوقش فى ذلك قال : « إن أبا بكر وعمر كانا يظلمان أنفسهما وقرابتهما تقرباً إلى الله . وأنا أصل رحمى تقرباً إلى الله » .

والحق أن عثمان كان محبباً إلى قومه بل إن الشعبى ليروى : (وإن كانت المرأة من العرب لترقص صبيها وهى تقول : أحبك والرحمن حب قريش عثمان) .

والذين عرفوا سخاءه وحياءه وأن ماله كان كله لله وللناس يدركون بيقين أنه كان يتقرب بالإنفاق إلى الله .

ولقد كان النبى يلقى أصحابه متفضلاً غير متكلف فإذا أذن لعثمان احتشم وقال : كيف لا نستحى من رجل تستحى منه الملائكة ؟ ويقول إنه إن لم يفعل استحيا عثمان أن يثبت بين يديه ويبلغه حاجته ويأخذ حظه من التحدث إليه .

ادُّعى عليه ذات يوم فبذل المال وقبل الصلح وقال : إن حلفت ربما يصيبنى آفة فيقول الناس إنه حلف كاذباً . فى حين حلف عمر يوماً لما ادُّعى عليه ولم يدفع المال خشية أن يقال إنه كان كاذباً فى إنكاره ودفع المال فراراً من اليمين .

هكذا يجتهد عثمان على غير ما يجتهد عمر . أو هكذا كان بذّال أموال . فلا يرى المال يستحق الخصومة ! ! وكانت خطة اليسر خطته لا خطة القوة — ولما قيل له لم لا تكون فينا مثل عمر ؟ قال لا أستطيع أن أكون مثل لقمان الحكيم .

وبقى دائماً الاستشكال من شانئيه وهو عدم اتباع عثمان سيرة سابقيه .

* * *

وفى سنة ٣٤ بعث بعض الصحابة إلى بعض يتشاكون . واجتمعوا إلى علىّ ليعظ عثمان فوعظه .

ورد عثمان : « أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك . وما جئت منكراً أن وصلت رحماً . . . » .

ووسوس الشيطان لبعض الأمويين فأقبلوا يبحثون لأنفسهم فى الفتنة عن مكان .

خطب عثمان مرة فتدخل مروان بن الحكم فزجره قائلاً دعنى وأصحابى . . . وتفاقم الأمر . فاستعان بعلى فأعانه فنجحا فى مواجهة القادمين إليه محتجين .

وأخيراً تجمع الثوار من الكوفة ومصر وحاصروا داره . ثم تسوروها وقتلوه والقرآن بين يديه يتلوه .

ودخل علىّ دار عثمان يضرب أولاده وأولاد الصحابة الذين كانوا يحرسون عثمان فقال له محمد بن طلحة : يا أبا الحسن لا تشتم ولا تضرب ، لو أن عثمان سلم الثوار مروان ما قتلوه .

قتل يوم أربعاء ودفن بليل يوم السبت !

وادارأ فى التهمة القتلة . وأمسى بنو أمية وأصبحوا . فزعموا أن لهم فى القتل قضية ! !

قال أبو هريرة : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين فقال : يا أبا هريرة — أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وأنا منهم؟ قلت : لا ؛ قال : فإنك إن قتلت واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً فانصرف مأذوناً لك . مأجوراً غير مأزور . قال : فانصرفت ولم أقاتل .

هكذا آثر ذو النورين عثمان . أن يموت غير مدافع عن نفسه حتى لا تراق من أجله دماء المسلمين . وأقبل على لقاء ربه وكأنه يجود بروحه فى إحدى الغزوات .

وكان مقتله بداية انقسام الأمة ونهاية اجتماعها الذى بوأها مكانتها العظمى .

وكان حقًا أن يعتنق جمهور المسلمين قضية عثمان . فهو لا يمتثل فى تصرفات حسبت على بعض الولاة . وهو قد بذل قصاراه . ولما توقف أهل السنة فى الحكم فى خلافات هذه الفترة كانوا آية فى الحكمة . فعثمان مثل أعلى للمسلمين فى الدين . والحكم لله على نجاحه وإخفاقه فى سياسة الناس . وأما الحكم على شخصه ودينه فقد أصدره صاحب الشريعة مرتين عندما بشره بالجنة وعندما قال : ما ضر عثمان ما فعل بعد ذلك .

وهكذا يظهر لنا من قبل تولية عثمان — وطيلة حكمه — كيف كان الاتباع قطب الرحى فى ضمير الأمة .

* * *

بايعت المدينة عليًا ثم بايعته الأمصار إلا أهل الشام حيث معاوية . ولم يلبث الزبير وطلحة أن خرجا إلى العراق وصحبا عائشة رضى الله عنهم ليتجهزوا لحرب علىّ فانهزموا فى واقعة الجمل . وأقبل على يسأل : «كيف أنت يا أمَّه ؟ قالت بخير . قال . يغفر الله لك . قالت : ولك» .

وسيرها معززة مكرمة إلى المدينة .

أما معاوية فراح يطالب عليًا بدم عثمان كأنما قتله ! وطالبه بأن يسلمه القتلة وكأن معاوية هو الخليفة ! !

وفعلت أفاعيلها فكرة الدولة التى حان قطافها . وتلاقى الجيشان فى صفين . وجاش الموت إلى جند الشام يشير إلى بشريات الهزيمة . فرفع معاوية المصاحف محكّماً كتاب الله . . .

ومالت إلى التحكيم أفئدة قواد علىّ فقبله . فخرج الخوارج عليه لقبوله التحكيم فيما هو حقه يقولون : «لا حكم إلا لله» ويخطب على فيقول : «كلمة عادلة يراد بها جور — إنما يقولون لا إمارة ولابد من إمارة برة أو فاجرة» ونازلهم بالنهروان فهزمهم .

وتقطع المسلمون أمرهم بينهم حتى فى البيت الواحد . . شهد عدى بن حاتم الطائى الحرب مع على ففقئت عينه . وقتل معه ابنه – أما ابنه الآخر فقتل مع خصوم على .

وقضى بطل الإسلام بقية عمره يعبئ جيوشه للوقعة الفيصلة حتى اغتاله خارجى من الخوارج فى سنة ٤٠ وكانت تركته سبعمائة درهم .

* * *

قبل الجمهور خلافة معاوية . واعتزل جماعة من الصحابة الفريقين من مبدأ الأمر مثل عبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص وفيه يقول النبى : « هذا خالى . فليأت كل رجل بخاله » . وأمسى بطل القادسية يقول : لا أقاتل حتى يأتونى بسيف يعقل ويبصر ويقول : أصاب هذا وأخطأ ذاك .

وأمسى موقف سعد وعبد الله علامة على الطريق . بل إن عليًّا يقول فيه للمسلمين : « لله منزل نزله سعد بن مالك وعبد الله بن عمر . والله إن كان ذنباً إنه لصغير مغفور ولئن كان حسناً إنه لعظيم مشكور » .

وليس عجباً أن يقف معاوية ومروان بن الحكم فى جوار ابن عمهما عثمان فإنما هى إرادة الله أجاءتهما إلى معترك الحوادث ليبنى معاوية للإسلام دولة عظيمة حقًّا ، يبايعه عليها جمهور المسلمين . ويلى مروان المدينة لمعاوية مدة تندو فيها شجرته . فتحمل التبعة الكبرى لنشر الإسلام حتى حدود الصين فى آسيا وحتى شواطئ الأطلسى بأفريقية وأوربا . وتأخذ نصيبها من المدينة فيقدم عبد العزيز بن مروان للإسلام من زوجه « أم عاصم » بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب ، عمر بن عبد العزيز . ويثبت التاريخ به فتحاً من فتوح بنى مروان : أن الإصلاح لا يفوت أوانه مهما تراخى زمانه . وأن أشهراً معدودات من تطبيق أحكام الإسلام كفيلة بكبح فساد تخب فيه البشرية وتضع طيلة ستين عاماً .

وهما معنيان مكملان للمبدأين اللذين بدأهما عمر بن الخطاب حين بين بحكمه اقتدار البشر فى سنوات عشر أن يعملوا بالرسالة كما نزلت . وأنهم إذا

عملوا بها كما نزلت . كتب لهم النصر . بفتوح الفكر أو بطولات الحرب أو بهما معاً .

وليس غريباً أن يكون عمر بن عبد العزيز أكبر الأساتذة فى دولة بنى أمية لمالك بن أنس أو أن يكون مالك أموى الهوى . عثمانى النزعة . وأن يكون من طبائع الأشياء أن يبقى اتباع أئمة المدينة المنورة هو المنهج الأساسى فى الشريعة ، ويبقى تراث المدينة مستقلا عن الأعاصير والزعازع . لأنه تراث الرسول وسنته التى طبقها . ثم تابعه عليها الصحابة والمسلمون .

وهو منهاج سيقوم عليه . ويقويه . ويبعث به إلى مهاب الرياح الأربع . مالك بن أنس .

وليس عجباً أن تكون الفتنة التى أدت إلى مقتل عثمان وما أعقبها مفاتيح العالم الجديد كله . وقيام فرقه ودوله . من الخوارج والشيعة والمتكلمين والمرجئة والمعتزلة . والأمويين والعباسيين والعلويين وغيرها . حتى إذا جاء دور أبناء علىّ كانوا أكثر من سواهم دولا .

بنو أمية

ولى معاوية الشام لعمر . وكان أخوف له من خادمه « يرفأ » كما قال على لعثمان وهو يعظه . لكن معاوية بمواهبه وطموحه كان كالتسريك لعثمان . وكان له من طول ولايته — عشرين عاماً — وسيلة لتثبيت ملكه عندما صار خليفة — عشرين عاماً أخرى — وتناهت إلى حزب معاوية كل آمال بنى أمية فى أن يكون الشأن لهم . ولما قتل على دون أن تلوث بدمه يد معاوية أو جيوشه آلت الخلافة إليه ، وكأنها مائدة تهبط من السماء ! وهدأ الهيج . وباخت النار . ولم يبق إلا رماد ذكريات بائسة .

كان جمهور المسلمين يشعرون بمقدار ما استغل معاوية الحوادث . وأن الأمور لم تصر إليه لتفرده فى الصلاح الدينى . أو قرباه من النبى . ولكن كثرة الذين

بايعوه بهرتهم مزاياه العظيمة : من السياسة الحكيمة . والسماحة والصفح ، وا لحلم والسخاء ، والبيع والشراء . والبطش عند الضرورة . . . بقدر .

ونشأت منذ العصر الأول نظرية الجمهور فى عدم الخوض فى نزاع على وأصحاب الجمل ، وقتلى صفين . قال الحسن البصرى : « تلك دماء طهر الله منها يدى فلا ألطخ بها لسانى » بل قال : « إن من المروءة أن يحفظ رسول الله فى زوجته عائشة وفى الزبير ، ابن عمته ، وفى طلحة الذى وقاه بيده » وعلى هذا المنطق جاز لقائل أن يقول إن الرسول صهر لمعاوية فى أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبى سفيان . وإنه كاتب النبى عليه السلام بل كان هو وزيد أكثر الكتاب كتابة له . فمن المروءة أن يحفظ معاوية — ومعاوية لم يبلغ مكانه صاعداً إليه . وإنما جاءه واقعاً عليه كالنسور من ولاية الشام ومن ميادين الحروب ، وجاءه بمنهاج عظيم يقول فيه : « إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى . ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى . ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . كنت إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها » .

كان نصير (أبو موسى) قائد حرسه فلما خرج لحرب على لم يخرج معه . فسأله : ما يمنعك ، ولى عندك يد لم تكافئنى عليها . قال نصير : لم يمكنى أن أشكر نعمتك بكفرى بمن هو أولى منك بشكرى . وهو الله عز وجل . قال معاوية : أستغفر الله ؛ وأعفاه من الحرب وأبقاه على رأس الحرس .

ودخل عليه أبو بردة بن أبى موسى يقول له : إن عتبة الأسدى قال فيك ... فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تضرب عنقه ؟ لكن معاوية لم يكن كافر الغضب فقال : أفلا خير من ذلك ؟ . قال أبو بردة : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال معاوية : نجتمع أنا وأنت . ونرفع أيدينا إلى السماء وندعو عليه . . .

* * *

كان خصومه يشتمونه وأمه وأباه . وإن لهم بأمه وأبيه لعهداً بين أئمة الكفر فى خصومة النبى . وآله ، وفى أيام بدر وأحد وسواها . فخرج معاوية عن عقله وعدله فطلب إلى ولاته شتم على رضى الله عنه . ولى المغيرة بن شعبة الكوفة سنة ٤١

فدعاه فقال له بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أردت إيصاءك بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضيني ... ولست تاركاً إيصاءك بخصلة : لا تتحم عن شتم عليّ وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب عليّ والإقصاء لهم وترك الاستماع منهم وإطراء شيعة عثمان والاستماع منهم ، فأقام المغيرة عاملا على الكوفة سبع سنين وأشهراً وهو من أحسن الناس سيرة . غير أنه لا يدع ذم علي والوقوع فيه . وإطراء عثمان وذم قتلته !

وكتبت أم سلمة إلى معاوية تقول : إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم لأنكم تلعنون عليًّا ومن أحبه . وأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبه .

وقصد إلى المدينة سنة ٤١ يحدد مركزه ومراكزها في ضوء مناهجه . قال : أما بعد فإني ما وليتها بمحبة علمها منكم . ولا مسرة لولايتي . ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة . ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة — أبي بكر — وأردتها على عمل عمر — وأردتها على سُنَيَّات عثمان — (تصغير سنوات) فأبت عليّ . فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة . فإن لم تجدوني خيركم فإني خيركم ولاية . والله لا أحمل السيف على من لا سيف له . وإن لم يكن إلا ما يشتفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي . وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه فإن أتاكم مني خير فاقبلوه . فإن السيل إذا جاء يثرى وإذا قل أغنى . وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة .

رمى معاوية المدينة بمروان سنة ٤٢ أو رماه بها . وطالت ولايته عليها . وكان مروان محتفظاً بعلاقة طيبة مع آل علي وآل سفيان منذ أعطاه علي الأمان . بعد وقعة الجمل . فأفاد لنفسه وأفاد معاوية . وكانت المدينة تسقى من مياه الآبار والمطر فأمر معاوية مروان فحفر العين المسماة بالعين الزرقاء (قيل لزرقة عين مروان) وأجراها في نفق أرضي من قباء إلى المدينة .

وفي سنة ٥٠ أراد معاوية أن يحرم المدينة منبر النبي فينقله إلى دمشق فيزيل أثراً من الآثار الأساسية لمجدها فإذا بالشمس كسفت ، وإذا بالنجوم رئيت .

فأعظم الناس ذلك ، وزلزل معاوية فتركه مكانه وكساه وقوّاه .

ثم عزم على أن يستخلف ابنه فولى وجهه شطر المدينة حيث المنافسون من أبناء الصحابة الأولين . قال له عبد الله بن الزبير — نخيرك بين ثلاث خصال : تصنع كما صنع رسول الله . . أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر . قال معاوية وهو يتداهى : ما صنعوا ؟ قال : . . . قال معاوية : هل عندك غير هذا .

وأخذ البيعة بالرشى والسيوف والدهاء والجدل ، أى بالسياسة . وكان يملك كل مفاتحها . ثم مات . فتولى يزيد (٦١ — ٦٤) وخرج عليه الحسين بن على من المدينة فقتل فى كربلاء يوم عاشوراء من المحرم سنة ٦١ هو وستة إخوة له من أولاد على، وخمسة من أحفاد فاطمة واثنان من أولاد عبد الله بن جعفر .

وبعث والى المدينة إلى يزيد وفداً من أشرافها . فأكرم الوفد وأجازه . فلما عادوا إلى المدينة ، طعنوا فى دينه . ووثبت المدينة بالأمويين فيها . وكانوا قرابة ألف رجل تجمعوا فى دار مروان فحاصرهم الثوار . ثم أخلوا سبيلهم بعد إذ أعطوهم موثقاً ألا يدلوا على عوراتهم فتوجهوا تلقاء الشام . إلا عائشة بنت عثمان ابن عفان زوج مروان . توجهت إلى الطائف فى حماية على بن الحسين (زين العابدين) . الابن الذى نجا لمرضه فى مجزرة كربلاء . وأنفذ يزيد جيشاً يؤدب الحجاز .

وتلاقى الأمويون المسرّحون والجيش عند وادى القرى سنة ٦٣ فدعا القائد عمرو بن عثمان بن عفان من بينهم ليشير عليه . فقال : إنه أعطى موثقاً . فلم يمنع القائد من ضرب عنقه إلا أنه ابن عثمان .

ودخل عليه عبد الملك بن مروان، فدله على خطط أهل المدينة فعسكر الجيش فى الحرة[1] . فى اثنى عشر ألفاً شمال شرقى المدينة . وأمهل أهلها أياماً ثلاثة ليستسلموا ، فرفضوا . وأمّروا عليهم عبد اللهبن حنظلة (حنظلة الراهب الذى غسلته الملائكة يوم أحد) وكان عبد الله قد ولد بعد استشهاد أبيه . فكان

---

(١) سميت وقعة الحرة لأن الجيش عسكر عند حرة واقم الواقعة شرقى المدينة وهى إحدى حرتين تقع بينهما المدينة .

شهيداً ابن شهيد ! بل أباً فى هذه المعركة لثمانية من شهدائها !

وأباح القائد الباطش المدينة ثلاثة أيام لجنوده . فسفكوا وأسفّوا . وأخذوا البيعة من أهل المدينة كعبيد . وقتل من الصحابة ثمانون رجلاً فلم يبق بدرى بعد ذلك . ومن قريش والأنصار ثمانمائة . ومن الموالى والتابعين وسائر الناس عشرة آلاف . وفى رواية ١٣٠٠ من قريش . ١٤٠٠ من الأنصار . ٣٥٠٠ من الموالى ! . .

وأخذت السماء يزيد بذنوبه . فمات والجيش يحاصر مكة . فانصرف الجيش عنها ملوماً مذموماً بعد إذ أحرق الكعبة .

* * *

ورجع بنو أمية الراحلون إلى المدينة ثم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى خرجوا منها بعد فتنة ابن الزبير وقد شملت المدينة ومكة والحجاز كله حتى سنة ٧٣ . أما مروان بن الحكم فرحل عنها فى ربيع سنة ٦٤ إذ مات معاوية بن يزيد بعد ثلاثة أشهر من هلاك أبيه ، رافضاً أن يعهد إلى أخيه خالد ؛ وعقد بنو أمية مؤتمراً انتهى إلى بيعة مروان . فتزوج زواج السياسة من أم خالد . وعاش نحو عام وطد الأمر لبنيه . ثم عهد إلى ولديه عبد الملك فعبد العزيز .

وتولى عبد الملك (٦٦ — ٨٦) وولى أخاه عبد العزيز مصر وأفريقية . وفى عبد الملك يقول ابن عمر : « إن لمروان ابناً فقيهاً فاسأنوه » وأبو الزناد يعده بين فقهاء المدينة ، بعد سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب (٨٦) .

وفى سنة ٧٢ استرجع المدينة له من ابن الزبير طارق بن عمرو مولى عثمان ابن عفان .

ثم قتل الحجاج بن يوسف الثقفى عبد الله بن الزبير بمكة . وأصبح والياً على المدينة ومكة مدة ثلاثة أعوام قبل أن يصير والياً على العراق حتى سنة ٩٥ : فلبث بالمدينة ثلاثة أشهر « يتعبث بأهلها ويتعنتهم . . واستخف بأصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم . وختم على أعناقهم » كما يقول الطبرى[1] .

ولم يكن بين الخليفة الفقيه وبين أهل المدينة إلا المشاقة وفى نفسه شعور بالذنب . مذ دل على عوراتها أيام وقعة الحرة . فولى عليها هشام بن إسماعيل المخزومى فقسا عليها ، وعلى أهل البيت .

أدخل الأسرى ذات يوم على عبد الملك فأمر بضرب أعناقهم دون سؤالهم : قال له رجل من أهل الشام كان يعرفه أيام تنسكه . لقد أقست الخلافة قلبك بعد أن كنت رءوفاً ! قال : كلا ولكن أقساه الضغن بعد الضغن .

ولقد كان يستنكر ضرب جيوش يزيد للكعبة سنة ٦٣ لكن الحجاج ضربها له فى سنة ٧٣ !

وفى عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦) بلغت الدولة الإسلامية أبعد الحدود — من أسوار الصين شرقاً إلى شواطئ المحيط الهندى جنوباً ، وإلى شواطئ المحيط الأطلسى فى غرب أوربة . فأسس أول مسجد بالأندلس فى أوربا يوم دخل موسى بن نصير الجزيرة الخضراء فى رمضان سنة ٩٢ وأسس قتيبة مسجد قتيبة القائم إلى الآن فى بخارى فى روسيا الحالية وأرسل القائد العربى إلى إمبراطور الصين (يوانغ جونغ) يطلب الجزية فبعث إليه جزية رمزية .

وعين الوليد فى إمرة المدينة عمر بن عبد العزيز .

وتولى أخوه سليمان سنة ٩٦ إلى سنة ٩٩ وفى عهده حاصر أخوه مسلمة القسطنطينية .

وعين على المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وسنرى بعدُ أثره وأثر بيته فى مالك . وبيته من أعظم بيوت الأنصار ، يقول المستشرق (فلهوزن) : إن

---

(١) انتصر الحجاج فى دير الجماجم على ابن الأشعث — إذ خرج على عبد الملك وكان سعيد بن جبير الفقيه (٩٥) فى الأسرى فقال له الحجاج اختر لنفسك أى قتلة شئت . قال سعيد : اختر أنت لنفسك فإن القصاص أمامك .

وجاءه رجل كان قد اعتزل الفتنة قال إنه انتظر انتهاء الفتنة ليبايع فقال له : أمتربص ؟ ثم قال : أتشهد أنك كافر ؟ قال الرجل بئس الرجل أنا إن كنت قد عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسى بالكفر ! فضرب عنقه ! ! !

لجده ضلعاً كبيراً فى الثورة على عثمان، وربما فهم ذلك فلهورن لقول ابن قتيبة: إن الثوار تسوروا دار عثمان من دار بنى حزم الأنصارى . فبنو حزم قد يكونون مجرد جيران تسور الثوار دارهم . وإكرام بنى أمية لحفدتهم ثبت براءتهم .

وكان سليمان يستمع للفقيه الكبير رجاء بن حيوة ، الذى أخذ البيعة لعمر ابن عبد العزيز بوصية من سليمان بعد موته . وصرف عمر مسلمة عن حصار القسطنطينية رفقاً بالمحاربين وإدراكاً منه أن المسلمين كانوا يومذاك أحوج إلى فتح فى داخل أنفسهم وفى ممارستهم لدينهم، منهم إلى فتوح فى الدنيا .

ويمكن تلخيص خمسة عشر عاماً من عمر الدولة الأموية انتهت بموت عمر بما قاله الطبرى فى تاريخه : «كان إذا التقى الناس فى زمانه —الوليد— يسأل الناس بعضهم عن البناء والمصانع . فولى سليمان بن عبد الملك . فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج ، والجوارى . فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل : ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن وما تصوم من الشهر » .

* * *

وفى العام الذى عزل فيه عمر عن المدينة ، ولد بإقليمها طفل هو مالك ابن أنس تملأ سمعه ذكريات الرواة عن إمارة عمر للمدينة . وإمارته للمؤمنين . فراح يرقى مراقى العلماء فى مدرسة عمر ، ليموت بعد تطاول العمر ، مخلفاً مذهباً يسود آسيا وأفريقية وأوربا بالأندلس وكانت قد فتحت فى العام السابق على ميلاده لتغلق عليه حدودها ، فلا تأذن لغيره أن يجد مكاناً إلى جواره .

سأل السلطان المتناظرين أمامه : من أين أبو حنيفة ؟

قالوا : من الكوفة . قال ومن أين مالك ؟ قالوا من المدينة . قال : عالم دار الهجرة يكفينا . وأمر بإخراج أصحاب أبى حنيفة قائلاً لا أحب أن يكون فى عملى مذهبان !

الباب الثانى

تلميذ المدينة

« ما بين قبرى ومنبرى »
« روضة من رياض الجنة »

(حديث شريف)

مالك بن أنس غرس من غراس المدينة . تلمذ فيها لأعظم الأساتذة . وإليه انتهى فقه فقهائها السبعة ، الذين بارحوا الحياة فى جيل مبق . وهم بدورهم تلاميذ للصحابة الفقهاء . نقلوا علمهم إلى شيوخ مالك الذين أدبوه فأحسنوا تأديبه . فتأتّى إليه الأمر كله ، إذ تسلم منهم مفتاح أدب الدين وعلمه . وهو اتباع الأمر الأول . والاتباع ملاك فقه مالك .

والنشأة أو التلمذة . والمعلمون أو المدرسة ، فصلان تاليان .

الفصل الأول

التلميذ

« ما بين قبرى ومنبرى »
« روضة من رياض الجنة »
(حديث شريف)

نحن الآن فى سنة ٩٣ للهجرة .

ومالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر طفل ولد فى « ذى المروة » على مبعدة من المدينة ، لأب فقير ، يعول نفسه وأهله من صناعة النبال . أمه العالية بنت شريك الأزدية ، أما جده مالك بن أبى عامر فتابعى يروى عن عمر ، وطلحة ، وعائشة ، وأبى هريرة ، وعن عثمان ، ويروى الطبرى أنه كان يكتب المصاحف أيام عثمان .

ولم تعرف مثوبة بنى أمية له على ما قيل من اشتراكه فى دفن عثمان . وإن كان للرجل فضل فى العلم ، إذ كان عمر بن عبد العزيز يستشيره كما ذكر ذلك . مالك الحفيد .

والتاريخ يحفظ من المعروفين فى العصر أسماء آخرين شجعوا فتولوا دفن عثمان . حكيم بن حزام (ابن أخ أم المؤمنين خديجة) وجبير بن مطعم وأبا الجهم بن حذيفة . ونيار بن مكرم . وفى بعض الروايات ابن الزبير وابن أبى بكر والمسور ابن مخرمة .

وكان جد مالك شاباً أيامئذ — فى حين كان بعضهم — حكيم — قد تخطى المائة . إذ مات فى سنة ٥٤ عن مائة وعشرين عاماً .

وورث الحفيد من مواريث الجدود أجل ما تورثه الأصول للفروع من استعداد للعقل والبدن . الميل إلى العلم ، وامتداد الأجل . وامتزجت المواريث ،

فقضى الحفيد فى العلم حياة طويلة حقًّا حاولت أن تناهز التسعين. كما استطالت حياة جده من بعد دفن عثمان سنة ٣٥ حتى سنة ١١٢ .

وكان أبو سهيل — عم مالك — واحداً من بنين أربعة يروون العلم عن أبيهم . ويروى مالك عن أبى سهيل فى الموطأ . فأحياناً يروى أن أباه أخبره عنه وأحياناً يقول أخبرنى عمى . وعمه على كل حال شيخ من شيوخ ابن شهاب الزهرى أستاذ مالك ؛ فنحن اليوم بإزاء فتى يتلقى العلم كابراً عن كابر .

يقول عمه عن مقدمهم إلى المدينة : نحن قوم من ذى أصبح . قدم جدنا المدينة فتزوج فى التيميّين فكان معهم . ونسب إليهم .

والمشهور أن مالكاً بن أبى عامر جاء من اليمن . وقيل إن أبا عامر هو الذى قدم يشكو الوالى فلقى عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمى فصار بينهما حلف أو ولاء . وعبد الرحمن هو ابن أخى طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وبنو تيم قبيلة الصديق أبى بكر .

ذلك نسبه فى الإسلام ، أسرة عربية من اليمن — تنسب إلى أسرة عربية كبيرة فى المدينة .

أما نسبه فى الجاهلية . فهو « مالك بن . . . الأصبحى » نسبة إلى « ذى أصبح » ويقال إن أصحاب هذه التسمية كانوا من ملوك اليمن .

وانتقل مالك إلى الوادى المبارك فى « العقيق » على مشارف المدينة [1] يعيش من عمله مع أخيه النضر ، فكان يسمى فى صباه « مالكًا أخا النضر » لأن النضر كان يطلب الرزق فى تجارة البز . وتعلم مالك من النضر أن يعيش من التجارة . فصار فى حداثته بزازاً ، ثم ترك التجارة إلى العلم ، وإن بقى يرتزق من مرابحة يسيرة لا تزيد على أربعمائة دينار ، كان منها قوام عيشه .

* * *

---

(١) يمتد وادى العقيق شمال غربى المدينة — عن ابن عباس : سمعت عمر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادى العقيق يقول : « أتانى الليلة آت من ربى فقال : صل فى هذا الوادى المبارك وقل عمرة فى حجة » .

وجهت مالكا أمه إلى العلم إذ وجدته تواقاً إلى الغناء ، وكان مسلاة السروات فى المدينة وملهاة البلاط فى دمشق ، فبعثت به إلى حلقة ربيعة بن أبى عبد الرحمن . فروخ (١٣٦) الفارسى الأصل . وكان مولى للتيميين ولأسرة مالك ولاء أو حلف معهم . قالت له أمه : تعلم من أدبه قبل علمه .

وظاهر أن ذلك كان فى بواكير الحداثة ، فلقد رآه الناس فى حلقة ربيعة وفى أذنه شنف لا يبقيه فى أذنه الصبى .

وكان ربيعة إذا رآه مقبلاً يقول جاء العاقل . ولقد سمى فقهاء العصر ربيعةَ ربيعة الرأى لاجتهاده بالرأى ، فأخذ عنه مالك هذا الاتجاه من بدء حياته .

وكانت حلقة ربيعة تضم جماعات من المتفقهين ، ومن ذوى الشأن ، مثل أمير المدينة ، وشيخ بنى هاشم ، الحسن بن زيد بن الحسن بن على (١٦٨) والد السيدة نفيسة .

واشتهر أن ربيعة أكبر أساتذته ، وإن لم يقل تأثره بغيره من الأساتذة عن تأثره بربيعة . ولعل السبب فى ذلك منحاهما فى إبداء الرأى أو أن حلقة ربيعة كانت آخر الحلق . فى عهد التلمذة . يوم عقد لنفسه حلقة من قبل أن يبلغ العشرين .

ولم يكف مالك عن إطراء أستاذه شكلاً وموضوعاً فيقول عن ملبسه : « ما أدركت أحداً يلبس هذه الثياب الرقاق وإنما كانوا يلبسون الصفاق . إلا ربيعة فإنه كان يلبس مثل هذا ، ويشير إلى قميصه » . فهو قد بدأ بأن تلقى عليه أناقة اللباس . وكان مالك جميلاً ، فصار إلى جماله أنيقاً . أما فى موضوع فقهه فيقول بعد إذ مات ربيعة « ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة » ولا فقه إلا برأى ولا حلاوة إلا باجتهاد .

وكان ربيعة صاحب معضلات أهل المدينة فى الفتيا — يكثر الكلام ويقول : الساكت بين النائم والأخرس .

ولما أحاط أبو حمزة الخارجى بالمدينة أوفده الوالى سفيراً بين سفرائه إلى

أبى حمزة ، وكان فى السفراء علية أهل البيت وأهل المدينة لكن الكلمة فى الوفد كانت لربيعة ، حيث قدمه ليقولها عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على .

قال سوار بن عبد الله (١٥٧) ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة ؛ قيل ولا الحسن البصرى ؟ قال : ولا الحسن ولا ابن سيرين . وقال فيه القاسم بن محمد بن أبى بكر : « لو تمنيت أحداً تلده أمى لتمنيت ربيعة » .

وما كان بالمدينة رجل أسخى بما فى يديه لصديق أو غيره من ربيعة . لقد أنفق على إخوانه أربعين ألف درهم .

تلقى مالك على شيخه الكثير ، وهو فى حلقته أو بعد إذ صارت لمالك حلقة ، مثل سوء رأيه فى العراقيين ، ومثل الانتصار للعلم فى مواجهة الخليفة منذ دعا السفاح ربيعة ليوليه القضاء فى العراق . وكانت الدولة الجديدة بحاجة إلى علوم المدينة . فلبى ربيعة قائلاً لمالك : «إن سمعت أنى خدمتهم شيئاً أو أفتيتهم فلا تعدنى شيئاً» . وكان من الزهاد . ذهب حقًّا وعاد . رافضاً ولاية القضاء وجائزة أجيزها قيمتها خمسة آلاف ! . . وعاد يقول عن العراقيين : « رأيت قوماً حلالنا حرامهم وحرامنا حلالهم . وتركت بها أكثر من أربعين ألفاً يكيدون هذا الدين » ويروى أنه أضاف : «كأن النبى الذى بعث إلينا غير النبى الذى بعث إليهم » .

كان هناك المعتزلة وغلاة المرجئة والشيعة والخوارج والمتكلمون . فهؤلاء هم الذين عناهم ؛ وكان ثمة القياسون من فقهاء العراق الذين جارتهم مدرسة أبى حنيفة. وكان أبو حنيفة نفسه هنالك يتوسط حلقة عظيمة تعمل عملها العظيم فى الاجتهاد وإبداء الرأى . وربيعة نفسه صاحب رأى منذ الصبا . ناقش أيامذاك سعيد ابن المسيب فى مسألة مجادلاً بالقياس . وجادله سعيد بالسنة .

فأم مالك توجه فتاها إلى أدبه والمدينة المنورة توجه الأنظار إلى رأيه . . . ولم لا يكون علماً على الرأى والأدب . وهو مولى بنى تيم رهط أبى بكر . وهم ، رجالاً ونساء . قمة قريش فى الذوق والأدب . وقريش قمة العرب .

أما أستاذ مالك الثانى من موالى بنى تيم فهو نافع بن عبد الرحمن بن

أبى نعيم (١٦٩) قارئ المدينة الكبير . وإمامها فى دهره . ونافع قد قرأ على شيبة بن نصاح من موالى أم سلمة أم المؤمنين .

ومن مواليهم كذلك علقمة بن أبى علقمة بلال . وكان له مكتب بالمدينة يعلم النحو والعروض فى المدينة وهو مولى أم المؤمنين عائشة . مات فى أول خلافة المنصور .

وأما ذروة معلميه من بنى تيم أنفسهم . فمحمد بن المنكدر (١٣٠) زعيم الفقهاء علماً ونبلاً ومالك يروى عنه فى الموطأ . وهو حبة من حبات ذلك العقد النظيم من أهل العلم فى بنى تيم ، يتصدر أخوين من فقهاء العصر : هما أبو بكر وعمر . والأسماء الثلاثة للإخوة الثلاثة أسماء الرسول وصاحبيه ، وكأنها تعلن شعار الاتباع كلما جادت السماء برجل على بنى تيم .

وكان لهم أيضاً موال فقهاء متصدرون كيعقوب الماجشون ، وابنه ، وإلى يعقوب بن أبى سلمة ينسب ولده وبنو عمه فيقال بنو الماجشون[1] . وكان فقيهاً وابنه يوسف وأخوه عبد الله وابنه عبد العزيز بن عبد الله (١٦٤) ويكنى أبا عبد الله كانوا كلهم فقهاء .

وسنرى عبد العزيز بن عبد الله من ضرباء مالك . أما ابنه عبد الملك (٢١٢) فسوف نراه تلميذاً فى حلقة مالك .

كان محمد بن المنكدر من معادن الصدق التى تزدان بها مشيخة العلم بالمدينة ، وكان سيداً فى القراء ، عابداً زاهداً ، يعد فى طبقات الزهاد والعباد قال : « كابدت نفسى فى ذلك أربعين سنة حتى استقامت » . لا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا بكى . يقول مالك : «كنت إذا وجدت من نفسى قسوة آتى ابن المنكدر فأنظر إليه نظرة فأبغض نفسى أياماً » . فهو شارك فى تعليم مالك العلم وأشياء من خصائص بنى تيم ؛ لعل أبرزها كان تهذيب تلميذه على هدى من سبقه من الأئمة من أهله الذين أفنوا أنفسهم ليحيا الناس وفى طليعتهم أبو بكر الصديق .

---

(١) كلمة فارسية معناها أبيض الخد .

وكان الناس يسألون ابن المنكدر : أى الأعمال أفضل فيقول إدخال السرور على المؤمن . . ويسألونه : أى الدنيا أحب إليك فيقول : الإفضال على الإخوان.

وثمة علماء آخرون من بنى تيم — من أنفسهم . كالقاسم بن محمد بن أبى بكر الذى يسميه عمر بن عبد العزيز أعيمش بنى تيم . أو أمهاتهم منهم . كعبد الله بن الزبير وعروة . أمهما أسماء أخت محمد بن أبى بكر نقلوا علم المدينة كله إلى ناقليه : لمالك .

والصديق أبو بكر يقف كواسطة العقد فى قمة التاريخ العلمى لمصادر مالك العلمية ، باتباعه واجتهاده الرأى . وبأبنائه وبنى تيم أنفسهم أو مواليهم .

* * *

أما القمة الأخرى . قمة عمر بن الخطاب فستنتهى إلى مالك بطريق قاصد . وفقيه رفيع المقام فى تاريخ الرواية عن الرسول عليه السلام هو نافع مولى عبد الله ابن عمر . فيسلكه نافع فى سلسلة الذهب . إذ يروى الشافعى (عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر) .

خدم نافع عبد الله بن عمر ثلاثين عاماً . ومات سنة ١١٧ وكان يروى عنه وعن عائشة ، وأم سلمة وأبى هريرة ، وأرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم المصريين السنن .

وكان يمتنع عن الفتيا فى حياة سالم بن عبد الله بن عمر ، وكان عبد الله ابن عمر أشبه أولاد عمر بعمر . أو كما يروى زيد بن أسلم عن أبيه : ما ناقة أضلت فصيلها فى فلاة من الأرض بأطلب لأثرها من ابن عمر لعمر بن الخطاب.

لزم مالك نافعاً يستخرج ما عنده . يترصد دخوله وخروجه ليسأله . وأحبه نافع فكان يقعده معه ويحدثه .

ويتحايل مالك لينفرد بنافع . فيقوده إذ كف بصره إلى منزله بالبقيع بعيداً عن المدينة ، ليستفيد من بعد الشقة . والوحدة . ولهذا روى عنه ثمانين حديثاً فى الموطأ .

وكان من وسائله للانفراد بالأساتذة أن يجعل فى كمه ثمرات يناولها صبيان ابن هرمز ليقولوا إذا سئلوا عن الشيخ إنه مشغول فيخلو له وجهه .

ويتراءى ابن هرمز ، عبد الله بن يزيد ، مدة أطول فى حياة مالك . إذ انقطع إليه سنوات فى أول الحياة ثم صار يعاود مجلسه حتى مات الشيخ فى سنة ١٤٨ — قال ابن هرمز يوماً لجاريته من بالباب ؟ فذكرت له مالكاً قال : ادعيه فإنه عالم الناس ... وكان عالم الناس قد اتخذ تباناً محشواً يتقى به برد حجر يجلس عليه بالباب . يجىء مبكراً فما يخرج من بيته حتى الليل ، ويأمر ابن هرمز الجارية فتغلق الباب وترخى الستر . ويكلمه ابن هرمز فى الدين والعلم والسير ويبكى حتى تخضل لحيته — ولسوف يخرج ابن هرمز مع محمد بن عبد الله النفس الزكية زعيم العلويين سنة ١٤٥ على بنى العباس وظلمهم . ولعل أمر الأمة هو الذى أهمه وكان يبكى له .

أما ابن شهاب الزهرى (١٢٤) فكان صديقاً لعبد الملك بن مروان وابنه هشام ، واستقضاه يزيد بن عبد الملك حينما ولى بعد عمر بن عبد العزيز . ثم أدب ولد هشام . فأطال المقام بالشام . وإذا عاد إلى المدينة يقول مالك : « كنا نزدحم على درج سلم بابه » . ولا يعود مالك إلى داره من صلاة العيد بل يقصد إلى دار ابن شهاب يرجوه ليحدثه فيحدثه ويقول مالك زدنى . فيجبذ اللوح من يده ويقول : حدث فيحدثه بالأحاديث التى ألقاها عليه . فيقول له : قم فأنت من أوعية العلم . حدث إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف : قلت لأبى بم فاقكم الزهرى؟ قال كان يأتى المجالس من صدورها ، ولا يأتيها من خلفها ، ولا يبقى فى المجالس شاباً إلا سأله ولا كهلاً إلا سأله وقال : ما أرى أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع ما جمع الزهرى .

وللزهرى مقام عظيم فى عالم الرواية عن الرسول ، وإنه لجليل الأثر فى تنشئة مالك وفى تكوين فكره . فهو يروى عنه فى الموطأ اثنين وثلاثين ومائة حديث . منها اثنان وتسعون مسندة والباقى منقطع . ولقد طلب عمر بن عبد العزيز إلى الزهرى أن يدون الحديث وربما كان ذلك بداية تدوين الزهرى . وكان الزهرى

فى عصره على رأس المدونين للسنن ، حتى ليقول الشافعى : « لولا الزهرى لذهبت السنن من المدينة » وكان حافظاً من الدرجة الأولى ، حفظ القرآن فى ثمانين ليلة ، وما استودع ذهنه شيئاً إلا حفظه . وكان يملى مئات الأحاديث فى المجلس الواحد !

ولما مات مالك وجدت عنده صناديق لم يحدث بها . منها أحاديث للزهرى . روى صالح بن كيسان (١٣٩) مؤدب أبناء عمر بن عبد العزيز « كنت أنا وابن شهاب ونحن نطلب العلم فاجتمعنا على أن نكتب السنن فكتبنا كل شىء سمعنا عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : اكتب ما جاء عن الصحابة فقلت ليس بسنة قال : بل هو سنة . فكتب ولم أكتب — فأنجحَ وضيعتُ » .

ومالك يقول : قدم ابن شهاب المدينة فأخذ بيد ربيعة ودخلا الديوان . . وخرج ابن شهاب وهو يقول : ما ظننت بالمدينة مثل ربيعة . وخرج ربيعة يقول : ما ظننت أحداً بلغ من العلم ما بلغ ابن شهاب .

وقال ابن شهاب ذات يوم : قال لى القاسم بن محمد : أراك تحرص على العلم . أفلا أدلك على وعائه ؟ قلت بلى . قال عليك بينت عبد الرحمن فإنها كانت فى حجر عائشة . فوجدتها بحراً لا ينزف . . وعمرة بنت عبد الرحمن خالة أبى بكر بن حزم أحد المصادر الرئيسية لتعلم مالك .

ويظهر أثر ابن شهاب كذلك عند ما نجده يلقى مسألة فيجيب ربيعة ويسكت مالك فيسأله ابن شهاب لم لا تجيب ؟ ويقول مالك : لقد أجاب الأستاذ ، أو نحو ذلك فيقول ابن شهاب : ما نفترق حتى تجيب . فيجيب بخلاف جواب ربيعة . ويقول ابن شهاب : ارجعوا بنا إلى قول مالك .

فمالك كان فى صدر شبابه صاحب رأى يخالف فيه ربيعة الرأى . ويرده الأدب الكريم عن معارضته فى المجلس .

وكان الزهرى عنواناً على السماحة والسخاء . وسيعجب به الشافعى لفرط سخائه ولقوة حفظه . ويزيد مالكاً إعجاباً أن يقول فيه عمر بن عبد العزيز : إنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه .

* * *

هكذا نرى أساتذة مالك كلهم مثل عظيم فى الدين والعلم والخلق وبهذا وبالاتصال المباشر — نضج شخصه وعلمه . فإذا انضاف إليهم إمام كان إذا خطر صرفت الأبصار تلقاءه وإذا حضر رنت إليه الحدق . جعفر الصادق . ظهر لنا مبلغ ما سُعد مالك بأساتذته ، وكان جعفر يمت إلى بنى تيم بأمه ، وأمها ، فهذا نسب علمى جديد لمالك إلى بنى تيم . فالصادق يقول : ولدنى أبو بكر مرتين. وبهذا ينتسب إليه من أكثر من وجه . أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد ابن أبى بكر . (أعيمش بنى تيم) وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر . وجعفر يروى عن محمد بن المنكدر ، وعن خاله عبد الرحمن بن القاسم ، وعن عروة بن الزبير ، وعروة يروى عن عائشة . أما أبوه فالإمام محمد الباقر ابن الإمام على زين العابدين بن الإمام الحسين بن على . . . فجعفر يحوى كل علوم المدينة وعلوم أهل البيت . وكان بحر علوم فى الفقه وفى العلوم الطبيعية معاً. وهو أستاذ جابر بن حيان أول كيمائى فى التاريخ ، كما تبايعه أوربا المعاصرة ، وصاحب الطريقة العلمية العربية التى تلقتها أوربا وادعتها لنفسها طريقة التجربة والاستخلاص .

وعلى الإمام جعفر تلقى أبو حنيفة . وفيه يقول : « ما رأيت أفقه من جعفر ابن محمد » . وتلقى عليه مالك الفقه وأساليب السلوك . فجعفر قد لزم الحياد عندما خرج محمد بن عبد الله سنة ١٤٥ ولزم مالك الحياد كذلك . وجعفر لم يكن يرى الثورة ، ومالك لم يكن يرى الخروج على الأئمة .

وجعفر رجل وئام تجتمع على فضله كل الأمة بما فيها المختصمون من الأ ويين والعباسيين وسواهم ، وكان يعلم الناس بطريقته وتقواه . رووا أن أبا مسلم الخراسانى — القائد الذى أقام دولة بنى العباس — أرسل إلى جعفر يراوضه فى أن تكون الدعوة له . . . فقرأ الرسالة ثم حرقها . واكتفى فى الرد عليها بأن أمر الرسول أن يبلغ أبا مسلم بما رأى . وسنرى مالك بن أنس سلماً لكل رجل ، من الأمويين إلى العباسيين إلى من عداهم .

وجعفر هو الذى يجمل الحياة إذ يجعل فى كل نعمة فضيلة زكاة . ويجعل

الفقه ضرورة للدنيا قال : « المعروف زكاة النعم ، والشجاعة زكاة الجاه . والعلل زكاة الأبدان والعفو زكاة الظفر وما أديت زكاته فهو مأمون السلب » وقال : لا يستغنى أهل بلد عن ثلاثة يفزع إليهم فى أمر دنياهم وآخرتهم : فقيه عالم ورع ، وأمير مطاع ، وطبيب ثقة فإن عدموا ذلك كانوا همجاً . وهو ينبه الفقهاء ليبقوا على مكانتهم فيقول : «الفقهاء أمناء الرسل ما لم يأتوا أبواب السلاطين » .

يقول مالك : «كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبي عليه الصلاة والسلام اخضر واصفر ، ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال — إما مصلياً وإما صائماً وإما يقرأ القرآن . وما رأيته يحدث عن رسول الله إلا على الطهارة . ولا يتكلم فيما لا يعنيه . وكان من العلماء والعباد والزهاد الذين يخشون الله . وما أتيته قط إلا ويخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتى » . وكم حاول مالك أن يكون مثله . يتغير لونه ويصفر إذ يذكر النبي فيتساءل جلساؤه فيقول لهم لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم على ماترون . ويذكر لهم حال ابن المنكدر ثم يعقب بحال جعفر . . أخرج له مالك فى موطئه تسعة أحاديث ، وقيل إنه أضافها بعد قيام دولة العباسيين إذ سألوه لماذا لم يرو عن على وابن عباس وأنه قال : لم يكونا ببلدى . أى كانا بمكة والكوفة .

ولما عقد لنفسه حلقة كان جعفر يشير على المتفقهين بإتيانها . روى عنوان البصرى أنه كان يختلف إلى الإمام جعفر يتعلم عليه ، فغاب الإمام عن المدينة فاختلف إلى مالك سنين ، ثم عاد الصادق فعاد إليه عنوان فنصحه أن يجلس إلى مالك .

* * *

كان مالك سريع الحفظ كثير التدوين يقول عن نفسه : «لقد ذهب حفظ الناس . ما استودعت قلبى قط شيئاً فنسيته » ويقول : «كتبت بيدى مائة ألف حديث » حدثه ابن شهاب أربعين حديثاً ونيفاً منها حديث السقيفة — وهو طويل — فحفظها ثم طلب إلى ابن شهاب أن يعيدها لأنه نسى النيف . فأبى ابن شهاب فأعادها مالك عليه من حفظه كما رواها .

قالوا أخذ مالك العلم عن تسعمائة شيخ فأكثر ، منهم ثلثمائة من التابعين وستمائة من تابعي التابعين . وما يرفع الشأن أن يكونوا تسعمائة إذا كانت الأسماء التي ذكرناها قبل ، أسماء البعض من أساتذته — وسنرى بعد من كان أساتذة هؤلاء .

وليست الدراسة عظيمة بكثرة عدد المدرسين . وإنما هي تعظم بعظمتهم . أو ملازمتهم ، والفهم منهم ، وربما تعلم الشافعي على مالك في عشر سنين أو تعلم أبو حنيفة على حماد بن إسماعيل ، وحده ، أضعاف ما تعلمه مالك على مئات ممن لقيهم .

على أن هؤلاء الأساتذة كانوا مرتبطين بمن سبقوهم ارتباطاً لا نستطيع له تجزئة فهم حلقة الوصل الوثقى بين مالك وبين من سبقوهم في مدرسة المدينة العظيمة التي تجمع فقه المئين منها في سبعة أو عشرة أو بضعة عشر . مثلوهم كلهم أصدق تمثيل . فلما انتقل علم المدرسة كاملاً إلى مالك . أمسى مالك تلميذاً للمدرسة كلها . لا لأشياخه وحدهم — وإذا رأيناه يروى عن بضع مئات فالمئات أعضاء مدرسة تنقل عن مدرسة . وبهذا آل لمالك كل علم المدينة . وكفته المدرسة العظيمة بتراثها الأعظم فلم يرحل إلى سواها . ففيها طلبته من السنن أحاديث وآثاراً . ومن الشيوخ عشرات ومئات . وعلى هذا تشكل مناهجه بأشكال المدينة وأشخاصها وعلمهم وعملهم ؛ وأخذ نفسه من فاتحة الحياة بما يأخذ به الفقهاء جميعاً فيها من عمل المدينة وعلمها .

* * *

قالوا جلس مالك للتدريس وهو ابن سبعة عشر عاماً . ولا نستطيع بهذا أن نختم عهده في التلمذة . فالواقع أنه كان يعلم ويتعلم . وآية ذلك اختلافه إلى بعض أساتذته بعد أن عقد لنفسه حلقة . ولا يزيده التبكير بالجلوس مكانة وإنما يزينه الإقبال والإخلاص اللذان كانا ديدنه .

قالوا إن مسألة عرضت في حلقة ربيعة فتكلم فيها فراجعه مالك بقوله ما تقول يا أبا عثمان فقال ربيعة : « أقول . فلا تقول . وأقول إذ لا تقول وأقول فلا تفقه

ما أقول » فانصرف مالك . حتى إذا كان الظهر جلس وحده فلما كان المغرب اجتمع إليه خمسون وأكثر .

وقالوا جلس وهو ابن أكثر من سبع عشرة سنة . لكن مسلّماً أنه قد عرفت له الإمامة وبالفقهاء الكبار حياة .

وسنرى بعد ، من كتاب الليث بن سعد سبباً فقهيًّا من أسباب خلاف مالك وربيعة أدى إلى تركه مجلس ربيعة .

على أنه لم يغلق وراء نفسه أبواب ربيعة ، فربيعة كان شيخ مدرسة يبارك خطو تلاميذها ؛ دعا الوالى مالكاً إلى مجلسه ، فتأخر حتى سأل ربيعة ، فقال له احضر . قيل له : لو لم يقل لك احضر ، أكنت تحضر؟ قال : كلا . . . ويعلو نجم مالك لدى الحكام . فيقال لربيعة : كيف حظى بك مالك وأنت لم تحظ به ؟ ويقول : أما علمتم أن مثقالاً من دولة خير من حمل علم ؟

ولا يتوقف النجم عن الصعود ، فليس حظًّا ، وإنما هو العلم ، الذى سيجعله يقول فيما بعد : قل رجل كنت أتعلم منه ما مات حتى يجيئنى يستفتينى .

استفتاه زيد بن أسلم — وقد روى مالك عنه — ورجع إليه . بل اجتمع الناس يسألونه أن يحدثهم عن ربيعة وربيعة حاضر فى المسجد . فكان يشير إليهم أن يتوجهوا إلى الشيخ الوقور ربيعة .

وتمضى الأيام فيقول ابن لهيعة فى مصر : قدم علينا محمد بن عبد الرحمن فقلت له من للرأى بعد ربيعة فى الحجاز فقال الغلام الأصبحى . . . وهى مقولة معبرة عن آمال الفقهاء إذا قيلت فى حياة ربيعة أو هى عبارة مباهاة إذا قيلت بعد وفاته فلم يك مالك غلاماً بل كان فى الثالثة والأربعين يوم مات ربيعة .

الفصل الثانى

مدرسة المدينة

« والمدينة خير لهم »
« لو كانوا يعلمون »
(حديث شريف)

اكتفينا قبلُ بالحديث عن سبعة من شيوخ مالك ، لقوّة تأثره بهم ، ولأنه لا معدى عن الوقوف عند حد . ولقد تلقى هؤلاء ، وسائر من تلقى عنهم مالك ، عن أشياخ المدينة العظماء وفى طليعتهم الأئمة المعروفون بالفقهاء السبعة أو العشرة أو نحوها إذا انضاف إليهم أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أو سالم بن عبد الله وقبيصة بن ذؤيب وإبان بن عثمان .

يضاف إلى هذه الأنجم اللامعة تلميذهم أو زميلهم أبو بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصارى . وقد مات سنة ١٢٠ عن أربعة وثمانين عاماً . ولولديه تأثير ملحوظ فى مالك . وكان عندهم الكثير من تراث المدينة ، علماً وعملاً . ومنه كتاب الرسول فى الديات إلى جده عمرو بن حزم وقد كان رسول الرسول إلى اليمن . ومالك يرويه فى الموطأ . ولهذا نستفتح به الكلام فى فقهاء العصر . . . ومحمد والد أبى بكر واحد من شهداء المدينة يوم وقعة الحرة . وأما أبو بكر فصار قاضياً لسليمان بن عبد الملك ووالياً لعمر بن عبد العزيز على المدينة .

يروى ابن وهب عن مالك : كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنة والفقه . ويكتب إلى أهل المدينة يسألهم عما مضى ، وأن يعلموه بما عندهم . وكتب إلى أبى بكر بن حزم أن يجمع السنن ويكتب إليه ، وتوفى عمر وقد كتب ابن حزم كتباً ولم يبعث بها إليه بعد . وكان على قضاء المدينة ووليها أميراً . فقال له يوماً قائل : ما أدرى كيف أصنع بهذا الاختلاف . قال : إذا

وجدت أهل المدينة مجتمعين على أمر فلا تشك أنه الحق . وسنرى هذه الكلمة التى نقلها مالك منهاجاً يتبعه ويدافع عن اتباعه .

فأما فقهاء المدينة السبعة فسيصبح علمهم بذاته دعامة علوم الإسلام . منهم اثنان من الطبقة الأولى من التابعين . وأولهم سعيد بن المسيب (٩٣) تلميذ زيد بن ثابت وصهر أبى هريرة . وكان يقال (سعيد راوية عمر) ويقال (سعيد بن المسيب الجرىء) وهو يلقب بسيد التابعين . ضربه جابر بن الأسود والى ابن الزبير على المدينة ستين سوطاً لأنه لم يبايع له . وضربه هشام بن إسماعيل المخزومى والى عبد الملك ستين سوطاً لأنه لم يبايع للوليد[1] .

وسليمان بن يسار (١٠٧) مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث — خالة عبد الله بن عباس . روى عن أم سلمة وابن عباس وأبى هريرة .

أما الخمسة الآخرون فيتصدرهم أستاذ عمر بن عبد العزيز عبيد الله بن عبد الله بن عتبة الذى مات فى سنة الفقهاء (٩٤) وكان شاعراً . فهو من هذيل . أبوه عبد الله بن عتبة ، وعتبة أخو عبد الله بن مسعود . لقى عبيد الله كثيرين من الصحابة ، وروى عن ابن عباس وأبى هريرة وعائشة .

وأما أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومى القرشى (٩٤) فيدعى

---

(١) لم يبايع للوليد ولأخيه سليمان بعد موت عبد العزيز بن مروان إذ قال لا أبايع للوليد وعبد الملك حى .

قال عنه عبد الله بن عمر : لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسره .

وكان سعيد يقول : لم أنظر إلى قفا رجل فى الصلاة من خمسين سنه . للمحافظة على الصف الأول .

وقيل إنه صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنه . وكان يرى الدنيا نكفى مؤونتها أربعمائة دينار — فاتجر فى الزيت يعيش من ربحه ولا يمد يده لعطاء الخليفة . وقد اقتفى مالك أثره فى المرابحة بأربعمائة دينار .

وهو مخزومى . من قبيلة أم سلمة أم المؤمنين ، وخالد بن الوليد — أخوال عمر بن الخطاب وهو الذى رفض أن يزوج بنته من الوليد بن عبد الملك حينما خطبها الخليفة لولى عهده وزوجها تلميذاً فقيراً من تلاميذه .

دعى إلى نيف وثلاثين ألفاً يأخذها فقال : لا حاجة لى فيها أو لبنى مروان حتى ألقى الله فيحكم بينى وبينهم .

وقيل لم يكن أعلم بقضاء رسول الله وصاحبيه من سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار .

راهب قريش أبوه صحابى جليل وأخ لأبى جهل زعيم المشركين . تلقى العلم عن أبى مسعود الأنصارى وأبى هريرة وعائشة وأم سامة .

وخارجة بن زيد بن ثابت (١٠٠) وارث علم أبيه .

والقاسم بن محمد بن أبى بكر (١٠٦) وما كان أعلم بالسنة منه. بلغ بتقواه وصلاحه أن قال عمر بن عبد العزيز فيه : « لو كان لى من الأ ر شىء لاستخلفت أعيمش بنى تيم » .

ضمته أم المؤمنين عائشة إليها بعد مقتل أبيه ، بأيدى جند معاوية وعلمته — وكان أبوه ربيب على ، وكان فى معسكره يوم وقعة الجمل ، فلما أعاد على عائشة إلى المدينة سيرها محفوفة بكوكبة من النساء فى ملابس الرجال ، وسير معها أخاها محمداً احتفالاً بها . وكان من نساك قريش .

وسالم بن عبد الله بن عمر ، (١٠٦) ابن عم أم عاصم أم عمر بن عبد العزيز لكنه كذلك ابن خالة القاسم ، فأماهما وأم زين العابدين بن الحسين من بنات يزدجرد كسرى الفرس . وقد آل إلى سالم علم أبيه .

وعروة بن الزبير (٩٤) ابن أخت عائشة روى عنه ابنه هشام بن عروة أنه أحرق يوم الحرة كتبه فكان يقول : لأن تكون عندى أحب إلىّ من أن يكون عندى مثل أولادى ومالى . كان أعلم الناس بحديث عائشة .

وأكثر الناس على أن سالمًا ليس بين الفقهاء السبعة ، وقليل على أن فيهم أبا سلمة بن عبد الرحمن . ولقد نظمهم الشاعر فى بيت واحد :

فخذهم : عبيد الله . عروة قاسم   سعيد . أبوبكر. سليمان . خارجه

* * *

تعلم علماء المدينة ، مباشرة أو بالواسطة على أمهات المؤمنين وأبى هريرة وابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر . وسائر أركان المدرسة العليا للمدينة . فصيروا النصف الثانى من القرن الأول فى المدينة صورة تريد لتقارب الأصل الذى كأنه النصف الأول . باتباع السنة فى العلم والعمل . ولم يكتف

الفقيه الأمير « عمر بن عبد العزيز » بالسبعة فأضاف إليهم آخرين واتخذ منهم مجلس الشورى له .

ومن الصحابة جماعة أكثروا الرواية عن الرسول (ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم) كما يقول أبو بكر بن حزم .

وحسبنا من المدرسة العليا فى هذا المقام بعض الأسماء :

زيد بن ثابت : كان فى الحادية عشرة حينما قدم النبي إلى المدينة . علمه الكتابة أسرى بدر الذين شرطت عليهم الفدية بالمال أو أن يعلم الواحد منهم عشرة من المسلمين . سلمه النبي لواء بنى مالك بن النجار يوم تبوك لأنه أكثر أخذاً للقرآن من حاملها عمارة بن حزم. والقرآن مقدم . وكان يكتب الوحى للرسول، وأمره النبي بتعلم السريانية إذ كانت ترد إليه الكتب بها . وكتب لأبى بكر وعمر واستخلفه عمر مرات على المدينة . وعثمان كذلك . كان أعلم الناس بالفرائض ومن أفكه الناس إذا خلا مع أهله،وأزمتهم إذا كان فى القوم.وكان عثمانياً ينكر الطعن فى عثمان ولم يشهد مع على شيئاً من حروبه. مع أنه يظهر فضل علىّ ويعظمه . وهو الذى جمع القرآن فى عهد أبى بكر . وجمع المصحف فى عهد عثمان . قال قبيصة بن ذؤيب : كان زيد بن ثابت مترئساً بالمدينة فى القضاء والفتوى والفرائض فى عهد عمر وعثمان وعلى فى مقامه بالمدينة وبعد ذلك خمس سنين حتى ولى معاوية سنة ٤٠ فكان كذلك أيضاً حتى توفى سنة ٤٥ . وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول : هكذا يفعل بالعلماء والكبراء .

وكان إذا سأله رجل عن شيء قال: آلله كان هذا ؟فإن قال نعم أفتى — وإلا سكت . وستؤول هذه الطريقة إلى مدرسة المدينة بعد .

عبدالله بن عمر : (٧٣) أسلم مع أبيه وهو لم يبلغ الحلم — وشهد مؤتة مع جعفر بن أبى طالب وشهد اليرموك وفتح مصر وأفريقية . كان كثير التعهد لآثار الرسول ينزل منازله . يصلى فى كل مكان صلى فيه . نزل عليه الصلاة والسلام تحت شجرة فصار ابن عمر يتعهدها حتى لا تيبس . وفيه تقول أم المؤمنين عائشة : ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول من عبد الله بن عمر .

وقال مولاه نافع : «لو رأيت ابن عمر يتبع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم لقلت إن هذا لمجنون» .

وكان كثير الاحتياط لدينه ، حتى ترك المنازعة فى الخلافة ولم يقاتل فى شىء من الفتن . ولم يشهد مع علىّ شيئاً من حروبه إذ أشكلت عليه .

قال جابر بن عبد الله : ما منا إلا من مالت به الدنيا ومال بها ما خلا عمر وابنه . والزهرى يقول : لا يعدل برأى ابن عمر فإنه قام بعد رسول الله ستين سنة تقدم عليه وفود الناس .

وكان ربما تصدق فى المجلس الواحد بثلاثين ألفاً وإذا اشتد عجبه بشىء من ماله تقرب به إلى الله تعالى . فكان رقيقه يلزمون المسجد يصلون فإذا رآهم على هذه الحال الحسنة أعتقهم . فقال له قائل : يخدعونك . قال : من خدعنا بالله انخدعنا له .

وكان يقول : « البر شىء هين . وجه طلق وكلام لين » .

وروى عنه كبار الصحابة وكبار التابعين وأكثرهم رواية عنه ابنه سالم ومولاه نافع أستاذ مالك بن أنس .

وقال عروة : « سئل ابن عمر عن شىء فقال لا علم لى به . فلما أدبر السائل قال عبد الله بن عمر : سئل ابن عمر عمالاعلم له به فقال لا علم لى به . وسيكون ذلك منهاج مالك .

قال له عثمان : اذهب فاقض بين الناس قال : أو تعافينى يا أمير المؤمنين ؟ قال وما تكره من ذلك وقد كان أبوك يقضى ؟ قال إن أبى كان يقضى فإن أشكل عليه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل وأنا لا أجد من أسأله .

أبو هريرة : قدم على النبى مهاجراً سنة سبع للهجرة . ولازمه حتى لحق بربه ، روى فأكثر الرواية عن النبى . وأكثر التابعون الرواية عنه . ومنهم سعيد ابن المسيب صهره — توفى سنة ٥٨ .

عبد الله بن مسعود : كان من أحفظ الصحابة للقرآن وأشدهم إظهاراً له يقول فيه أبو موسى الأشعرى : « كنا حيناً ما نرى ابن مسعود وأنه إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثرة دخولهما ولزومهما له » . وكان فى السفر صاحب فراش النبي ووضوئه . هاجر الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة وشهد المشاهد كلها مع النبي . وهو الذى احتز رأس أبى جهل يوم بدر . خرج غازياً إلى الشام ونقله عمر إلى الكوفة .

وكان صاحب بيت المال فى الكوفة لما وليها الوليد بن عقبة بن معيط لعثمان . وكان عقبة صاحب غنم يرعاها له عبد الله فى الجاهلية . فاستقرض الوليد بن عقبة من بيت المال فأقرضه عبد الله —وكان هذا جائزاً— فلما حل الأجل، التوى الوليد . فغضب ابن مسعود وألقى مفاتيح بيت المال وأقام فى داره يعظ الناس ويفقههم .

وازدادت معارضته لعثمان عندما كلف عثمان زيد بن ثابت فجمع المصحف وأمر عثمان بحرق المصاحف الأخرى فرفض ابن مسعود حرق مصحفه . والرسول يقول : « خذوا القرآن من أربعة : عبد الله ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ومعاذ ، وأبى بن كعب » ورجع إلى المدينة وأقام عامين أو ثلاثة معارضاً حتى مات سنة ٣٢ وقيل اعتذر له عثمان قبل أن يموت .

وفى الكوفة أهل ابن مسعود ومنها انتشر علمه عن طريق مدرسة الاجتهاد التى تألقت فى يدى أبى حنيفة .

عائشة أم المؤمنين : فارقت بيت أبيها إلى بيت النبى فى نحو العاشرة فبلغت الذروة فى كل شيء . وحدثت عن النبي الكثير . وكانت ذات رأى فى الفقه والتاريخ وكل مايطلب إليها . وكأنما كانت رقيب العصر فى الدفاع عن الاتباع . وكانت تجتهد . حاربت علياً ، وغاضبت عثمان . ولامت معاوية ، وماتت فى خلافته (٥٨) .

لم يكن عمر يعرف حديث : « ما أعطيتموهن من شيء فهو لكم صدقة » فذهب يسألها : أنشدك الله . أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ما أعطيتموهن من شيء فهو صدقة ؟ » قالت : اللهم نعم . اللهم نعم . قال عمر : « أين كنت عن هذا . ألهانى الصفق فى الأسواق » !! فقد كان يعمل ليعيش . وكان مشيخة أصحاب النبي يسألونها فى الفرائض كما قال مسروق . أو كما قال أبو موسى الأشعرى : ما أشكل علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها علماً .

وهى أديبة بليغة – يفيض علمها الواسع على لسانها الفصيح .

قال الأحنف بن قيس: «سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلى والخلفاء وهلم جرًّا إلى يومى هذا . فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه فى فم عائشة » .

وكان من زعماء العرب دعاه عمر إلى المدينة وأبقاه بها عاماً ليرى هل يصلح لولاية العراق . فدخل المدينة فى كامل أبهته . وعمر يطلى بعيراً من إبل الصدقة بالقطران . قال عمر هلم يا أحنف ساعدنى فى طلاء هذا البعير . قال أحد الحضور : يا أمير المؤمنين هلا كلفت عبداً من عبيد الصدقة ليكفيك ما أنت فيه ؟ قال عمر : ومن أعبد منى ومن الأحنف ؟ فخلع ثيابه وراح يطلى مع أمير المؤمنين .

إليك مثلاً من بلاغة أم المؤمنين وعمقها الفقهى معاً : سئلت عن خلق الرسول عليه السلام فقالت : « كان خلقه القرآن » وليس أوجز ولا أدل على وحدة جوهر الرسول والرسالة التى نزل بها القرآن من أن يكون « خلقه القرآن » .

ومثلاً فى الأدب : كان عليه الصلاة والسلام يصلح نعله فى يوم قائظ فتندى جبينه . وانحدر العرق على خده . وهى تلحظه من قريب وكأن بها وجداً عليه – فسألها مالك بُهِتِّ ؟ قالت : لو رآك أبو كبير الهلالى لعلم أنك أحق بقوله :

وإذا نظرت إلى أسرّة وجهه   برقت بروق العارض المتهلل

فقبل النبى ما بين عينيها وقال : « سررتنى يا عائشة سرك الله » .

ملأت عائشة المدينة فضلاً وعلماً . وتعلم عليها كل من اتصل بها مثل القاسم ابن أخيها محمد وحفصة بنت أخيها عبد الرحمن . وعروة ابن أختها أسماء، وعمرة بنت عبد الرحمن . وقد ربيت فى حجر عائشة . وعائشة بنت طلحة بنت أختها ، وخيرة أم الحسن البصرى ، وزينب بنت أبى سلمة ، ومرجانة والدة علقمة ابن أبى علقمة .

ولقد مر بنا حديث القاسم وعمرة . وسنسمع غداً عمر بن عبد العزيز يطلب إلى قاضيه ابن حزم تدوين ما عند القاسم وعمرة ليؤول كل ذلك إلى مالك . . فالطريق قاصدة بين أم المؤمنين وبين مالك .

أم سلمة أم المؤمنين : تزوجها الرسول بعد موت أبى سلمة بن عبد الأسد ولها ابن من أبى سلمة هو عمر ، رباه النبى ، وأحله عمر محلا عليًّا — وولاه على البحرين . رُوى عنها الكثير وإن كان أقل من الرواية عن عائشة .

وكان شيبة بن نصاح إمام القراءة فى دهره مولى لها . وهو أستاذ نافع صاحب القراءة الشهيرة . وخيرة أم الحسن البصرى مولاتها . . ومن هذا النبع العظيم صار الحسن البصرى إماماً فى الفكر ، والفقه ، والدين ، للمسلمين .

وقد لحقت أم سلمة بعائشة بعد عام سنة ٥٩ . فكانت آخر من بقى على الأرض من زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

جمع الإسلام العرب على أرفع المبادئ فصيرهم أعظم الأمم فى سنوات — وجرى التيار الطهور من جيل الذين صنعوا الصنيع مع الرسول ، أو بصرت به أعينهم ، إلى جيل التابعين الذين شاركوهم وجروا على آثارهم . فجيل تابعى التابعين فى خاتمة القرن الأول وأوائل القرن الثانى .

وكان الصحابة مصدراً للآثار التى يتبعها المسلمون منقولة عن الرسول ، أو عن فهمهم لحقائق فكره وعمله. وانبثقت من أشخاصهم وأعمالهم الحقائق دينية وعلمية معاً . بل كانوا بمثلهم العليا وشجاعة النفس والفكر ، والتواعد إلى الجنة ، عدة النصر العسكرى .

أمر أبو بكر خالد بن الوليد فى العراق أن يخفّ لنجدة جيوش الشام بنصف جيش العراق ، على أن يقود النصف الباقى المثنى بن حارثة . وأصر خالد على أن يصطحب كل الصحابة الذين كانوا فى الجيش . وأبى المثنى إلا تنفيذ أمر أبى بكر بقسمة قوى الجيش مناصفةً وباستصحاب نصف الصحابة قائلاً : « وكيف تعرينى منهم ووالله ما أرجو النصر إلا بهم » فأرضاه خالد . وأعاضه من الصحابة أبطالاً مجربين . وبالصحابة انعقد لواء النصر فى اليرموك . وكان يوم اليرموك فى فاتحة القرن إيذاناً بفتح الأندلس غرباً . فى خاتمته . وبهم كان يوم القادسية فى فاتحة القرن إيذاناً ببلوغ المسلمين حدود الصين شرقاً . قبل منتهاه . فكل مأثرة تبعها الناس من أيام الحقبة العظيمة ورجالها أدت ، وسوف تؤدى ؛ إلى التقدم الحضارى الذى صنعه الإسلام . فالاتباع فى ذاته فضيلة والدفاع عنه حرص على فضيلة .

ويزداد الاتباع والتزامه وجوباً فى مدينة الرسول. لأنه اتباع لأمور وقعت فيها . ولها بها قصب السبق . وعليها واجب إذاعتها . وفى التزام منهج الرسول وصحبه منجاة من المجازفة ، بالتزام العلامات المميزة . وأمان من الفرقة والاختلاف . فذلك هو الأمر الأول . من جانبه خرج عن الجادة وتعرض للضلال . وكما يقول مالك : السنّة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق .

والطاعة والاتباع صنوان وهما الدرس الأول فى بيعة المسلمين لرسولهم وللخلفاء الراشدين وفى إنفاذ أمره وأوامرهم [١] .

---

(١) كانت إمرة الجيش لعمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل إذ كانت أمه من أهل تلك البقاع ومن السهل عليه أن يتألفهم فلما بعث يستمد النبى أمده بأبى عبيدة بن الجراح فى المهاجرين الأولين وفيهم أبو بكر وعمر وقال عليه السلام لأبى عبيدة : لا تختلفا .

فلما وصل المدد قال له عمرو إنما جئت مدداً لى — فأنا على قيادة الجيش . وكان أبو عبيدة أمين الأمة ، كما سماه الرسول ، وكان من السابقين إلى الإسلام وإلى الهجرة فله الصدارة ، لكنه كان ليناً ، هيناً عليه أمر الدنيا . فأجاب عمراً : لقد قال رسول الله لا تختلفا — وإنك إن عصيتنى أطعتك . فصلى عمرو بالناس وهو الحديث العهد بالإسلام وفى الناس أبو عبيدة ، وأبو بكر وعمر . . وعلى هذا الأساس وبمثل هذه الدروس أطاع الصحابة الخلفاء وإن جادلوهم .

والعرب من ناحية أخرى -- أمة من الحفظة ، لا تكتب إلا ما ندر ، استودعت صدورها الكتاب والسنة والآثار ، فى دقة مقطوعة القرين . ومن ثم عظم شأن الاتباع ووجبت صيانته حتى لا تتناوشه آثار أخرى لحضارات شتى ، متباينة العقائد والشرائع . دخل بها أصحابها فى دين جديد ، مقوم لاعوجاجهم . وحق الخوف عليهم من أنفسهم إذا صلحت نواياهم . ولزم الحذر منهم إذا فسدت حتى لا يفسدوا الناس بابتداع غير مأمون العواقب . وكذلك أقبل أصحاب الرأى على الاجتهاد إقبال الحذر . معتمدين على روح المدينة أى الخلاصة الفكرية والروحية التى يتداولها فقهاؤها . صاعدين جيلاً بعد جيل إلى الرسول فى عباداتهم ومعاملاتهم . وأحق العلماء بالحرص والحذر من وعت صدورهم كنوز السنّة من أوعيتها الأصيلة فى صدور الصحابة وتابعيهم وقد كانوا كثرة بالمدينة .

فتلك كانت وظيفة حلقة مالك بن أنس « عالم المدينة » يعلن مسئوليته ومسئولية حلقته فيقول :

« انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة كذا فى كذا ألفاً من الصحابة مات منهم بالمدينة نحو عشرة آلاف وباقيهم تفرق بالبلدان . فأيهم أحرى أن يتبع ويؤخذ بقولهم ؟ من مات عندهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين ذكرت أو من مات عندهم واحد أو اثنان من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ؟» أو يقول : « إن الرسول صلى الله عليه وسلم قفل من غزوة حنين فى اثنى عشر ألفاً مات منهم بالمدينة نحو عشرة آلاف وتفرق ألفان فى سائر البلدان».

وإذا كان هذا بيان مالك لعلماء البلدان الأخرى فهو أول الملتزمين بما فى حجته من تبعات نحو الله والناس ، يفرضها عليه وجوده فى المكان الأفضل : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

ولقد أنجح مالكاً فى الدفاع عن السنة ظرف الزمان وظرف المكان وأمر ثالث ، كأنه بعد ثالث : نعنى به أنفس الناس .

فأما ظرف الزمان فأتاح له أمرين لم يتاحا لمثله حتى لمحمد بن إدريس

الشافعى رضى الله عنه ، وكان أنجب تلاميذه ، وذروة المنهج العلمى فى مدرسته . أو لأحمد بن حنبل . وكان تلميذاً للشافعى ومالك ، وإماماً فى الفقه وفى العمل . مثلهما .

وأول الأمرين ما رزق الله مالكاً من تطاول عمره على امتداد القرن الثانى للهجرة : قرن العباقرة . مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل والخوارزمى والكندى وجابر بن حيان . منه ثلاثون عاماً ، بتمامها ، تفرد فيها مالك بإمامة الأمة . ومنه سبعون عاماً ، أو تقل شيئاً ، تفرد فيها بزعامة الفقه بالمدينة والأصقاع كلها تتبعها . إلا قلة فى بقعة أو أخرى ، فللمدينة زعامة السنن فى كل بلاد الإسلام .

يقول أبو الحسن الدارقطنى: «لا أعلم رجلاً تقدم أو تأخر اجتمع له ما اجتمع لمالك وذلك أنه روى عنه رجلان حديثاً واحداً بين وفاتيهما نحو مائة وثلاثين سنة . محمد بن شهاب الزهرى مات سنة ١٢٤ وأبو حذافة السهمى توفى سنة ٢٥٠ رويا عنه حديث الفريعة بنت مالك فى سكنى المعتدة» ويقول جعفر الغريانى : «لا أعلم أحداً روى عنه الأئمة الجلة ممن مات قبله بدهر طويل إلا مالكاً . فيحيى بن سعيد مات قبله بخمس وثلاثين سنة وابن جريج بثلاثين والأوزاعى بعشرين والثورى بثمان عشرة ، وشعبة بسبع عشرة » وأضاف غيره : وأبو حنيفة بثلاثين وهشام بأكثر من ذلك .

أما جمهور الأمة فيقول مقال بقية بن الوليد (١٩٧) : « ما بقى على ظهرها — يعنى الأرض — أعلم بسنة ماضية ولا باقية منك يا مالك » .

والأمر الثانى : أن السنين التى راحت تتزاحف نحو التسعين من عمر مالك كانت امتداداً لقرن سابق . كله السنة أو تطبيقها الدقيق . فمالك لم يجئ على فترة أو انقطاع من العلماء . وإنما ركب الموجة وكأنه يحرس أمواهها . فتسلم النجاح العظيم ممن سبقوه ليسلمه إلى من بعده . ولم يكن قد مضى عشر سنوات على توقف ينبوع زكى من ينابيع التيار المقدس ، عمر بن عبد العزيز ،

وقد توّج عمله وعلمه علم الفقهاء السبعة ، وعملهم . إذ أثبت نجاح جهودهم وتأثيرهم فى القرن الأول الذى نقلوا آثاره إلى الوجود كله .

وأما ظرف المكان فموافق تماماً لظرف الزمان . أن كان هو المكان الذى صُنع فيه الصنيع العظيم نفسه ، دون أن تطرأ عليه من طوارئ الحدثان إلا نوادر فى العدد والقيمة والأثر . فكان خليقاً أن ينقل الشىء نفسه من الرجال أنفسهم ومن أبنائهم ومواليهم : من أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وزيد بن ثابت ، وأبى هريرة وآل مسعود من أبنائهم الفعليين ، أو الفكريين كمدرسة عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما ، أو من الأصهار والآل ممن ذكرنا ومن لم نذكر . وحسبنا القليل الذى سلف دلالة على أن المدينة وأبناءها العظماء كانت كل سنده ، وما أعظمه من سند . وأن عرفها وفقهها كان كل فقهه ، محققاً للمصالح الشرعية للأمة . منقولاً فيها بطريق التواتر العلمى والعملى . . فلم تذهب سدى الأصوات التى انطلقت فى آفاق الوجود من فم الرسول الكريم ، وأفواه أصحابه فى العهد العظيم ، بل بقيت موجاتها فى الهواء ، تشحن الأجواء ، وتملأ الدنيا طنيناً فى انتظار من يتلقاها من العلماء . وكان التقاط هذه الفيوض الفكرية فرصة تدخرها السماء لمالك ، فتتناهى إليه كل موجات المدينة . ليحدث بسلسلة الذهب (مالك عن نافع عن ابن عمر) أو بغيرها مثل : مالك عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر ، أو عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة . أو عن هشام بن عروة عن أبيه — الزبير — أو عن عائشة . وعلى هذا الطراز الرفيع من المصادر تداولت المدينة السنة متواترة عن أجيالها المتتابعة ، وإنما هى تتداول تاريخها المجيد — وتقلب صفحاته البيض ، على وجه الاستمرار .

لقد شهد مالك فى حياته مؤذناً ظل يؤذن ثمانين عاماً بتمامها فى مسجد الرسول ذاته .

وهكذا صاحب الزمان والمكان — ما يسمى بالبعد الثالث فى أنفس الناس وهو الصِّلات الخاصة . أنْ كان أهل المدينة أهل الرسول وأصحابه المهاجرين معه

وأنصاره ومواليهم والمجاورين لمسجده عليه السلام وقبره . والعائذين بدار الهجرة ، الذين دفعوا، ودفع آباؤهم ، الثمن الغالى من أجل المدينة من عهد على والحسين ، إلى يوم الحرّة ، وأيام الحجاج وأيام هشام بن إسماعيل إلى أيام زيد بن على وأبى حمزة الخارجى ، فى دولة بنى أمية ، إلى أيام محمد بن الحسن وأخيه إبراهيم وغيرهم ، فى دولة بنى العباس على مدار قرن كامل على الأقل . لا تكاد تمضى سنوات حتى تذكرهم مذبحة عام بمذبحة عام . وهم لا يستسلمون ولا يتزحزحون عن مراكزهم التى تبؤوها بعملهم الصالح وعمل آبائهم . وأول مراكزهم أنهم . . أهل المدينة . التى كانت إليها الهجرة . وبها اعتز الإسلام بعد اضطهاده ، ومنها تنتشر سنن الرسول . . . على أيديهم .

وفى مدينتهم هذه يقول النبى الكريم : « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » والصلاة فى مسجدها خير من ألف صلاة إلا صلاة المسجد الحرام . دعا النبى لها بمثل ما دعا إبراهيم لمكة . وقال إنها تنفى خبثها وينصع طيبها . وقال : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها . وبارك لنا فى صاعها ومدها » . وقال : « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى شفيع لمن مات بها» .

الباب الثالث

عالم المدينة

« يوشك أن يضرب الناس أكباد »
« الإبل فلا يجدون عالماً »
« أعلم من عالم المدينة »
(حديث شريف)

حمل مالك وصف « عالم المدينة » عن جدارة ، بحلقته وطريقته ، واتساع مدى عمره ، وأثره . وبمنهاجه الذى تبلورت فيه طرائق سابقيه ، ووقوفه كالجبل العالى الذى يزحم الأفق فى وجه المشككين أو المتشككين . مدافعاً عن تراثها الفكرى من اليسر والسماحة والاقتدار على التقدم الحضارى . مع الحرص على السنن ، وبالاجتهاد ، مع الابتعاد عن الأغاليط والمستحدثات الخطرة . وبانتقال فكره على أيدى تلاميذه إلى القارات الثلاث المعروفة فى عصره

وفى الفصلين التاليين محاولة لتصوير حلقة مالك . بألوان مركزة وإشارات مختصرة من تراث المدينة .

الفصل الأول

الأستاذ

« يوشك أن يضرب الناس أكباد »
« الإبل فلا يجدون عالماً »
« أعلم من عالم المدينة »
(حديث شريف)

كان مالك بن أنس طويلاً جسيماً ، عظيم الهامة ، جيد البدن ، وعندما يصير أبيض الرأس ، واللحية ، سيكون أصلع عظيم اللحية وتكون ذات سعة وطول ، أبيض شديد البياض إلى الشقرة . وصفه أبو حنيفة بأنه أشقر أزرق . وكان أعينَ حسن الصورة ، يأخذ أطراف شاربه ولا يحلقه ولا يحفيه بل يرى حلقه من المثلة . ويترك له سبلتين طويلتين ويحتج بفتل عمر شاربه إذا أهمه أمر . حتى شاربه يتمثل فيه بعمر . دخل عليه رجل حلق رأسه وشاربه فقال له : يا هذا ؟ لو أخذك الشيطان ونكل بك ما بلغ فى عقوبتك أكثر مما فعلت بنفسك ! ورآه يحيى بن سعيد القطان إذ وفد عليه من العراق سنة ١٤٤ ، أسود الرأس واللحية ، وهو فى الخمسين . وكان فى بعض عهده يفرق شعر رأسه . ولما شاب ولم يستعمل الخضاب ، بعث إليه بعض أمراء المدينة يقول : لم لا تصبغ يا أبا عبد الله . فكبت الأمير بقوله لرسوله : قل لصاحبك : ما بقى عليك من العدل إلا أن أصبغ ؟ ويحتج فى ذلك بعلى .

وكان مالك يكره الاكتحال إلا لعلة ، ويتطيب بطيب جيد .

ويلبس قميصاً عدنيًا رقيقاً – وثياباً مدنية جياداً أو خراسانية أو مصرية مترفعة بيضاء ، وكان نقى الثوب لم ير فى ثوبه حبر قط . يقول : أحب للقارئ أن يكون أبيض الثياب . ويكره اختلاف اللبوس . وأحياناً يلبس قلنسوة متركة وطيلساناً وثياباً مروية جياداً . والثياب من آسيا وأفريقية . دخل عليه الراوى فقال : رأيت عليه طيلساناً يساوى خمسمائة . . . أشبه

بالملوك . وفى البيت وسائد أصحابه عليها قعود . قيل له : أشىء أحدثته أم وجدت الناس عليه ؟ قال : « رأيت الناس عليه » . وذلك من أثر النعمة والرغبة فى راحة جلاّسه ، يستوى فيها أضيافه وتلامذته .

يقول : « ما أحد أنعم الله عليه إلا أحب أن يرى أثر نعمته عليه وخصوصاً أهل العلم . ينبغى لهم أن يظهروا مروءاتهم فى ثيابهم إجلالاً للعلم » ويقول : « التواضع فى التقى لا فى اللباس . إنا كنا نتواضع فى التقى والدين لا فى اللباس» .

أما خاتمه فمن فضة — مات وهو فى يده ، فصه حجر أسود ، نقشه سطران : « حسبى الله ونعم الوكيل » بكتابة جميلة . يحبسه فى يساره ، فإذا توضأ حوّله إلى يمينه . وإذا سئل عن اختياره لهذا النقش قال سمعت رسول الله يقول : « حسبى الله ونعم الوكيل » .

ولم يكن يملك داراً . فكان يسكن بكراء داراً كتب على بابها (ما شاء الله) قال تعالى : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله) . والجنة هى الدار .

وسكن دار عبد الله بن مسعود رضى الله عنه سادس ستة أسلموا . وواحد ممن ينتهى إليهم علم الصحابة .

كان لايضحك . ولا يتكلم فيما لا يعنيه . وهو مع ذلك من أحسن الناس خلقاً مع أهله . فنى ذلك — كما قال — مرضاة لربك ، ومثراة فى مالك ، ومنسأة فى أجلك . وقال : وقد بلغنى ذلك عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان يقول : « إذا لم يكن للإنسان فى نفسه خير لم يكن للناس فيه خير» .

ولا يرى أحد الشيخ فى مباذله . فإذا أصبح لبس ثيابه وتعمم — فلا يراه أحد من أهله ولا أصدقائه إلا كذلك . وما أكل ولا شرب حيث يراه الناس . ولا يشترى بنفسه حوائجه من السوق بل يوصى العالم بقوله « ينبغى للعالم ألا يتولى شراء حوائجه من السوق بنفسه وإن كان يقع عليه فى ذلك نقص فى ماله فإن العامة لا يعرفون قدره » ويضيف إلى ما مضى من خلائق السادة : أن رفع الصوت ليس محمدة وبخاصة عندما يذكر حديث النبى فهو كهيئة رفع الصوت فوق صوت النبى . والله سبحانه يقول : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) .

وكان ضيق الأمر فى بداية العمر حتى باع سقف داره ليتعلم — ولما صلح حاله بعض الصلاح صار له فى اليوم درهمان من اللحم . لو لم يجد ثمنهما باع من متاعه ليشتريهما . ثم جعل الله له بعد العسر يسراً فأمسى يأمر خبازه (سلمة) أن يعمل له فى كل يوم جمعة طعاماً كثيراً له ولعياله . يبر تلاميذه ويبر نفسه . شرابه فى الصيف السكر وفى الشتاء العسل . ويؤثر الموز لأنه فاكهة دائمة كفاكهة الجنة .

* * *

وجلس يوم أذن له الشيوخ بالجلوس ، فليس كل من أحب أن يجلس فى المسجد للحديث والفتيا جلس — كما يؤثر قوله — حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل وأهل الجهة من المسجد . فإذا رأوه أهلاً لذلك جلس . قال : « ما جلست حتى شهد لى سبعون شيخاً من أهل العلم أنى موضع لذلك » .

سأل رجل مالكاً فى مسألة فبادره عبد الرحمن بن القاسم فأفتاه . وابن القاسم يجىء فى المقام الثانى من تلامذة مالك ، حيث المقام الأول للشافعى وحده — فأقبل مالك عليه كالمغضب وقال : جسرت على أن تفتى يا أبا عبد الرحمن !!! وكررها وقال : ما أفتيت حتى سألت هل أنا للفتوى موضع قيل له من سألت ؟ قال : الزهرى وربيعة .

وكان يقول إن كثرة الكلام لا توجد إلا فى النساء والضعفاء ويقول : كثرة الكلام تمج العالم وتنقصه وتذله . . ويقول : من علم أن قوله من عمله قل كلامه .

وإذا كان مجلس الفقيه قد لا يسلم من أن يعتوره سفيه — بنبوة فاذة أو كلمة شاذة فقد سلم مجلس مالك . قال ما جالست سفيهاً قط . وقيل له يوماً من حدثك بهذا ؟ قال إنا لم نجالس السفهاء .

وعلى هذا الأساس يقول : لا ينبغى أن تتكلم بشىء تستحى منه ، ولا تمش فى حاجة تستحى منها . ولقد سمعت ربيعة يقول : سأل رجل أبا بكر الصديق أن يمشى فى حاجة فلما سار قال للصديق : خذ بنا فى غير هذه الطريق . فإن

على طريقنا مجلس قوم أستحى منهم . فقال أبو بكر : تصحبنى فى أمروتستحى منه ! لا مشيت معك أبداً .

ومالك من أكثر الناس إنصافاً للناس يقول عن الإنصاف : « لم أجد فى الناس أقل منه فأردت المداومة عليه » .

ولما سئل النبى عليه السلام أى المسلمين خير قال : « من سلم الناس من يده ولسانه » .

ومالك يقول : « ينبغى للمرء ألا يتكلم إلا فيما أحاط به خبراً » . ويقول : « لايصلح أمر الرجل حتى يترك مالا يعنيه ويشتغل بما يعنيه فإذا كان كذلك أوشك أن يفتح الله تعالى قلبه له » . وهو من أشد الناس مداراة للناس يعمل بقوله عليه السلام : « رأس العقل بعد الإيمان مداراة الناس » وقوله : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

وسنرى مع الزمن ، أن ما نجمع للشيخ من كمال خلقى ، زادته السنون ثباتاً وتدريس السنة سمواً ، وأمسى طبيعة عنده . وغدت ذاته وصفاته موضوعاً يدرسه الطلاب بالمدينة . فيقيم التلميذ عاماً — بعدالفراغ من دراسة سنن الرسول — ليدرس سجايا أستاذه .

أما رزق مالك فسيجرى يسيراً من مرابحة الأربعمائة دينار وهدايا الأصدقاء ، كمثل أن يجيئه من الليث بن سعد مائة دينار فى العام .

وتبارى الناس فى مرضاته . تمنى يوماً كساء قرمزياً فجىء فى الغداة بسبعة أرسلت إليه ! وكتب إلى الليث يطلب عصفراً يصبغ به ثيابه فجاءه ما صبغ به ثيابه وثياب صبيانه ، وصبيان جيرانه ، وباع الفضل بألف دينار . وترك له ابن القاسم صرة مائة مثقال فوزعها على الناس . وجاءته هدية من خيل خراسان فأهداها إلى تلميذه محمد بن إدريس الشافعى .

وفى خواتيم الحياة أقبلت جوائز الخلفاء آلافاً من الدنانير .

* * *

ويقصد مالك راجلا إلى المسجد فهو لا يركب ويقول : إنى لأستحى من

الله أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة .

فإذا سئل فى الطريق عن الفقه قال : للفقه كرامة تمنع الجواب . مشى معه عبد الرحمن بن مهدى يوماً إلى « العقيق » فسأله عن حديث فنهره . وقال . كنت فى عينى أجل من أن نسأل عن حديث رسول الله ونحن نمشى .

فإذا جلس بالمسجد ، جلس بين القبر والمنبر فى الروضة الشريفة . قال عليه السلام : « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .

كانت مساحة المسجد عندما أنشأه الرسول مربعة الشكل يحيط بها جدران من الآجر والحجر ، وعلى جزء منها سقف من جريد النخيل . تغطيه طبقة من الطين ويستند إلى عدد من جذوع النخيل . فزاد فيه عمر بن الخطاب ، وجدده عثمان بن عفان . وكما يقول البلاذرى : ثم لم يحدث فيه شىء إلى أن ولى الوليد ابن عبد الملك بن مروان بعد أبيه . فكتب إلى عمر بن عبد العزيز وهو عامله على المدينة — يأمره بهدم المسجد وبنائه . وبعث إليه بمال وفسيفساء رخام وثمانين صانعاً من أهل الشام ومصر فبناه وزاد فيه . وصار مثالا يحتذى فى مساجد الإسلام .

هنالك يجلس الشيخ وكأن التاريخ رجع القهقرى قرناً وبعض قرن ليسبق الزمان كله — فهذا هو المكان الذى كان يوضع فيه فراش الرسول إذا اعتكف ... وهو مجلس عمر بن الخطاب — مجلساً كله وقار وحلم وهيبة . ليس فيه لغط ولا مراء ولا رفع صوت . والتلاميذ حافّون به ، سكرت أبصارهم ، يسأله السائل فيجيبه فلا يقول أحد من أين رأيت هذا . فهى حقيقة علمية ما دام نطق بها مالك . ولقد كان من زينة الدنيا أن يقول الرجل : حدثنا مالك . كما يقول بشر الحافى الذى لم ينشغل بالدنيا .

ولقد يأبى مالك الجواب فلا يراجعه أحد — هيبة له ، والسائلون نواكس الأذقان .

وكان الغرباء يسألونه عن الحديث والحديثين فيجيبهم الفئة بعد الفئة . وربما

أذن بعضهم فقرأ عليه . وكان لا يوسع لأحد فى حلقته ولا يرفعه . يدعه يجلس حيث ينتهى به المجلس .

فإذا كان المجلس بداره . فربما خرجت الجارية تقول للناس : يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أو المسائل ؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم فأفتاهم . وإن قالوا : الحديث ، دخل مغتسله فاغتسل وتطيب وسرح لحيته ولبس ثياباً جدداً وتعمم ووضع على رأسه لباس رأس طويلا . وصلى ركعتين . ثم خرج إليهم وعليه الخشوع . وتلقى له المنصة ويشيع فى أجواء المجلس طيب عرف العود . فلا يزال يتبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله تعظيماً لحديثه صلى الله عليه وسلم . والتلاميذ سكوت . لا يكلم هذا هذا – ولا يلتفت ذا إلى ذا ، والطلاب بالباب يقتتلون من الزحام ومعن بن عيسى جالس على العتبة ، لا ينطق مالك بشىء إلا كتبه .

وهو يضع الكلمة الصالحة موضع الدواء – وبمقداره ، كثير الصمت قليل الكلام يقول : من أكثر الكلام ومراجعة الناس ذهب بهاؤه . وهى سنة أبى بكر ، إذ يقول لقائده : إذا وعظتهم فأوجز . ويقول : إن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . والنبى عليه السلام كلامه فصل – لا نذر ولا هذر .. أثنى رجل على آخر ومالك ساكت ، فقيل له لماذا لا تتكلم ؟ قال : متعت بك كان يقال : نعم الرجل فلان لولا أنه يتكلم كلام سنة فى يوم .

وهو كالسلطان له آذن . وله حجاب سود . يقيمون من يأمر بإقامتهم . والتلاميذ يضاغط بعضهم بعضاً على الباب فينادى مناديه ليدخل أهل الحجاز فما يدخل إلا هم . ثم ينادى فى أهل الشام ثم فى أهل العراق . فإذا فرغ من يحضر أذن للعاملة فانقصفوا عليه .

وهو إذ يجلس للحديث لا يحدث الواقفين : سأله قاض وهو واقف عن حديث فأمر به فحبس :. قيل له إنه قاض . قال : القاضى أحق من أدب ، وسأله هشام بن القارى وهو واقف . فأمر به فضرب عشرين سوطاً . ثم أشفق عليه فحدثه عشرين حديثاً . قال هشام : وددت لو زادنى سياطاً ويزيدنى

حديثاً ... وصارت طريقة الشيخ نظاماً للرواد يلتزمونه فيؤثرون الشكل الذى يريده على الموضوع ، الذى يريدونه . أتاه أبوحازم وهو يحدث فجاوزه قائلاً إنى لم أجد مجلساً أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله وأنا قائم .

* * *

وليس من مصلحة التلاميذ كثرة القراءة فى المجلس الواحد . ولذلك يقرأ لهم كاتبه « حبيب » كل عشية من ورقتين إلى ورقتين ونصف لا تبلغ ثلاثاً ، وليس من منهج الأستاذ كثرة الجدل فى المجلس . وإنما يخبر بالسنة لتقبل منه دون جدل قيل له : الرجل عالم بالسنة أيجادل عنها ؟ قال لا . ولكن ليخبر بالسنة فإن قبلت منه وإلا سكت .

وليس من المنهج كذلك كثرة المسائل . ولما سئل مالك عن حديث قيل وقال وكثرة السؤال قال : أما كثرة السؤال فلا أدرى أهو ما أنتم فيه مما أنهاكم عنه من كثرة المسائل ؛ فقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وقال تعالى : (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)، فلا أدرى أهو هذا أم السؤال فى الاستعطاء .

قال أنس : « نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شىء . فكان يعجبنا أن يجىء الرجل من أهل البادية . العاقل . فيسأله ونحن نسمع » .

يقول أسد بن الفرات وقد قدم على مالك من بعيد : وكان ابن القاسم وغيره من أصحابه يجعلوننى أسأله عن المسألة فلو أجاب يقولون : قل له فلو كان كذا فأقول له . فضاق على يوماً فقال لى : هذه سلسلة بنت سليسلة إن أردت هذا فعليك بالعراق . ولقد يقول له حسبك يا مغربى . فى حين يرضى مالكاً يسر يحيى ابن يحيى وتأتى الكلام له . قال قائل فى الحلقة إن فيلا يمشى فى الخارج فتعالوا ننظره فانفض التلاميذ إلا يحيى فسأله مالك . لم لم تخرج لتنظر الفيل وهو ليس فى بلادك ؟ قال لم أرحل لأبصر الفيل وإنما رحلت لمشاهدتك وأتعلم من علمك وهديك ؟ فأعجبه ذلك .

وإنما كره الشيخ طريقة العراقيين لإيغالهم فى المسائل وكثرة تفريعهم فى الرأى.

ولربما كانت المغالاة فى الفروض مغالاة فى الخيال ، أو فى الخبال ، فيلقاها مالك بالأدب الذى يليق بأهل السنة .

سأل عراقى مالكاً عن رجل وطئ دجاجة ! فخرجت منها بيضة ! فأفقست البيضة عنده عن فرخ ! أيأكله ؟

فقال مالك : سل عما يكون ودع ما لا يكون .

وسأله آخر عن أغاليط كهذه فلم يجبه . قال : لم لا تجيب يا أبا عبد الله ؟ قال : لو كنت تسأل عما ينفع أجبتك .

ومن قبل ذلك ناقش ربيعة أستاذ مالك سعيد بن المسيب أستاذ المدينة محتجاً بالقياس فقال له : أعراقى أنت؟ وسألت عائشة امرأة عن قضاء الحائض الصوم دون الصلاة فقالت لها « أحرورية أنت » ؟ نسبة إلى حروراء بالعراق ، حيث تجمع الخوارج .

وإذا لم يكن يجيب إلا فيما ينفع فهو لا يجيب إلا من ينتفع . وإذا تحداه السائل فالويل له ؛ سأل سائل فلم يجبه . فسأل سؤالا آخر فلم يجبه . فتساءل ولم ؟ فأمر مالك به إلى السجن . قال : إنى قاضى أمير المؤمنين . قال مالك : ذلك أهون لك . قال القاضى : إنى لا أعود . . . فأمر مالك غلامه بإخلاء سبيل قاضى أمير المؤمنين .

وكان شرار الناس فى المدينة يتكاثرون بالمسائل تكاثر أهل الدراهم بالدراهم . ولقد توقع عمر هذا السرف الفكرى فحرج على كل امرئ سأل عن شىء لم يكن . فإن الله بين ما هو كائن . وابن عمر يقول : « لا تسألوا عما لم يكن فإنى سمعت عمر يلعن من سأل عما لم يكن » .

ولقد سئل عمار بن ياسر عن مسألة فقال : هل كان هذا بعد ؟ قالوا : لا . قال : فدعونا حتى يكون ؛ فإذا كان تجشمنا لكم .

وفى الحديث أن الرسول عليه السلام نهى عن الأغلوطات وهى التى عناها معاوية ، حين قال : « أما تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن عضل المسائل » ؟

ويدخل على مالك عبد الله بن المبارك (١٨١) وصحبه فيقولون : حدثنا ولا تحدثنا إلا بحديث الزهرى . فلا يحدث ولا يناقش . وإنما يأمر بهم كلهم أن يؤخذ بأيديهم ويقاموا عنه . فيقومون ! وفى الغداة يعودون معتذرين فيعتبهم — ويحدثهم بحديث الزهرى .

وسيمسى عبد الله ، بعد إذ أحسن التلقى على الشيخ ، أقرب الناس إلى قلبه . يتزحزح له فى مجلسه ثم يقعده بلصقه . قال يحيى بن يحيى : ولم أره يتزحزح لأحد فى مجلسه غيره . وابن المبارك تلميذ سابق لأبى حنيفة . فيه قول عبد الرحمن بن مهدى زعيم المحدثين بالعراق . وهو الخصم الألد لأبى حنيفة : الأئمة أربعة : الثورى ، وحماد بن زيد ، وابن المبارك ، ومالك . وفيه قول سفيان بن عيينة زعيم المحدثين بمكة : نظرت فى أمر الصحابة فما رأيت لهم فضلا على ابن المبارك إلا بصحبتهم وغزوهم مع النبى صلى الله عليه وسلم .

والذى يصنعه مالك مع إمام المشرق يصنعه مع إمام الشام بقية بن الوليد يسأله عن ست مسائل فيجيبه . فيسأله السابعة فيرد مالك : أكثرت. ثم ينادى فيأخذ رجلان بضبعيه ويخرجانه .

روى الطبرى : سمعت إسماعيل الفزارى يقول : دخلت على مالك بن أنس وسألته أن يحدثنى فحدثنى اثنى عشر حديثاً ثم أمسك . فقلت له زدنى أكرمك الله . وكان له سودان قيام على رأسه فأمرهم . فأخرجونى من داره .

ولو لم يصنع ذلك . والمتفقهون مئات ، ولهم إصرار ، لما وجد الشيخ نفسه . كانت حلقة الأتباع . والأئمة أولى بالاستجابة لأوامر إمامهم ، ليتبعهم الناس . فذلك درس للأئمة والناس .

فإذا صنع أحد فى المسجد ما لم يصنع السلف الصالح . كان مالك ضده ، بالفقه وبالقوة . نبهه الناس على رجل يضع رداءه بين يديه فى الصف . فأمر اثنين من الحراس بحبسه فحبس . وإذا المحبوس عبد الرحمن بن مهدى قدم المدينة ، ودخل المسجد فصنع ما لا يصنعونه . فقال له مالك : أما خفت الله واتقيته أن وضعت ثوبك بين يديك فى الصف وشغلت المصلين بالنظر إليه .

وأحدثت فى مسجدنا شيئاً ما كنا نعرفه . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أحدث فى مسجدنا شيئاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ؟

فبكى ابن مهدى جزعاً .

وهذه الحادثة الصغيرة . تجمع خصائص الصورة ، من الاتباع الكامل . حتى للماديات . . . ومن اقتناع مالك بأن المحافظة على عمل أهل المدينة فيها المحافظة على السنة . وإن فى هذا الميدان عمله وإنه خلق له .

* * *

وللشيخ هيبة تظهر فى لقاءات سلاطين الأرض وعلمائها . يقول الشافعى — الذى لا يهاب — : « ما هبت أحداً قط هيبتى من مالك بن أنس.. » فحفظ الموطأ قبل أن يرحل إلى المدينة ليجلس إليه ، وختم القرآن ست عشرة مرة فى طريقه بين مكة والمدينة . مستعيناً بالله . واستوصى والى مكة إلى والى المدينة ليقدمه الواليان إلى مالك ! وسعى الوالى إلى باب مالك ، قالت الجارية له إن للدرس يوماً . فتوسل بأن معه خطاباً من والى مكة فى أمر مهم ! ومالك يلقاه فيلقى الخطاب ويقول : صار العلم يطلب بالوسائل ! . . . فلما جلس إليه الشافعى ارتاح الشيخ لتلاوته وقربه ، وعلمه ، عشر سنين ، قدمت لنا العقل العلمى الذى لا نظير له : أنجب التلاميذ فى مدرسة مالك .

ولما سأل أبو يوسف (٩٥ — ١٨٣) إمام المدينة فى حضرة الرشيد فلم يجبه . قال الرشيد أجبه . وكان أمراً من أمير المؤمنين تجب له الطاعة . قال مالك — لعدل الرشيد — الذى كان يحج معه عدلا له على بعير —: « إذا رأيتنا جلسنا لأهل الباطل فتعال حتى أجيبك » . أو قال : « ها هنا من تلاميذنا من يبلغ حاجة أمير المؤمنين » . وتختلف الأقوال فى سؤال أبى يوسف لمالك . وأبو يوسف أستاذ مدرسة فى العراق برعت فى المناقشات والافتراضات ، وهو قاضى القضاة . فكان طبيعياً أن يحاول ليظفر فى ظلال الرشيد بمظهر الغلبة . فى فرصة أتيحت له . إذ رضى أن يجادله .

سأل أبو يوسف عن مُحرم كَسَرَ ثنيةَ ظبي . ما حكمها ؟

قال مالك : عليه الفدية .

وضحك أبو يوسف وقال : وهل للظبي ثنية !

ولعل السؤال قديم توارثه أبو يوسف من حلقة أستاذه أبي حنيفة عن سؤال وجهه إليه جعفر الصادق أستاذ مالك ! قالوا سأل جعفر أبا حنيفة ما تقول فى محرم كسر ثنية ظبي ؟ قال إمام أهل الرأى : يا ابن رسول الله ما أعلم ما فيه . أنت تتداهى ! أوَلا تعلم أن الظبي ثنيّ أبداً[1] ؟

وعظم أدب الإمام الأعظم فى حضرة إمام أهل البيت !

ولم يك مالك مزّاحاً ، ولا كان يقبل المزاح أمامه . بل كان قليل الضحك . ويتغالى الرواة فيقولون إن مالكاً فى خمسين سنة لم يضحك إلا مرة أو مرتين أو نحو ذلك . وكان ضد القهقهة ، فهى ليست من جلال السلوك يقول : من أدب العالم ألا يضحك إلا تبسماً .

ويقول : ينبغى لأهل العلم أن يخلوا أنفسهم من المزاح وخصوصاً إذا ذكر العلم . فما بالك بالشيخ إذا جعله أبو يوسف موضع المزحة ! لقد خرج مالك عن حلمه إلى الحدة — فتوجه إلى الرشيد يسائله : يا أمير المؤمنين . سفيه يسأل عن مسائل السفهاء . كيف توليه أمور المسلمين ! وفى رواية أخرى ، إن أبا يوسف سأل مالكاً ، فامتنع عن جواب سؤاله فاستعدى عليه الرشيد قائلا : يا أمير المؤمنين ؛ قل له يجيبنى . قال مالك : ساء ما أدبك به أهلك ؟ !

يقول ذلك صاحب الموطأ وهو الذى يروى هنالك :

« مالك عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن رجلا سأل رسول الله : يا رسول الله علمنى كلمات أعيش بهن . ولا تكثر علىّ فأنسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تغضب" » ويروى هنالك أيضاً عن أبى هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال : «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » .

---

(١) الثنى الذى يلقى ثنيته . وهى أسنان مقدم الفم . ثنيتان من فوق وثنيتان من أسفل .

كان قد تخطى الثمانين ، مستقراً فى أوْجه من عشرات السنين . فأين كان منه القضاة وقضاة القضاة . ولو كانوا فى مجلس الرشيد .

ولقد كان المجلس عندما يجلس فيه مالك ، هو مجلس مالك .

مع هذا فأبو يوسف قد درس الموطأ لمالك . من بعيد . عن طريق واحد من حفاظه ليقرّب مع محمد بن الحسن طريقة مدرسة العراق إلى طريقة مدرسة المدينة .

فأبو يوسف الذى لا يهاب الرشيد . يصطنع الدهاء لجدال مالك ، أويستعين عليه بالخليفة . ومالك لا يهاب الخليفة . بل كان الخلفاء له أهيب . والناس أهيب له منهم للخلفاء . قال سعيد بن هند الأندلسى ما هبت أحداً هيبتى عبد الرحمن بن معاوية [1] . فدخلت على مالك فهبته هيبة شديدة صغرت معها هيبة عبد الرحمن .

لقد تقدمت بالشيخ السنون . وكأن الناس من طول عمره وجلال قدره لم يروه إلا شيخاً . فلقد صار جداً لأكثر من جيل من الفقهاء الفحول . وهو فى عنفوان عافيته .

* * *

ولقد يجيئه الرجل بعد ستة أشهر مشاها . فيسأله عن مسألة فيقول له مالك : « أخبر الذى أرسلك أنه لا علم لى بها » فيقول الرجل من أهل المغرب : ومن يعلمها؟ ويقول مالك : « من عامه الله» أو يقول : «ما سمعنا بهذه المسائل فى بلدنا . ولا سمعنا أحداً من أشياخنا تكلم فيها . . . » فيقول الرجل يا أبا عبد الله ، تركت خلفى من يقول ليس على وجه الأرض أعلم منك . فيقول مالك غير مستوحش : « إذا رجعت فأخبرهم أنى لا أحسن » .

وربما وردت عليه المسألة فيفكر فيها ليالى . وربما وردت عليه خمسون

---

(١) (ابن هشام بن عبد الملك بن مروان) وهو عبد الرحمن الداخل الذى فر من مذابح السفاح فى غض الإهاب لينشئ أعظم دولة للإسلام فى أوربا . وأعظم دولة أوربية فى القرون الوسطى . نقلت عنها أوربا علوم الإسلام التى بدأ بها عهد النهضة طريقه إلى العصور الحديثة .

مسألة فلا يجيب منها فى واحدة .

ويحكى الشيخ عن حاله : ربما وردت على المسألة تمنعنى من الطعام والشراب والنوم . قيل له : يا أبا عبد الله . والله ما كلامك عند الناس إلا نقر فى حجر . ما تقول شيئاً إلا تلقوه منك . فيقول فمن أحق أن يكون هكذا إلا من كان هكذا . . .

ويتردد مالك ويفكر فى الفقه أو يبكى وهو يذكر اليوم الآخر فيقول : «إنى أخاف أن يكون لى من المسائل يوم وأى يوم » . وذات يوم ألح عليه السائل فى الجواب فقال : ويحك تريد أن تجعلنى حجة بينك وبين الله . فأحتاج أنا أولا أن أنظر كيف خلاصى ثم أخلصك .

وإلى جوار خوف الله كان الخوف على الفقه ذاته . سأل رجل سالم بن عبد الله بن عمر فى شىء فقال : لم أسمع فيه شيئاً . ولما ألح قال سالم: «لعلى إن أخبرتك برأيى ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأياً غيره فلا أجدك » وسيتعلم هذا الدرس مالك . فنى يوم قال للسائل : يرجع أهل الشام إلى شامهم وأهل العراق إلى عراقهم . وأهل مصر إلى مصرهم . ثم لعلى أرجع عما أفتيهم به ولما روى السائل هذه الواقعة لإمام مصر الليث بن سعد بكى وقال : « مالك والله أقوى من الليث » .

وإنما أراد إمام مصر أن يشيد بتحرى إمام المدينة ، وتثبته ، وإيثاره الريث على العجلة .

سأل بشر بن عمر مالكاً عن رجل . فقال : « هل رأيته فى كتبى ؟ قال لا . قال لو كان ثقة لرأيته فى كتبى » .

وذاعت لمالك مقولات عظيمة فى التثبت مثل : « إذا عرض لك أمر فاتئد وعاير على نظرك بنظر غيرك ، فإن العيار يذهب عيب الرأى كما تذهب النار عيب الذهب» ومثل « العلم نور لا يأنس إلا بقلب خاشع » ومثل : « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » . وما أراد إلا إلزام العلماء أن يكونوا قدوة بما يقولونه وما ينقلونه . لهذا وكثير غيره سئل ابن حنبل : الرجل يحب أن يحفظ

حديث رجل بعينه فحديث من يحفظ ؟ قال : يحفظ حديث مالك . قيل فالرأى ؟ قال : رأى مالك . والشافعي هو القائل: « ما فى الأرض كتاب من العلم أكثر صواباً من موطأ مالك » .

وتناقل المتفقهة ، للقدوة والأسوة ، ورع مالك فى الفتيا . فهو يسأل عن ثمان وأربعين مسألة فيقول فى اثنتين وثلاثين منها « لا أدرى » ويسأل من العراق عن أربعين مسألة فلا يجيب منها إلا فى خمس . ويروى مالك عن أستاذه ابن هرمز قوله : ينبغى للعالم أن يورث جلساءه قول « لا أدرى » حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم يفزعون إليه . وكان ابن هرمز يقول فى أكثر ما يسأل عنه لا أدرى ويقول مالك لمن راجعوه فى « لا أدرى » — « وإيش منزلتى حتى أدرى ما لا تدرون . . . هذا ابن عمر يقول لا أدرى فمن أنا . وإنما أهلك الناس العجب وطلب الرياسة » .

ولقد طالما قال مالك : « إذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه » .

ورووا عن ابن عباس ما يرويه مالك عن ابن عجلان : إذا أخطأ العالم لا أدرى أصيبت مقاصله . وظاهر ذلك أن أستاذى الحجاز معاً ابن عباس وابن عمر كانا صاحبى هذه الطريقة ، تبعهما فيها القاسم بن محمد بن أبى بكر فى منى والمسلمون يسألون فيقول : لا أدرى ، لا أعلم — فلما أكثروا عليه قال : والله لا نعلم ما تسألوننا عنه ، لو علمنا ما كتمناكم. قال أبو الزناد : ما كان يجيب إلا فى الشىء الظاهر . وابن عباس وابن عمر والقاسم يمثلون فقه بنى هاشم . وبنى عمر وأبى بكر وعائشة رضى الله عنهم[1] .

---

(١) ترك الأمور لذويها والتوقف فيها عند اللزوم ، درس قديم ألقاه أستاذ الاجهاد عمر ابن الخطاب حين لم يدر وجه الصواب . فاتخذ الحياد موقفاً له . قدم الشام على حمار فتلقاه معاوية فى موكب ضخم . فأعرض عنه فجعل معاوية يمشى إلى جنبه راجلا قال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ! فأقبل عليه عمر وقال : يا معاوية ؛ أنت صاحب الموكب مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين قال: ولم ذلك؟ قال لأنى فى بلاد لا تمنع من الجواسيس . ولا بد لهم ما يردعهم من هيبة السلطان . فإن أمرتنى بذلك أقمت عليه وإن نهيتنى عنه انتهيت . قال عمر : إن كان الذى قلت حقاً فإنه رأى أديب . وإن كان باطلا فإنها خدعة أريب . لا آمرك ولا أنهاك .

سمع ابن القاسم مالكاً يقول : إنى لأفكر فى مسألة من بضع عشرة سنة ما اتفق لى فيها رأى إلى الآن . وكان يقول ربما وردت على المسألة فأسهر فيها عامة ليلى . ويروى عنه ابن وهب أنه عندما يكثر عليه السؤال يكف عن الجواب ويقول : حسبكم . من أكثر أخطأ .

وكلما ازداد الشيخ علواً زاده الله تواضعاً وورعاً .

يقول : « من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل أن يجيب على الجنة والنار فلينظر كيف يكون خلاص الآخرة ثم يجيب » . فإذا جلس نكس رأسه وحرك شفتيه بذكر الله . ولم يلتفت يميناً ولا شمالا . وقد يسأل عن مسألة فيتغير لونه . وكان أحمر فيصفر . وينكس رأسه ويحرك شفتيه ويقول : ما شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال إسماعيل بن أويس : كان خالى لا يفتى حتى يقول : لاحول ولا قوة إلا بالله .

قالوا لم يفت فتوى إلا تلا هذه الآية : (إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين) .

ويقول : ما شىء أشد علىّ من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام . لأن هذا هو القطع فى حكم الله . ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا إذا سئل أحدهم عن مسألة كأن الموت أشرف عليه . ورأيت أهل زماننا هذا يشتهون الكلام والفتيا . ولو وقفوا على ما يصيرون إليه غداً لقللوا من هذا . وإن عمر ابن الخطاب وعلياً وعامة خيار الصحابة كانت ترد عليهم المسائل ويسألون ثم حينئذ يفتون فيها . وأهل زماننا هذا قد صار فخرهم الفتيا . . . ولم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا الذين نقتدى بهم ، ويعول الإسلام عليهم ، أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام . ولكن يقول أنا أكره كذا وأرى كذا . وأما حلال وحرام فهذا الافتراء على الله .

ولا يكتفى الإمام باختيار الصيغة الورعة ، بل قد يطلب أجلا يراوض فيه نفسه . لا يدلى بالرأى إلا فيما تمكن منه ، ولهذا كثر امتناع مالك عن الإفتاء فى المسائل أو تريثه باصطناع صيغ رفيعة ، فربما قال : « لا أحسن » أو « ليس

نبتلى بهذا الأمر »، أو : « ليس هذا ببلدنا »، أو يقول للرجل: « اذهب حتى أنظر فى أمرك » .

ولا فقه إلا بورع . سأل شداد بن حكيم ، تلميذ محمد ، أسد بن عمرو البجلى تلميذ أبى حنيفة عن صاحبيه الآخرين : زفر وأبى يوسف : أيهما أفقه ؟ قال أسد : زفر أورع . قال شداد : عن الفقه سألتك . قال أسد : بالورع يرتفع الرجل .

* * *

ولم تكن المدرسة فى المسجد وحده . بل كانت فى الدار أيضاً ، ولم تكن بمناقشات الحلقة وحدها ، فمنها ما كان يأخذ شكل أسئلة وإجابات مدونة . قال المغيرة : تعالوا نجمع كل ما بقى علينا أن نسأل عنه مالكاً . فمكثوا يجمعون ذلك وكتبوا فى سجل ووجه به المغيرة إليه فأجابه فى بعضه وكتب فى الكثير منه لا أدرى. فقال المغيرة : يا قوم والله ما رفع الله هذا الرجل إلا بالتقوى . من كان يسأل فى هذا فيقول : لا أدرى !

وتعلم ابن حنبل على مالك تقواه — فكان يقول : « سلوا غيرى » فإن قيل من نسأل ؟ قال سلوا العلماء .

وتأتى المسائل من بعيد ومن قريب. ومن الجمهور ومن الأمير . والشيخ على نهجه . . . يقول لا أدرى . فيما لا يدرى . قال السائل إنها مسألة خفيفة سهلة . أردت أن أعلم بها الأمير . قال مالك : ليس فى العلم شىء خفيف . أما سمعت قول الله تعالى : (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) .

والحلقة ملأى بدراسات الزهد فى عرض الحياة الدنيا . مثل ما يروى معن عن مالك : أن سلمان كان يستظل بالفىء حيثما دار ، ولم يكن له بيت . فقيل له : ألا تبنى لك بيتاً تسكن به ؟ قال نعم : فلما أدبر القائل سأل سلمان كيف تبنيه ؟ قال : إن قمت فيه أصاب رأسك وإن نمت أصاب رجليك .

ويكثر الحديث فى الحلقة عن خلافة خامس الراشدين (عمر بن عبد العزيز) كدرس من دروس الدين .

التلاميذ فى الحلقة

الزملاء والخلفاء

والناس يفدون من كل فج عميق . خفافاً وعلى كل ضامر ، حجيجاً ومتفقهين ، وكلا الحج وتعلم العلم فريضة . ومالك يمثل عند جمهور المتفقهين « عظمائهم » صحة الحديث ، ويمثل عند الجمهرة رواته ، من المدينة المنورة . فهو أمل الخاصة والعامة . وهم فى حجهم يشهدون منافع لهم ومنها أن يروا مالك ابن أنس : فى مسجد النبى . ومجلس عمر — أو دار ابن مسعود .

وليس من الميسور إحصاء من غشى الحلقة من طلاب الفقه أو من عداهم على مدار أعوام سبعين . وفى أجيال ثلاثة متعاقبة . والحلقة عاملة ناصبة . وكأنما هى منسك لابد من إتيانه لأهل الفقه . فإذا كانت فى المسجد فهى جامعة أو كصلاة جامعة . وإذا كانت فى الدار فهى زحام يحتاج لآذن ، وسودان يقيمون من يقام .

والناس أجناس . فيهم الفرس والمصريون ، والترك والعرب ، والأفارقة ، والآسيويون ، وأهل أوربا من الأندلس . ومنهم الخلفاء من نسل المنصور : المهدى الهدى ، والرشيد والأمين والمأمون ، ومنهم الولاة الكبار وأمراء المدينة الذين كانوا له تبعاً . ومنهم أئمة الإسلام يتوافدون إماماً بعد إمام . ليستوثقوا من علمهم . بعياره على علمه . يتصدرهم أبو حنيفة ، والأوزاعى والحمادان : ابن زيد (١٩٨) وابن سلمة (١٦٥) والصاحبان : محمد وأبو يوسف . والسفيانان :(الثورى وابن عيينة) والليث بن سعد إمام مصر ، وابن مهدى إمام العراق ، وعشرات من تلاميذ هؤلاء ، ومئات من الآخرين أو آلاف .

ومع أن مالكاً لم يكن يجادل أحداً . بل يقول فيتبع الناس ما يقول ، فلم يستطع إلا أن يجادل الإمام الأعظم أبا حنيفة . ويقول مالك — لليث — وهو يمسح العرق عن جبينه : عرقت مع أبى حنيفة . إنه لفقيه يا مصرى ! ! أما أبو حنيفة فيقول عنه لليث : ما رأيت أسرع منه بجواب صادق . ونقد تام .

وأما أشهب بن عبد العزيز تلميذ مالك فيقول: « رأيت أبا حنيفة بين يدى مالك كالصبي بين يدى أبيه » ويرى المؤرخون ذلك أدباً من أبى حنيفة لأنه أسن من مالك بثلاث عشرة سنة . والحق كذلك أن الأدب العظيم كان بعض وسائل أبى حنيفة للظفر بمجادليه .

وكان أبو حنيفة يقدم عليه بأفكار تحدثها عنده مراجعة كتبه قال : إبراهيم ابن طهمان (١٦٣) أتيت المدينة ثم قدمت الكوفة فأتيت أبا حنيفة فقال : هل كتبت عن مالك بن أنس شيئاً ؟ قلت نعم : قال : حدثنى بما كتبت عنه . فأتيته به ، فدعا بقرطاس ودواة وجعلت أملى عليه وهو يكتب .

ويتلقى على مالك شيوخه أنفسهم قبل أن يتلقى عليه تلاميذه . فلما بلغ الخمسين من العمر لم يكن فى المدينة مثله . ولما فارق أبو حنيفة الحياة الدنيا فى منتصف القرن لم يبق على ظهر الأرض لدة له — مدة ثلاثين عاماً — وكثر تلاميذه من أهل العراق يتزودون من الآثار والسنن . وبهذا كانت نهضة الفقه فى العراق سبباً فى ازدهار الفقه عموماً . وفقه المدينة معه . وأحدث مالك أعظم الأثر فى الدولة الجديدة لقيامها على أساس دينى . وفى الكوفة حيث مدرسة أبى حنيفة وهى مدرسة اتباع كمدرسة المدينة ، تجتهد فيما لا نص فيه .

وترتب على هذين الاعتبارين أن مدت مدرسة أبى حنيفة إلى المدينة بالأسباب كمثل ما صنع الخلفاء متعاقبين ، وتجمعت الأسباب علمية ودينية وسياسية عند مالك بن أنس . يتتلمذ عليه كاتب المذهب الحنفى محمد بن الحسن سنوات يتلقى فيها موطأه ويتلقاه أبو يوسف قاضى قضاة المذهب بطريق غير مباشر .

ويجرى تلاميذ الإمام الأعظم أبى حنيفة والصاحبين أبى يوسف ومحمد فى تيار أئمتهم وتيار الدولة الدينية فيتبارون فى دراسة السنن والإكثار منها . وزادتهم ولاية القضاء إقبالا وإكثاراً . ولا قضاء فى أمور الدين والدنيا إلا على أساس السنة .

ويقدم الخلفاء حجيجاً أو زائرين ، أو أصحاب طلبات ، يعلنون إكبارهم .

فراح يعبر السنين مبايعاً له من خلفاء بنى العباس وهم أبناء عم الرسول المنحدرون من أعظم فقهاء مكة على الإطلاق عبد الله بن عباس . وهم فى الوقت ذاته أوعية من أوعية العلم الدينى والأدبى. وهم — بعد أن تستقيم أمور الدولة لهم — أئمة عدل ونصفة يعملون لسيادة الشريعة . ولهذا طلبوا إلى مالك أن يجعل السنن المجموعة فى كتابه قانوناً يحمل الناس عليه وتضرب رقابهم لطاعته وأبى مالك ما طلبوه . فليس من دين الله أن يفرض مالك على البشر كتابه . والناس فى فجاج الأرض يختلفون أعمالا وحضارة واجتهاداً وإن اتفقوا إسلاماً .

وليس غريباً أن يكون فى الحلقة كل هذا النشاط ويكون فيها من التلاميذ مثل الشافعى ، ومع ذلك لا نسمع فيها مشابه للمساجلات التى حفلت بها حلقات الشافعى فى مكة أو بغداد أو الفسطاط أو حلق المتفقهين من تلاميذه وتلاميذ مدرسة أبى حنيفة أو حلقات أبى حنيفة نفسه . أو مناظرات كهيئة من مناظرة ابن سريج إمام الشافعية لداود الظاهرى (٢٧٠) إمام أهل الظاهر . قال له داود . أبلعنى ريقى ! قال ابن سريج : أبلعتك دجلة ! ولما تناظر داود والطبرى (٣١٠) — والطبرى شافعى صار صاحب مذهب — كلّم واحد من أتباع داود الطبرىّ بكلمة مضة فترك داود كلام هذا الرجل سنة !

وينهى الناس تلاميذ أبى حنيفة إذ يخطّئون أستاذهم ذاته . فيقول هو للناس : دعوهم فهم لا يفقهون إلا بهذا .

أما مالك فيلقى الدرس ليتبع ما يقول دون جدل ، وليس ذلك هو التقليد ، فالتقليد هو المجاراة دون فهم ، أو مع تعطيل العقل . والاتباع أخذ بالسنة مع الفهم لها . ومالك إمام رأى كالشافعى وأبى حنيفة اللذين عاصراه ، يستلزم الاجتهاد.

* * *

وإنك لتستطيع أن تتصور فى يقين أن جميع أئمة العصر وعظمائه الذين حجوا حضروا حلقة مالك .

قال نجيد الترمذى : كنت عند مالك وعنده محمد والمأمون يسمعان . فلما

فرغا قال أحدهما (إما المأمون وإما محمد الأمين) : يا أبا عبد الله ؛ أتأمرنى أن أكتبه بماء الذهب ؟ قال لا تكتبه بماء الذهب ولكن اعمل بما فيه .

وقال « القاضى الفاضل » وزير صلاح الدين: « ما أعلم رحلة إلى مالك فى طلب العلم — يقصد رحلة خليفة — إلا للرشيد — فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ . وكان أصل الموطأ — سماع الرشيد — فى خزانة المصريين " يقصد تلاميذ مالك المصريين" . ثم رحل صلاح الدين بولديه لسماعه على أبى طاهر السلفى . . لا أعلم لهما ثالثاً » .

ولعل القاضى الفاضل لا يسلم أن المهدى بعث إليه ولديه موسى وهرون (الهادى والرشيد) .

فبهذا سمع الموطأ فى حلقة الدرس خلفاء الدولة العباسية الأربعة أو الثلاثة على الأقل وفيهم اثنان من أعظم رجال التاريخ العالمى الرشيد والمأمون ، على كل قول ، وسمعه صلاح الدين وولداه عثمان وعلى — العزيز والأفضل — بعد قرون .

قالوا : لما قدم المهدى المدينة بعث إلى مالك فأتاه وطلب إلى ولديه (موسى الهادى وهرون الرشيد) أن يستمعا إلى مالك فى مجلس المهدى . فأبى مالك إلا أن يستمعا إليه فى مجلسه هو (مجلس مالك) فسيرهما المهدى إليه . وفى الحلقة طلب إليه مؤدبهما أن يقرأ عليهما فقال له : إن أهل هذه المدينة يقرءون على العالم كما يقرأ الصبيان على المعلم . فإذا أخطأوا أفتاهم . فذهب المؤدب للمهدى يقول : إن الشيخ منعهم من السماع . فبعث إلى مالك يسأله قال مالك: سمعت ابن شهاب يقول: جمعت هذا العلم من رجال فى الروضة وهم سعيد بن المسيب، وأبو سلمة، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، ونافع ، وابن حزم ومن بعدهم أبو الزناد وربيعة ويحيى بن سعيد . كل هؤلاء يقرأ عليهم . ولا يقرءون . قال المهدى هؤلاء قدوة . سيروا إليه . .

وهكذا فرض مالك قانون الحلقة على خليفة يضع القوانين .

وتلقى البخارى ذلك الدرس وألقاه على وال صغير . لنيسابور . طلب حضوره إليه ليحدثه فقال : إن شاء الأمير أن يحضر إلى الجامع فيسمع مع

الناس فإن العلم يسعى إليه ولا يسعى . فنفاه فذهب إلى خرتنك حيث مات سنة ٢٥٦

التلاميذ فى الحلقة

جيران الرسول

والتلاميذ كثيرون فى حلقة مالك . منهم الدائمون وغير الدائمين ؛ ولقد كانت الأعمار تقصر دون عمره . وكانت المدينة العظيمة أضيق من أن تسع تلاميذه ، وهم ينصبّون عليه من كل الأقطار ، وفى كل الأعمار ، من وسط آسيا فى خراسان أو غرب أوربا فى الأندلس . ومن أفريقية ومن مصر . وانطبعت الحلقة بطابع الشيخ الذى طبع به الفقه الإسلامى كله . فتناقلت البلدان الأخرى طابع المدينة المنورة .

وتلاميذ مالك وجه امتياز يمتاز به ممن عداه . فالذين تلقوا عليه مباشرة . يمثلون بلدان الإسلام كلها فى قاراتها الثلاث . . ذلك من ناحية المكان أما من ناحية المكانة فهم ليسوا تلاميذ فحسب . بل هم أئمة مذاهب . يتصدرهم الشافعى وهو أستاذ ابن حنبل . وكذلك محمد بن الحسن . وهو صاحب أبى حنيفة. وابن القاسم وأسد بن الفرات . وهو أمر جد طبيعى لأن مالكاً يمثل السنة . وهى جماع لمذاهب . . ينسب إلى بعضها اتباع النصوص فيكون آية فى الاجتهاد . وينسب لبعضها الاجتهاد وهى دقيقة الاتباع وينسب إلى بعضها التشدد فتراه فياضاً بالسماحة لأنها كلها وسائل لتحقيق مقاصد الشرع ورحمته واسعة .

وليس غريباً أن يتصدر الشافعى تلاميذ مالك وهو من أواخر الذين تلقوا عليه . فالسماء قد جادت بالشافعى ليكون تحديداً علمياً لطريقتى الإمامين اللذين سبقاه فى الحياة . ولم تشأ السماء أن تحرم الإسلام أبا حنيفة فى سنة ١٥٠ إلا أن تهبه الشافعى فى العام ذاته ليتتلمذ فى الغد على محمد صاحب أبى حنيفة . ولم تشأ أن تحرم مكة من إمام مثلما جادت على كل من المدينة والكوفة بإمام . ولم تفصل بين مالك وابن حنبل بل وصلتهما بالشافعى . وفى الشافعى تلتقى المذاهب الأربعة .

وإذا كان الشافعي (١٥٠ — ٢٠٤) قد ذهب مذهباً جديداً إلى جوار مذهبي الإمامين اللذين سبقاه فإنه كان دائماً يذكر مالكاً على أنه أستاذه . وكلما تجلى الشافعي للمسلمين إماماً عالى الجرس ، عظيم الأثر ، كان ثمة ما يستوجب الشكر ، لسنوات عشر ، فى حلقة شيخه مالك .

وعندما افترقا وصاه مالك: « لا تسكن الريف فيضيع علمك، واكتسب الدرهم . ولا تكن عالة على الناس ، واتخذ لك ذا جاه ظهراً لئلا تستخف بك العامة . ولا تدخل على ذى السلطنة إلا وعنده من يعرفك وإذا جلست عند كبير فليكن بينك وبينه فسحة لئلا يأتى إليه من هو أقرب منك فيدنيه ويبعدك فيحصل فى نفسك شيء » لكن الشافعي حيي حياته على طريقته فى اقتحام وقوة — وكانت عين السماء ترعاه .

وكان طبيعياً أن يتتلمذ على مالك المشهورون من تلاميذه فى النصف الثانى من القرن . ولقد كان عندئذ فرد الدهر . يعبر الخمسين إلى الستين فى قمة الفقه العالية .

ومن التلاميذ الحجازيين كذلك المغيرة بن عبد الرحمن المخزومى (١٨٦) وكان يقعد إلى جوار مالك . فى مجلس لا يشركه فيه سواه وإن غاب المغيرة بقى خالياً فى انتظاره ، وهو الذى أذنه مالك فى أن يناظر أبا يوسف إذ طلب الرشيد أن يناظره مالك . وهو الذى رأس الحلقة بعد مالك . ولم يقبل أن يلى القضاء للرشيد .

ومنهم عثمان بن عيسى (١٨٥) وعبد العزيز بن أبى حازم (١٨٥) ومعن ابن عيسى القزاز (١٩٨) كان الشيخ يتكئ عليه عند خروجه من المسجد حتى سموه عصية مالك . وهو الذى قرأ عليه الموطأ للرشيد والأمين والمأمون . ولقد جلس لنفسه مجلساً بعد موت مالك . .

ومنهم عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة التيمى الماجشون وكان ينادى فى موسم الحج سنة ١٦٨ : لا يفتى الناس إلا مالك وعبد العزيز الماجشون (أبو عبد الملك) .

وعبد الله بن نافع الزبيرى (٢٢٠) وإسماعيل بن أويس وهو أصبحى وابن أخت لمالك (٢٢٦) .

ومن البصرة كان عبد الله بن مسلمة القعنبى (٢٢١) .

ومن بغداد محمد بن الحسن الشيبانى (١٨٩) .

ومن نيسابور يحيى بن يحيى التميمى النيسابورى (٢٢٦) .

ومن الفسطاط بمصر عبد الرحمن بن القاسم (١٩١) وعبد الله بن وهب (١٩٧) وأشهب بن عبد العزيز (٢٠٤) وعبد الله بن عبد الحكم (٢١٤) .

ومن أفريقية — تونس — على بن زياد التونسى (١٨٣) وأسد بن الفرات (٢١٣) .

ومن الأندلس . عبد الله بن غانم الأفريقى (١٩٠) ويحيى بن يحيى الأندلسى تمييزاً له من النيسابورى (٢٣٣) .

وكان مالك يقدم تلاميذه فى مجاسه على سواهم ، فهم أطناب الحلقة ، وهم المهاجرون لحديث الرسول . ولما عوتب فى ذلك قال : أصحابى جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم .

التلاميذ فى الأسرة :

كان للنساء مجلس مع النبى ، وكان لحلقة مالك من تحضر من وراء حجاب ، فتفيد وتستفيد . وكان ثمة من يحضرون ولا يستفيدون ، وتشاء إرادة السماء أن يكون هؤلاء أعضاء بيت مالك ذاته ! والعبقرية لا تورث .

فربما شارك التلاميذ من وراء الباب بنت لمالك تكنى أم البنين ، أو أم أبيها واسمها فاطمة ، تقف أحياناً خلف الباب فتسمع . وإذا أخطأ الكاتب الذى يقرأ ، نقرت الباب نقراً خفيفاً ليفطن الشيخ لخطأ القارئ . فيصوبه .

ولقد يغشى الحلقة ابنه محمد وعلى يده باشق، وفى يده نعل كيسانى . وقد أرخى سراويله عليه . فيجعله مالك درساً لأصحابه . فيقول : « إنما الأدب أدب الله . هذا ابنى وهذه ابنتى » ويقول : « إن مما يهون الأمر علىّ أن هذا الشأن

لا يورث » ثم يغشى الحلقة ابن لمحمد اسمه أحمد ، سيعد فيما بعد من ضعفاء المحدثين ، مات سنة ٢٥٦ .

وكان للإمام ابن ثان اسمه يحيي ، وقيل كان له ابن آخر هو حمادة .

على أن أعظم دروس الإمام من أسرته — يتبدى فى احترامه لزوجته . وكانت أم ولد تزوجها بطريق التسرى . فاستبقاها زوجة وحيدة له . وحاطها وأسرته بكل حبه واعتزازه . ولم يصنع صنيع عصره من الاستكثار من الزوجات ، حيث الزوجة مرضية كافية أغراض الزوجية ، أو حيث يخاف الأزواج ألا يعدلوا .

ولا مراء فى أن تأثير أمه فيه ، قد علمه إكبار أم ولده طوال حياتها وحياته .

الفصل الثانى

من تراث المدينة

« إن الله تبـــارك »
« وتعالى لايمـــل »
« حـــتى تملـــوا »
« اكلفوا من العمل »
« ما لكم به طاقة »
(حديث شريف)

والمدينة ذاتها درس أول من دروس الحلقة . يروى مالك عن ابن المنكدر . . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المدينة كالكير "ما تنفخ به النار" تنفى خبثها . وينصع طيبها » وهى عاصمة الإسلام ، وهو يسر كله .

وإمام المسلمين يبدئ ويعيد فى حلقته فى سيرة عمر بن عبد العزيز وفقهه وعن قواعد اليسر والعدل والورع . ويفيض فى شرح مقاصد الشرع :

عن مالك أنه عليه الصلاة والسلام . قال : « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف . والسقيم، والكبير . وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء » . قال عليه الصلاة والسلام : « صل بهم صلاة أضعفهم » .

وسمع امرأة من الليل تصلى . فقيل له هذه الحولاء بنت تويت لا تنام الليل . فكره ذلك حتى عرفت الكراهة فى وجهه ثم قال « إن الله تبارك وتعالى لا يمل حتى تملوا . اكلفوا من العمل ما لكم به طاقة » .

والتيسير تيسير فى كل الأمور . عن عائشة أنه عليه الصلاة والسلام يقول : « سيروا بسير أضعفكم » وهو عليه السلام يقول : «الضعيف أمير الركب» قالت رضى الله عنها « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً . فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه . وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله فينتقم لله بها » .

وكما علم الرسول اليسر والتسامح علم الناس السلام قال : « لا يحل لمسلم

أن يهاجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما هو الذى يبدأ بالسلام » .

وتتنوع دروس الحلقة فتعلم مكارم الأخلاق : مالك عن أبى الزناد . . . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » . وفى الحلقة كذلك يتعلم الناس العطاء والحياء . مالك عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب أن رسول الله قال : «أعطوا السائل وإن جاء على فرس » وهو عليه السلام يقول : «لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء».

* * *

وإمام المسلمين يقول : الاستحسان تسعة أعشار العلم ، ويتخذ مقاصد الشرع ، وهى أصول كلية للشريعة ، أساساً ونبراساً ، يبنى على مقتضاه ، فيجيز ما فيه مصلحة للناس تؤيدها أصول الشريعة ومقاصدها . وفى هذا جلى مالك وصلى بعده الباقون .

وهو يعطى أهل المدينة ، وعملهم وعلمهم . قيمة فوق القيم ؛ ومن الحجج لذلك أن بيعتهم للخلفاء الثلاثة الأولين كانت كافية لانعقاد البيعة فلم ينتظر الثلاثة أن ترد عليهم بيعة الأمصار .

والشيخ لا ينحاز إلى أعداء على ، لكنه أموى الهوى . وعثمانى المنزع . وهو لا يخرج على السلطان . وإن كان ضد الظلم . . . والشيخ دائماً فى خدمة (المدينة) كمثل ما كانت (المدينة) فى خدمة حلقته .

ويكثر الحديث فى الحلقة عن تحريم المضارّة ودفع الحرج . وأخذ الدين بالرفق والناس بالسماحة . وتغليب المصلحة العامة على الخاصة . وتقييد الحقوق دفعاً للمضارة . واستعمال الحقوق أداة للتراحم بين الناس . ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا ضرر ولا ضرار » يحدث به مالك ويخرج عليه تخريجاته الرائعة .

وتستطرد الحلقة : مالك عن ابن شهاب . . . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يمنع أحدكم جاره خشبة يغرزها فى جداره » .

ومالك عن عمرو بن يحيى المازنى عن أبيه أنه قال : « كان فى حائط

« بستان » جده ربيع « جدول صغير » لعبد الرحمن بن عوف فأراد عبد الرحمن أن يحوله إلى ناحية أقرب إلى أرضه فمنعه صاحب الحائط فكلم عبد الرحمن بن عوف عمر بن الخطاب فى ذلك فقضى لعبد الرحمن بتحويله » .

وتستطرد الحلقة فى الباب ذاته فهذا أصل إسلامى أول . وهذا فارس من فوارس الإسلام الأول يحاسب به عمر الصناديد من قواده . ويأخذه بقواعده — أول من يأخذ — مالك عن عمرو بن يحيى المازنى أن الضحاك بن خليفة ساق خليجا له من العريض (واد بالمدينة) فأراد به أن يمر فى أرض محمد بن مسلمة فأبى محمد فقال له الضحاك لم تمنعه وهو لك منفعة ؟ تشرب به أولا وآخراً . وهو لا يضرك ؟ فأبى محمد . فكلم فيه الضحاك عمر بن الخطاب فدعى محمد ابن مسلمة فأمره بأن يخلى سبيله . فقال لا ؛ فقال عمر : لم تمنع أخاك ما ينفعه وهو لك نافع وتسقى به أولا وآخراً . وهو لا يضرك ؟ فقال محمداً لا والله . فقال عمر : والله ليمرن ولو على بطنك . فأمره عمر أن يمر . ففعل الضحاك(١) .

وتستطرد فى فقه رعاية الجار . وفى التراحم . والنصفة . فيروى مالك : «أخبرنا... أخبرنى أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن عمرة حدثته أنها سمعت عائشة رضوان الله عليها تقول «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت ليورثنه » .

وتنتقل من رعاية الجار إلى رعاية الشريك : مالك.. أخبرنا أبو الرجال عن عمرة بنت عبد الرحمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يمنع نقع بئر »(٢) .

* * *

(١) أقر القانون الألمانى هذا المبدأ جملة بعد الإسلام بثلاثة عشر قرناً أى فى نهاية القرن الماضى بنص يحظر على المالك أن يمنع غيره من التدخل فى انتفاعه بملكه متى كان التدخل ضرورياً لتوقى خطر داهم .

(٢) قيل هذا فى البئر بين شريكين — يسقى هذا يوماً وهذا يوماً ويستغنى أحدهما عن يومه فيريد صاحبه السقى به فليس لصاحبه منعه مما لا ينفعه حبسه ولا يضره تركه بخلاف الأنهار والبحار والأودية التى لا ملك فيها لأحد فإن الناس فيها شركاء لحديث : «الناس شركاء فى ثلاثة : الماء : والكلأ ، والنار» .

والشيخ يكره الاختراع الذى لم يأت عن النبى عليه الصلاة والسلام ، ولا عن أحد من السلف والصحابة المرضيين ما يؤيده فهذا من محدثات الأمور. مثل القيام للدعاء ، والدعاء عند ختم القرآن ، والاجتماع للدعاء عند الانصراف من الصلاة ، والزيادة فى الذبح على التسمية المعلومة ، والقراءة فى الطواف دائماً ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم عند التعجب .سئل مالك عن الجلوس فى المسجد للدعاء يوم عرفة . فكرهه فقيل له : فالرجل يكون فى مجلسه فيجتمع الناس إليه ويكبرون . قال : ينصرف ولو كان فى منزله لكان خيراً له . . ومثل هذا مما يكون الأمر وارداً فيه على الإطلاق فيقيد بتقييدات تلتزم من غير دليل على ذلك . وعليه أكثر البدع المحدثة .

والذى يعترض عليه مالك فى جوهره إلزام بما لا يلزم ، أو تعمل . ومالك إمام السنة . والسنة هى السماحة . والرسول يسر كله . وروح المدينة وروحها هما اتباع للسنة ويسر فى كل أمر .

ولما أراد الخلفاء أن يحملوا الناس على ما فى موطئه أبى حتى لا يقهر الناس على فقهه وحده . وحتى لا يحسب الناس أنه لا يصح العمل إلا بآرائه .

ولما هم الخليفة أن يبنى البيت على ما بناه ابن الزبير على قواعد إبراهيم شاور مالكاً فقال له : أنشدك الله يا أمير المؤمنين لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك . لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره . فصرفه عن رأيه فيه حتى لا يصير هدم البيت وبناؤه غرضاً للملوك . وبهذا سد ذريعة .

ويأتسى مالك بعمل عمر كل الائتساء . ويقول أميتوا سنة العجم . وأحيوا سنة العرب . أما سمعت قول عمر : تمعددوا واخشوشنوا وامشوا حفاة وإياكم وزى العجم .

وهو أنيق فى الطهارة ، لا يستكثر إلا للاحتياط : سئل عن المرة الواحدة فى الوضوء . قال لا : الوضوء مرتان أو ثلاث . مع أنه لا يحد فى الوضوء إلا ما أسبغ . فإذا أسبغ المتوضئ الماء كفاه مرة سابغة . لكنه يرى الاحتياط لأن العامى إذا رأى من يقتدى به يفعل ذلك يتوضأ مرة واحدة . وقد لا يحسن إسباغ

الماء بواحدة فيقع ما لا تجزئ الصلاة به . ولذلك لا يبيح الوضوء مرة واحدة إلا للعالم بالوضوء. بل إنه لا يبيح له أن يستمر على ذلك أمام الناس . فإذا كان لابد له من إظهاره أمام الناس فينبغى ألا يستمر عليه فيظهره حيناً وحيناً يتخلف عنه .

وهو يؤصل ويقعد. فقد يكون فى الانحراف معصية مثل « إن رجلا نذر أن يصوم قائماً ولا يستظل فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلس ويستظل ويتم صومه » فيقول مالك : أمره عليه السلام أن يتم ما كان لله طاعة ويترك ما كان لله معصية .

ولم يكن اتباع مالك هو التقليد فابن عمر وزيد وابن المسيب وربيعة لم يكونوا مقلدين . بل كانوا متبعين . وعمر بن عبد العزيز كان قمة فى اجتهاده بين المتبعين . وسار مالك على الأمر الأول ، أمر النبى وصحبه وسننه وعمله. وكان مالك يلقى على كل ما يتبعه أضواء فقهه .

إنما نشأت بدعة التقليد بعد موت مالك فارتاح البعض إلى تعطيل أذهانهم ولم يفطن المعطلون إلى أن الاجتهاد واجب إسلامى أول .

* * *

ومالك يغربل الأحاديث غربلة ، وإن كان يقبل الأحاديث المرسلة ما دامت مؤيدة ، ويقدم القياس بأصل قطعى على خبر الواحد . ما دام لم يعضد بأصل قطعى .

يقول له القائل : إن عند ابن عيينة أحاديث ليست عندك . فيقول : « أنا أحدث الناس بكل ما سمعت ؟ إنى إذن لأحمق . أو : إنى أريد أن أضلهم إذن . ولقد خرجت منى أحاديث وددت أنى ضربت بكل حديث منها سوطاً ولم أحدث بها . وإن كنت أجزع الناس من السياط » ومن أجل هذا وجدت فى تركته أحاديث كثيرة لم يحدث بها فى حياته .

وإذا قيل له إن هذا الحديث ليس عند غيرك تركه . وإذا قيل له عن الحديث إن أهل البدع يحتجون به تركه . قيل له إن فلاناً يحدثنا بغرائب فقال :

من الغريب نفر . فإذا شك فى الحديث تركه كله . . . وكان يقول : « ليس كل ما روى الرجل — وإن كان فاضلا — يتبع ، ويجعل سنة . ويذهب به إلى الأمصار » وكان ضد الإكثار من الرواية . قال لابن وهب . وهو أقدم المصريين الكبار (ابن وهب —ابن القاسم —أشهب— ابن عبد الحكم) من تلاميذ مالك : « اتق هذا الإكثار وهذا السماع . الذى لا يستقيم أن يحدث به .

قال ابن وهب : إنما أسمعه لأعرفه لا لأحدث به .

قال ما يسمع الإنسان شيئاً إلا يحدث به . وعلى ذلك سمعنا من ابن شهاب أشياء ما تحدثت بها . وأرجو ألا أفعل ما عشت . ولقد ندمت ألا أكون طرحت من الحديث أكثر مما طرحت » .

ويروى ابن وهب كذلك نهيه عن كثرة الجواب ووصفه مَن أكثر الجواب بأنه . . يتكلم كأنه جمل مغتلم . يقول هو كذا يهدر فى كل شىء .

ولقد قال مالك لابن وهب : « لا تحملن أحداً على ظهرك ولا تمكن الناس من نفسك أدّ ما سمعت وحسبك ولا تقلد الناس قلادة سوء » .

وابن القاسم يروى حواراً بينه وبين مالك قال لمالك : ليس بعد أهل المدينة أعلم بالبيوع من أهل مصر . (يقصد فقه البيوع كما ورد بالسنة) ورد مالك عليه : ومن أين علموها ؟ قال ابن القاسم : منك . قال مالك : « سمعت من ابن شهاب ، أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط . ولا أحدث بها . قيل لم ؟ قال ليس عليها العمل » .

ويروى أشهب : رآنى أكتب جوابه فى مسألة فقال : لا تكتبها فإنى لا أدرى أثبت عليها أم لا . ولقد سمعه ابن أخته إسماعيل بن أويس يقول : « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » .

وكان يقول : «ما قلت الآثار فى قوم إلا ظهرت فيهم الأهواء ولا قلت العلماء إلا ظهر فيهم الجفاء » .

ويقول : «ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يضعه الله فى القلب» ويعلن فى نزاهة الأئمة أنه معرض للخطأ وأنه لا عاصم إلا فى الكتاب والسنة فيقول :

« إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وما خالف فاتركوه » وهو فى هذه العبارة يقدم خطأه على صوابه ، آية تواضع وسماحة .

* * *

أما الذين يتكلمون فى الدين بهواهم فأصحاب بدعة لا يناقشهم الشيخ لأنهم مرتابون ومريبون . حدث الشافعى قال : كان مالك إذا أتاه رجل من أهل الأهواء قال له : أما أنا فعلى بينة من دينى . وأما أنت فشاك فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه .

والشيخ هو القائل : الدنو من الباطل هلكة . والقول فى الباطل يصد عن الحق . ولا خير فى شىء من الدنيا بفساد دين المرء أو مروءته ولا بأس على الناس فيما أحل الله لهم .

وفى المتكلمين المبتدعين يروى أشهب : سمعت مالكاً يقول : إياكم والبدع ... أهل البدع الذين يتكلمون فى الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته . ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان .

ويروى عبد الرحمن بن مهدى أنه دخل على مالك وعنده رجل يسأله عن القرآن فقال : لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام . ولو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة كما تكلموا فى الأحكام والشرائع ولكنه باطل يدل على باطل .

وسأل مالكاً رجل آخر عن خلق القرآن فأجابه : لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد ؟ لعن الله عمراً فإنه ابتدع هذه البدعة .

وكان عمرو رجلا صالحاً لكنه كان زعيم المعتزلة .

كان إبراهيم بن أبى يحيى فقيه المدينة ينسب إلى الاعتزال . فيقول فيه مالك : إذ يسأل عنه أكان ثقة فى الحديث ؟ لا . ولا فى دينه . فلقد كان المعتزلة أكثر شىء جدلا . ومالك يقول عن الإغراق فى الجدل « إنه يقسى القلب ويورث الضغن » .

ويبلغ به كرهه المتكلمين أن يقول : من طلب الدين بالكلام تزندق .

ومن طلب المال بالكيمياء أفلس. ومن طلب غريب الحديث كذب. وكان يعيب المراء فى الدين ويقول: « أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل يريد أن يرد ما جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم جادلناه» ؟ ويكره الجدال الملحّ ويدع الأمر لله يهدى من يشاء . قال له إسحق بن عيسى : إنى أرى الرجل على غير السنة . أجادله ؟ قال مالك : لا ولكن تخبره بالسنة فإن قبل وإلا فاسكت عنه .

وكان يقول: « من قال القرآن مخلوق يوجع ضرباً . ويحبس حتى يتوب». قال له رجل : ما تقول فيمن قال القرآن مخلوق ؟ فرد : زنديق كافر اقتلوه . فاعتذر الرجل بأنه ينقل كلام الآخرين . قال مالك : لم أسمعه من أحد وإنما سمعته منك ! !

ويقول مالك من شتم رسول الله قتل. ومن شتم أصحابه أدب .فلم يكن يقبل القدح فى الصحابة .

ويقول عن القدرية ، أى الذين ينفون القدر : قوم سوء لا تجالسوهم . ولا تصلوا وراءهم وإن جامعوكم فى سفر فأخرجوهم . ويقول: « ما رأيت أحداً من أهل القدر إلا أهل سخافة وطيش وخفة » .

ويتحدث عن قول عمر بن عبد العزيز من جعل الدين غرضاً للخصومات أكثر التنقل فيقول : وأراه يعنى أصحاب الأهواء . ومالك يقول فيهم : « بئس القوم لا يسلم عليهم . واعتزالهم أحب إلىّ » .

انصرف يوماً من المسجد وهو متكئ على يد معن . فلحقه رجل يقال له ابن الجويرية كان يتهم بالإرجاء فقال له : يا أبا عبد الله اسمع منى شيئاً أكلمك به وأحاجك وأخبرك برأيى فإن غلبتنى تبعتك . قال فإن غلبتنى ؟ قال اتبعتنى قال : فإن جاء رجل فغلبنا قال : اتبعناه قال مالك : بعث الله محمداً بدين واحد وأراك تتنقل— قال عمر بن عبد العزيز : « من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل » .

والإيمان عند مالك قول وعمل . قال : أقام الناس يصلون نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم أمروا بالبيت الحرام فقال تعالى : (وما كان الله ليضيع

إيمانكم) أى صلاتكم إلى بيت المقدس.أى أن الصلاة من الإيمان .وهى عمل .

ويروى يونس بن عبد الأعلى تلميذ الشافعى أن ابن وهب قال : سئل مالك عن الإيمان فقال قول وعمل . قلت أيزيد وينقص ؟ . قال : دع الكلام فى نقصانه فكف عنه . فقلت فبعضه أفضل من بعض ؟ قال نعم .

فهو كان يطلق القول فى الإيمان ولا يطلق القول فى نقصانه إذ لم ينص الله تعالى إلا على زيادته كما يروى ابن وهب.وفى رواية أخرى أنه قال : الإيمان يزيد وينقص.ولقد أجاب مالك ابن نافع يوم سأله عن ذلك عند موت مالك — قد أبرمتمونى . إنى تدبرت هذا الأمر فما من شىء يزيد إلا وينقص . قال ابن رشد — الجد — وهو الصحيح والله أعلم .

وإمام السنة إمام فى تسامحها، وفى الرجاء للمسلمين فى عفو الله يقول: « لو أن العبد ارتكب الكبائر إلا أن يشرك شيئاً ثم نجا من هذه الأهواء والبدع والتناول لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأرجو أن يكون فى أعلى درجة فى الفردوس . مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

قال عمر بن حماد بن أبى حنيفة : أقمت عند مالك مدة فلما أردت الرجوع قلت : لعل بعض الحساد ذكروا جدى عندك على خلاف ما كان عليه فأذكر لك مذهبه . فإن كان فيه رضاك فذاك وإلا فعظنى . إن الإمام كان لا يخرج أحداً من الإيمان بذنب قال : أصاب ؛ قلت وكان يقول أكثر من هذا : وإن أصاب الفواحش قال أصاب ؛ قلت وكان لا يكفر قاتل النفس . قال : أصاب ؛ فمن قال غير هذا فقد أخطأ وكذب . قال بلغنى أنه كان يقول إيمانى كإيمان جبريل قلت بلغك الباطل . كان يقول إن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه وسلم كما بعثه إلى من قبله فأمره أن يدعو الناس إلى الإيمان.فالإيمان إيمان واحد لا إيمانان أو ثلاثة . ولا إيمان هذا وإقرار ذا غير إيمان ذا وإقرار ذا . فتبسم كالراضى ولم يقل شيئاً قلت : وكان ينكر الشك فى الإيمان قال وما الشك ؟ قلت عندنا أقوام لا يقولون إنا مؤمنون حتى يستثنوا ! ! ! ويقول أحدهم لا أدرى أنا مؤمن أم لا ؛ فأنكر قول من يقول هذا .

هكذا جادل مالكاً أبو حنيفة ثم استمع مالك لحفيد أبي حنيفة .

* * *

ازدهرت مدرسة الرأى فى حاضرة العراق الجديدة فواجهت حضارة العراق وهى تنفعل بالشريعة . ولم يكن بلغها من السنن كل تراث المدينة . وآية ذلك أن عليًّا وابن عباس وجدا أهل البصرة بعد خمسة وثلاثين عاماً من الهجرة ، لا يجيدون أحكام الزكاة فدعوا الموجودين من أهل المدينة ليعلموهم ! وكان عمر قد نبه الصحابة ومن معهم ممن أرسلهم إلى العراق أن يقلوا الحديث عن الرسول ، ويكثروا قراءة القرآن . فكان التفريع على الأصول المسلمة فى الإسلام وسيلة مدرسة الكوفة لاستخراج الأحكام بالإضافة إلى ما ثبت لديهم من نصوص . وكان الاستدلال والاستنباط وسيلة لفهم عللها . والقياس عليها . ووجد العلماء العراقيون أنفسهم يقيسون ويفترضون تحت ضغط التطور دون زلل أو تعمل ، فالفقهاء حريصون فى الكوفة على السنن حرص فقهاء المدينة .

والمدرستان فى الواقع لا تصطرعان وإنما تتكاملان . وهما كلتاهما مدرسة رأى وسنة معاً . وإن كانت مدرسة العراق قد ألهبتها وألهمتها حضارة تزداد بازدياد التقدم ، ووجود المدارس القديمة فى فارس ، تتلاقى بها مدارس يونانية قديمة . وباضت ثمة وأفرخت مصادر شتى للخطر . ومالك يقول : « ما قلت الآثار فى قوم إلا ظهرت الأهواء فيهم » . فاجتمع بالعراق قلة الآثار . وكثرة النزعات . فى بلد كان ميدان حروب وانتقاضات . وحسبنا أن نشير بعض الإشارة إلى بعض الفرق .

الخوارج [1] — نشأوا فى العراق ومن نظرياتهم الفقهية — إنكار الأحاديث

---

(١) تحدثنا عن هذه الفرق فى كتاب (الإمام الشافعى) واضع الأصول وناصر السنة . ابتداء من صفحات ١٦١ إلى ١٧٥ وحسبنا هنا بعض البيان :

الخوارج :

خرج جماعة من أنصار (على) فى صفين عليه إذ قبل التحكيم وتجمعوا فى حروراء وحاربوه فهزمهم فى النهروان سنة ٣٧ ثم قتله واحد منهم وانقسموا فرقاً مبدؤها العام الرضا عن الشيخين أبى بكر وعمر والبراءة من عثمان لما نقموه عليه ومن على لأنه قبل التحكيم . ومن معاوية لأنه غلب على الأمر عنوة . =

التى لا ترد عمن تولوه من الأئمة.وتولوا أبا بكر وعمر وعثمان فى السنوات الستة الأولى من خلافته . ونظريتهم فى الإمامة أنها لمن يصلح من المسلمين .

= ومن مبادئهم أن الخلافة حق لأصلح المسلمين ولا يشترط أن يكون قرشيا. وأن لا طاعة للإمام إذا خرج عن حدود الدين . ومن تعدى حدود الله من المسلمين فاسق والفاسق كافر . وكفروا مرتكبى الكبائر . وعدوا من ظاهر معاوية ولم يتبرأ من على وعثمان خارجاً من الملة .

وهم يعتمدون على ظواهر القرآن ولا يقبلون من السنة إلا ما رواه من يرضون عنه ومن الأحاديث إلا ما تداوله الناس فى عهد أبى بكر وعمر . فنفر منهم الجمهور.وكان منهم عكرمة مولى ابن عباس فكان مالك ، ومسلم ، لا يأخذان بأحاديثه .

كانوا فى الدفاع عن عقيدتهم صناديد نزدان ببطولاتهم صفحات التاريخ الإسلامى فى الورع وفى الحرب . وكان بطش خصومهم أكبر — ثبت أبو بلال فى القتال حتى جاء وقت صلاة الجمعة فوادع أعداءه من جيوش الخليفة ريثما تنتهى الصلاة فوادعوه . ورمى قومه الأسلحة . وعمدوا للصلاة فجاس إليهم الموت من جيش الخليفه فاستشهدوا جميعاً بين راكع وساجد وقاعد لا يخرجون من الصلاة .

وكان نساؤهم كرجالهم استبسالا فى الحروب علم أبو بلال أن ابن زياد يعتزم — التنكيل بواحده منهن تدعى البلجاء . فنبهها لتهرب قالت إن يأخذنى فهو أشقى بى — فكان أشقى بها . . . قطع يديها ورجليها وصلبها عريانة !

ولما حبس أحدهم بهر السجان بورعه فعرض عليه السجان أن يدعه يبيت فى داره . ويعود قبل الصباح كل ليلة حتى إذا كانت ليلة أمر عبيد الله بن زياد بقتل السجناء فلما كان السحر تهيأ السجين للعودة . قال له أهله اتق الله فإنك إن رجعت قتلت : قال ما كنت لألقى الله غادراً . ومضى إلى السجان قال : لقد علمت ما عزم عليه صاحبك — قال السجان . أعلمت ورجعت ! .

الشيعة :

أشياع أمير المؤمنين على . انقسموا فرقاً—منها الإمامية والرافضة ومنها فرقة تجعل إمامتها إلى عبد الله ابن محمد بن الحنفية . ابن على من غير فاطمة الزهراء . وهو يكنى أبا هاشم قيل إنه أوصى عندما حضرته الوفاة إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس لأنه مات عنده بالشام . وهذا أوصى إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم قبل أن يقتله رجال مروان بن محمد إلى أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد (السفاح) فكان هذا مدخل العباسيين الشرعى إلى الخلافة. ومن فرقهم الزيدية نسبة إلى زيد بن على بن الحسين وفى زيد وأهله يقول أبو حنيفة : « شاهدت زيد بن على كما شاهدت أهله فما رأيت فى زمانه أفقه منه ولا أعلم ولا أسرع جواباً ولا أبين قولا لقد كان منقطع القرين » وكان يسمى حليف القرآن وقد نسب إليه (المجموع لزيد) متضمناً فقه الشيعة متأثراً بفقه العراقيين حتى ليكاد يظهر فيه منهج العراقيين . ولو صحت نسبته إلى زيد لكان فى طليعة مدونات القرن الثانى . وقد قتل زيد سنة ١٢٢ وقتل ابنه يحيى فى سنة ١٢٥. ساد مذهبه بلداناً منها خراسان والديلم واليمن وقامت دول شيعية متعددة — فى بلدان الإسلام =

ونجمت مخاطر أخرى على فقه المدينة بقيام المتكلمين والقدرية والمعتزلة وكانوا أشتاتاً : لكن خطرهم جميع على السنن . وكان ثمة فرق أخرى .

وكان بالعراق عباقرة فكر . وأساطين فقه. وأبو حنيفة إمام الاتباع فى العراق وإمام الاجتهاد فى الإسلام . يعلن نظريته فى الإيمان أنه إيمان بالقلب وإقرار باللسان لا يزيد بالعمل ولا ينقص . وأن الغيب لله وأنه يغفر لمن يشاء — وهى فلسفة فقهية استفاد بها المرجئة إذ يرجئون الحكم إلى حساب الآخرة . وإن كان عمل أبى حنيفه فى الدين بزهادته وتعبده يهتدى به العباد والزهاد . فى عصره وما بعد عصره .

وأصحاب مبدأ الإرجاء يستعيدون الثبت مما صنعه العظام من رجال الإسلام . مثل سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد . إذ لم ينضموا إلى فريق من الفرق المتنازعة يوم الجمل أو يوم صفين :

وتبعهم الجمهور إذ يرجئ الفصل بين من صلوا بنار الحرب ، إلى الخالق سبحانه يوم الحساب . ويرفع عثمان وعلياً إلى مقامهما العلى بين الخلفاء الراشدين .

* * *

كانت الكوفة والبصرة فى العراق عاصمتين جديدتين للغة وللفكر وللفقه تعدو مدارسهما عدواً لملاحقة الانفعال الاجتماعى والاشتعال الفكرى بالعراق حيث تقع الحروب الداخلية أو تنشأ أسبابها . وحيث اجتهادات الفكر والفقه تسير فى خط مواز لاجتهادات المتحاربين — سعياً وراء نظام جديد للدولة تكون فيه الصدارة للعراق بدلاً من الشام .

وبلغت الحروب غايتها بقيام الدولة الجديدة . للعراق . فى عاصمتها الكوفة. ولم تجد الكوفة أو بغداد بعدُ ، رضاها فى معاملة أهل المدينة لها. ولا وجدته المدينة من الدولة الجديدة مع قيام دولة بنى العباس على أساس دينى هو عودة الخلافة إلى بيت النبى .

وكان لزاماً على الدولة أن تسعى إلى المدينة تطلب فقهها وسننها . . وسعى أول خلفائها — السفاح — إلى توطيد أركانها بسفك دماء بنى أمية فى الشام وإلى

استرضاء المدينة باستدعاء عالمها — أستاذ مالك — ربيعة بن أبى عبد الرحمن إلى الكوفة .

ولما قضى السفاح نحبه سعى أبو جعفر سعيه . إذ خلفه . فقارب مالك بن أنس وهو الذى خلف ربيعة— بل هو طاب إليه سنن المدينة ليحمل المسلمين عليها من كل أرجاء العالم .

ولم يستقر الأمر لفقهاء العراق . بعد أن انتهت إليهم ولاية القضاء بولاية أبى يوسف تلميذ أبى حنيفة وظيفة قاضى القضاة وتعيين القضاة منهم فى عهد الرشيد . مذ بزغ بمكة الشافعى تلميذ مالك. وقصد منها إلى بغداد يجلى— بجداله — فقهاءها عن مقاعدهم .

وكان سلوك فرق العراق بكثرة التفريع والافتراض وتشقيق الفكر والكلام مشغلة علماء السنة فى العراق ذاته .

فالشعبى علامة التابعين فى القرن الأول بالعراق يقول . « احفظ عى ثلاثاً : إذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك : أرأيت . فإن الله قال فى كتابه "أرأيت من اتخذ إلهه هواه" حتى فرغ من الآية . والثانية إذا سئلت عن مسألة فلا تقس شيئاً فربما حللت حراماً أو حرمت حلالاً . والثالثة إذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم وأنا شريكك » . وإذا كان الشعبى يقول ذلك لتلاميذه فمالك — كهيئة الشعبى — يجيئه من المغرب من يقول إن الأهواء كثرت فى بلاده . « فجعلت على نفسى إن رأيتك أن آخذ بما تأمرنى به . فيصف له شرائع الإسلام : الصلاة ، والصوم ، والزكاة . والحج . ثم يقول : خذ بهذا ولا تخاصم أحداً » ويقول لتلميذه ابن وهب : يا أبا عبد الله ما علمته فقل به ودل عليه وما لم تعلم فاسكت .

ومالك تلميذ عظيم فى مدرسة ابن عمر وقد كان يقول : ذرونى من أرأيت — وأرأيت . فكان مالك يسمى أهل العراق الأرأيتيين .

والسؤال عما لم يقع كالسؤال عما لا ينفع كلاهما تكلف والله تعالى يقول . (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) . وإذا كان السؤال لمعارضة

السنة والكتاب بالرأى فهو ، كالسؤال عن المتشابهات : لا ينبغى لمؤمن. والله يقول : (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه) .

ولما سئل مالك عن الاستواء على العرش قال ببساطة : الاستواء معلوم والكيف مجهول . والسؤال بدعة . ومالك فى هذا الرد يتابع رد ربيعة عندما سئل السؤال ذاته فأجاب : « الاستواء غير مجهول . والكيف غير معقول — ومن الله الرسالة ومن الرسول البلاغ — وعلينا التصديق » .

وترك الاعتراض فى مقام الطاعة والنصح محمدة . قال على : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى فاطمة من الليل فأيقظنا للصلاة فجلست وأنا أعرك عينى وأقول : « إنا والله ما نصلى إلا ما كتب لنا . إنما أنفسنا بيد الله . فإن شاء أن يبعثها » . . فولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول :

(وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) . . .

وفد حزن . جد سعيد بن المسيب . على الرسول فقال له ما اسمك قال حزن : (ومعناها فى اللغة صعب) قال الرسول . بل أنت سهل . قال حزن : لا أغير اسماً سمانى به أبى . قال سعيد الحفيد — فما زالت فينا الحزونة حتى اليوم .

والجدال الذى لا يقصد به بلوغ الحق لدد. وفيه قوله تعالى: (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام) .

ونبى هذه الأمة يقول : « أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » .

وكمثل الاعتراض ، وكثرة الافتراض ، الكلام فيما ليس تحته عمل . وكان مالك يكرهه متبعاً فيه ما جاء عن عمر حين غرب صبيغا وشرده لأنه يكثر السؤال عن أشياء من علم القرآن لا يتعلق بها عمل . وربما أوقع الكلام فيها خبالاً وفتنة .

* * *

والكلمة قوة . وهى فى زمانها أقوى ، وفى مكانها أقطع . ولذلك حق على المفتى أن يجيب مراعيا للظروف . روى ابن عباس عن ابن عوف أنه قال : « لو شهدت أمير المؤمنين — أتاه رجل يقول : لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلانا . فقال عمر : لأقومن العشية فاحذر هؤلاء الرهط . قلت لا تفعل فإن الموسم يجمع

رعاع الناس . ويغلبون على مجلسك وأمهل حتى تقدم المدينة ، دار الهجرة . ودار السنة ، فتخلص بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . من المهاجرين والانصار ويحفظوا مقالتك وينزلوها على وجهها . فقال : والله لأقومن فى أول مقام أقومه فى المدينة .

وأهل الورع يفتون أهل الورع . على مراتبهم . سألت امرأة الإمام أحمد عن الغزل فى ضوء مشاعل السلطان . فسألها من أنت ؟ فقالت أخت بشر الحافى (وكان زاهد العصر) فأجابها بترك الغزل بضوء السلطان .

وكان بشر من أولاد الرؤساء تعلم ثم تزهد . قيل له بأى شىء تأكل الخبز . قال : أذكر العافية فأجعلها له إداما . وكانت له ثلاث أخوات عابدات قانتات . منهن السائلة المشار إليها . ومنهن التى سألت ابن حنبل أيضاً : هل أنين المريض شكوى ؟ فأجاب : إنى لأرجو ألا يكون شكوى ولكن هو اشتكاء إلى الله تعالى .

ومالك لا يضن على الخلفاء بموعظة ، وينصح الولاة جهده . كان مع الوالى مرة ، فسمع أحد الرعية يثنى عليه فقال له (إياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم . فإن من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك أوشك أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك . فاتق الله فى التزكية منك لنفسك ولا ترض بها من أحد يقولها لك فى وجهك فإنك أنت أعرف بنفسك منهم. فإنه بلغنى أن رجلاً مدح عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : قطعتم ظهره أو عنقه . ولو سمعها ما أفلح » وقال : « احثوا التراب فى وجوه المداحين » .

والشيخ يستعمل مع نفسه من التحرج والتواضع والحيطة مايوجبه على العلماء كافة ، حيث يقول : « لا يكون العالم عالماً حتى يكون كذلك وحتى يحتاط لنفسه بما لو تركه لم يكن عليه إثم » .

* * *

وسماحة مالك وتيسيره الحياة للناس درس من دروس حياته يكاد يتبدى فى كل بادرة تبدر منه فيما عدا نظام الحلقة واتباع السنة . والسنة هى (الحنيفية

السمحة) وهو سمح كريم فى قوله وعمله . يقول : « لا بأس على الناس فيما أحله الله لهم » وذلك شكر لأنعم الله عليهم .

فمالك يطعم الطعام الجيد إذا كان فى متناوله . ويشتريه ما قدر عليه . ويُفضل على أهله وتلامذته . ويلقى الناس وأهله بوجه كريم مستبشر . ويرى ذلك من سنن الإسلام وعمل الصحابة . يهدى ويهدى إليه ، ويقبل جوائز الخلفاء . ولقد تلقى تلميذه أسد بن الفرات جوائز إبراهيم بن الأغلب وقال : تلك حقوقنا عنده . والله سائله عما بقى .ولم ترق وسائل الراحة التى يتوسل بها الشيخ لواحد من زهاد جيله ، فآلت إلينا كلمات معلمة تبادلاها . يقول يحيى بن يزيد النوفلى : « ... إلى مالك بن أنس . أما بعد فقد بلغنى أنك تلبس الدقاق . وتأكل الرقاق . وتجلس على الوطىء وتجعل على بابك حاجباً . وقد جلست مجلس العلم . وقد ضربت إليك المطى وارتحل إليك الناس واتخذوك إماماً ورضوا بقولك . فاتق الله يا مالك . وعليك بالتواضع . كتبت إليك بالنصيحة منى كتاباً ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى . والسلام » .

هذا الكتاب الذى لم يطلع عليه إلا الله تعالى قد ذاع على الأسماع عن طريق مالك . فلقد أراد كاتبه أن يكون درساً لمالك وأراد مالك أن يكون الكتاب والرد عليه درساً من دروسه للأمة . قال يرد فى تواضع الأئمة : « أما بعد فقد وصل كتابك فوقع منى موقع النصيحة . والشفقة والأدب . أمتعك الله بالتقوى . وجزاك بالنصيحة خيراً . وأسأل الله تعالى التوفيق . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فأما ما ذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطىء فنحن نفعل ذلك . ونستغفر الله تعالى . فقد قال الله تعالى : (قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) ، وإنى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه . ولا تدعنا من كتابك . فلسنا ندعك من كتابنا والسلام » .

وينبه الغزالى على رد مالك بقوله . فانظر إلى إنصاف مالك . إذ اعترف

أن ترك ذلك خير من الدخول فيه وأفتى أنه مباح . وهذا الذى يسميه الغزالى إنصافاً يقابله أو يكمله قول سفيان الثورى الإمام العابد الزاهد إلى أبعد الحدود : « الزهد فى الدنيا ليس بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ . إن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد فى الدنيا . وإن الرجل ليكون فقيراً . وهو راغب فيها » .

وإنما استغفر مالك من عدم تقشفه . فترة وجيزة من الدهر أو من العمر . فلقد كان فى عهد أبى جعفر قد تخطى الخمسين وكان يخفى عن جيرانه بكاء بنته من الجوع . والزهد أزكى للنفس . ولقد بين ليحيى إباحة الاستمتاع بما أحل الله من الطيبات لعباده . فإنما هو خير ساقه الله إليه . ولقد استغفر ورعاً ، لأنه قضى الربع الأخير من حياته بعد أن صلح باله فى راحة جسدية نسبية ، ليس فيها ترف . يبررها له علو سنه بالنسبة للأئمة جميعاً بما فيهم أحمد وأبو حنيفة — وإنما أتاحت له هذه الراحة أعطيات من الخلفاء لم يتخلف عنها كلها عند موته إلا ثلاثة آلاف دينار وثلثمائة دينار ونيف .

لكن مالكاً قد خلف للأمة مقولة أخرى لا تقل أهمية عن الدرسين السابقين إذ يقول : «طلب الرزق ولو فى شبهة أحسن من الحاجة إلى الناس» ذلك أنه يحض على العمل . بلغة الفقيه . والرسول عليه السلام يقول : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير من أن يسأل الناس » .

ولقد عمل الأئمة قاطبة . وعمل جلة الفقهاء وكل ميسر لما خلق له : كان ابن حنبل يعمل بالكراء ليسد خلته ، وأبو حنيفة يتجر ويبذل الآلاف من كسب يده للتلاميذ وغير التلاميذ ويقول لمن ينبهه على أن له أولاداً : الله للعيال أو يقول : وفى السماء رزقكم وما توعدون .

والشافعى يقضى حياته فقيراً كادحاً ، يعلّم أو يعمل ، وكأنما لم يكن لبدنه عليه حق . وتصدر مالك العمال فى حلقة التدريس ابتغاء مرضاة الله فهو عامل ومحتسب . وكان لزاماً أن يعلم الناس أن ليس فى الاستمتاع بطيبات الحياة بأس . فهى عدة للبقاء وحافز للتقدم فى أنفس البشر فى الحياة الدنيا ، وكان لزاماً أن يعلم الفقهاء خاصة ، وأن ينبه من تقتدى بهم الناس عامة ، على أن ترك الاستمتاع

خير من الدخول فيه . وما كان استغفاره لجريرة قارفها وإنما هو ورع الأئمة .

والعمل فى الفقه ذروة فى الفضل . قال عليه السلام ما رواه ابن عوف : (يسير الفقه خير من كثير العبادة) وما رواه ابن عمر (مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة) أو كما قال أبو الدرداء : وكان من الفقهاء الزهاد : ما نحن لولا كلمات الفقهاء[1] وصح عن ابن عباس قوله عليه السلام : «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » .

وإذا كان الفقه أشد على الشيطان من الانقطاع لمطلق العبادة فالعمل فى خدمة الجماعة وتعليمها من أعظم العبادات .

كتب بعض العباد إلى مالك يحضه على الانفراد وترك مجالسة الناس[2] فرد عليه متخشعاً فى تواضع يليق بالتعليم . قال : « إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق ، فرب رجل فتح له فى الصلاة ولم يفتح له فى الصيام . وآخر فتح له فى الصدقة ولم يفتح له فى الصيام وآخر فتح له فى الجهاد . ونشر العلم من أفضل الأعمال . وقد رضيت بما فتح لى فيه . وما أظن ما أنت فيه بأفضل مما أنا فيه . فأرجو أن يكون كلانا على خير وبر » .

---

(١) كان أبو الدرداء يسمى حكيم هذه الأمة ، وكانت زوجته أم الدرداء فقيهة مثله وزاهدة ، رفضت زواج معاوية وهو خليفة بعد موت أبى الدرداء . وفيه وفى صحبه يقول مسروق : وجدت علم أصحاب محمد انتهى إلى ستة — إلى عمر وعلى وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ وأبى الدرداء وزيد بن ثابت .

دخل المسجد يوماً ومعه الأتباع مثل ما يكون مع السلطان وهم يسألونه . إذ آثر التعليم .

يقول أبو الدرداء : بعث النبى وأنا تاجر . فأردت أن تجتمع لى العبادة والتجارة فلم يجتمعا . فرفضت التجارة وأقبلت عل العبادة.والذى نفسى بيده ، ما أحب أن لى حانوتاً على باب لا تخطئنى فيه صلاة وأربح فيه كل يوم وأتصدق . . قيل وما تكره من ذلك ؟ قال شدة الحساب . وهو القائل . أحب الموت اشتياقاً إلى ربى وأحب الفقر تواضعاً إلى ربى وأحب المرض تكفيراً لخطيئتى .

(٢) والصوفية يقولون: « لو عرف الملوك ما نحن عليه لحاربونا عليه بالسيوف ليظفروا به » .

ولعل هذا الهم "الملكى ما عناه قايتباى..وكان قد استجلب فى صباه إلى مصر ، مع مملوك آخر ، فتحدثا فى الطريق مع الجمال فى ليلة قمراء قالوا : لعلها ليلة القدر . فليتمن كل منا الأمانى . قال قايتباى : أريد سلطنة مصر . وقال زميله أريد أن أكون أميراً كبيراً . وقال الجمال : أريد حسن الختام .

ومضت الأعوام فقال قايتباى : وقد صار سلطاناً لمصر لزميله وقد صار أميراً كبيراً — لقد فاز الجمال من بيننا .

والقناعة سعادة . والطمع فقر . واليأس عناء وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الزهد فى الدنيا يريح القلوب والبدن » .

* * *

والشيخ فى قمته العالية يراسل الشيوخ العلماء ويكتب إليهم من موقع العظمة الذى استقر فيه ، وأصبح من حقه عليهم أن يلفت أنظارهم ولو كانوا أئمة !! أو كانوا من لداته . فحلقة المدينة تمكنه من روادها الفطاحل ، وموقعه بالمدينة درجة .

والريح تجرى رخاء بين مالك والليث فهما يتحاوران فى تراث المدينة أرفع حوار ، فيستفيد مالك ويفيد . وربما دلت كتابة الليث بن سعد إليه وكتابه إلى الليث ـ على بعض الأسباب التى جعلت مالكاً يرفض طلب أبى جعفر المنصور أو المهدى أو الرشيد ، إلزام الأمة كلها بفقهه ، تاركاً للأمصار فقهها . وربما دل مالكاً على ذلك جداله مع أبى حنيفة . لكن المؤكد بيقين أن فى سماحة مالك فى الفكر . ويسر المدينة . ومرونة الشريعة . الأساس لرفض طلبات هؤلاء الخلفاء .

كتب مالك إلى الليث ينبهه على أن الناس تبع للمدينة التى كانت إليها الهجرة ورد عليه الليث محرراً وجوه الخلاف . فى أروع أدب فقهى . فذكره بما شهداه معاً من خلاف أهل المدينة أنفسهم . ومن عمل الآخرين كعمر ابن عبد العزيز وأبى بكر بن حزم ويُنهى الليث الحوار بكلام عذب . « وقد تركت أشياء كثيرة أشباه هذا وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك . لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك . مع استئناسى بمكانك وإن نأت الديار . هذه منزلتك عندى ورأيى فيك فاستيقنه . ولا تترك الكتابة إلىّ بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة ؛ إن كنت إليها ، أو لأحد يوصل بك . فإنى أسر بذلك . كتبت إليك ونحن صالحون معافون . والحمد لله . نسأل الله أن يرزقنا وإياكم من شكر ما أولينا وتمام ما أنعم به علينا والسلام عليكم ورحمة الله »[١] .

---

(١) نثبت فيما يلى كتاب مالك لدلالته على منهاجه ونثبت بعضاً من رسالة الليث لطولها . مقتصر بن على أمثال منها ففيها ما يرد به الآخرون على منهاج مالك وفى الكتابين مثل بارعة لحسن الخطاب .

« من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد . سلام عليكم فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو — أما بعد . عصمنا الله وإياك بطاعته فى السر والعلانية وعافانا وإياكم من كل مكروه . =

. . . .

= واعلم رحمك الله أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مختلفة مخالفة لما عليه الناس عندنا . وببلدنا الذى نحن فيه وأنت فى أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك، خليق بأن تخاف على نفسك وتتبع ما ترجو الناس باتباعه فإن الله تعالى يقول فى كتابه : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . . . الآية) وقال تعالى: (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . . . الآية) .

فإنما الناس تبع الأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن . وأحل الحلال وحرم الحرام إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يحضرون الوحى والتنزيل ويأمرهم فيطيعونه ويسن لهم فيتبعونه حتى توفاه الله واختار له ما عنده . صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته . ثم قام بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولى الأمر من بعده ممن نزل بهم . فما علموا نفذوه . وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه . ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا فى ذلك فى اجتهادهم وحداثة عهدهم وإن خالفهم مخالف أو قال امرأ غيره أقوى منه وأولى ترك قوله وعمل بغيره . ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبل ويتبعون تلك السنن ، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولا به لم أر لأحد خلافه للذى فى أيديهم من تلك الوراثة التى لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها . ولو ذهب أهل الأمصار يقولون هذا العمل ببلدنا وهذا الذى مضى عليه من مضى منا لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة ولم يكن لهم من ذلك الذى جاز لهم .

فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك لنفسك . واعلم أنى أرجو ألا يكون دعانى إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده والنظر لك والضن بك فأنزل كتابى منزلته فإنك إن فعلت تعلم أنى لم آلك نصحاً .

وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله فى كل أمر وعلى كل حال والسلام عليكم ورحمة الله » .

وفيما يلى مقتطفات من كتاب الليث هى أمثال لعشرات من المسائل التى تضمنها يناقض فيها مالكا يقول :

سلام عليكم . فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ؛ عافانا الله وإياك وأحسن لنا العافية فى الدنيا والآخرة . قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه . وذكرت نظرك فى الكتب التى بعثت بها إليك . وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك . وقد أتتنا فجزاك الله عما أقدمت منها خيراً . فإنها كتب انتهت إلينا عنك . فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها .

وذكرت . . . وأنه بلغك أنى أفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم . وإنى يحق على الخوف على نفسى — لاعتماد من قبلى على ما أفتيهم به وإن الناس تبع للمدينة التى إليها كانت الهجرة . وبها نزل القرآن وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى . ووقع منى بالموقع الذى تحب وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء المدينة الذين مضوا ، ولا أخذاً بفتياهم فيما اتفقوا عليه منى . والحمد لله رب العالمين لا شريك له . =

. . . .

= وأما ما ذكرت من قوله تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم) ؛ فإن كثيراً من أولئك السابقين خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله . فجندوا الأجناد واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه يجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم . ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم . كانوا يكتبون فى الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه . فلم يتركوا أمراً أمر به القرآن أوعمله النبى صلى الله عليه وسلم . أو ائتمروا فيه بعده إلا علموهموه . فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قبضوا .. مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد فى الفتيا فى أشياء كثيرة . ولولا أنى قد عرفت أن قد علمتها لكتبت بها إليك . ثم اختلف التابعون بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف ثم اختلف الذين كانوا من بعدهم فحضرتهم بالمدينة ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبى عبد الرحمن .

وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت وحضرت وسمعت قولك فيه وقول ذوى الرأى من أهل المدينة : يحيى بن سعيد وعبيد الله . . وكثير بن فرقد وغير كثير ممن هو أسن منه حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه . وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك فكنتما من الموافقين فيما أنكرت تكرهان من ذلك ما أكرهه ومع ذلك فعند ربيعة خير كثير . . . رحمه الله .

وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه . وإذا كاتب بعضنا فربما كتب إليه فى الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضاً . ولا يشير بالذى مضى من رأيه فى ذلك . فهذا الذى يدعونى إلى ترك ما أنكرت تركى إياه» .

وأخذ الليث يجادل مالكاً فى خلافات فى فقه مالك ذاته ثم عاد يذكر له : « وقد بلغنا عنكم شيء من الفتيا مستكره . وقد كنت كتبت إليك فى بعضها فلم تجبنى فى كتابى . فتخوفت أن تكون استثقلت ذلك فتركت الكتابة إليك . فى شيء مما أنكرت وفيما أوردت فيه على رأيك . . . »

الباب الرابع

مجتمع المدينة

« لا يكيد أهلَ المدينة »
« أحــد إلا انمــاع »
« كما ينماع الملح فى الماء »

المجتمع هو الوجه الخفى أو الجانب الخلفى لصورة العالم الذى يعلمه ويتعلم عليه . ففيه تنبت الشجرة ، وتتجلى ملامح الصورة . وكان مجتمع المدينة فى عصر مالك يعيش فى مواريث مجد ودين وحسب ونسب ، وأموال تخوفها الإنفاق والشقاق مع العاصمة ، فأصيب بالضيقة والفاقة . وتعالى الشامخون كالقمم وإن اخترمهم الدهر . وآثر المؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة . كل أولئك مع التواصل والتراحم والسلام فيما بينهم . وهى بعض خصائص المجتمع الإسلامى .

وفى خواتيم القرن الأول ولى إمرة المدينة عمر بن عبد العزيز فأعاد ذكر جده عمر . ولما عزل ارتبط فكره بالمدينة ارتباط عقل ودين . فلما آلت إليه الخلافة على رأس القرن اتخذها طريقاً إلى الجنة . فابتغى الوسيلة لإنصاف المدينة ، والأمة . ثم عادت المدينة بعده إلى العيش الرمق . وكان مالك بن أنس طفلاً يغشى حلق الفقه ، وفى أذنه شنف ، وفى مسمعه طنين من سيرة عمر . ولجده وعمه بعمر عهد . وسيكون بين منهاجيهما وشيجة جامعة .

هذا موضوع الفصل الأول من الباب الحالى . وفى الفصل الثانى وقائع مركزة موجزة ترمز إلى خصائص هذا المجتمع . دون أن تؤدى إلى تيهاء ، فيما ازدهر فيه من شعر ، واستطار من غناء ، استمع إليه الكبراء . وما نسب من الغناء إلى عمر بن عبد العزيز ثم إلى أشهر فقهاء المدينة فى القرن الثانى وما بعده : مالك ابن أنس .

الفصل الأول

مجتمع المدينة

الحلقة عالمية الطابع لكن الشيخ « مدنى » فقط من قمة الرأس إلى أخمص القدم . بارح تلاميذها بلدانهم إلى بلده يمثلون أصقاع الجماعة الإسلامية لا يكاد يتخلف منها صقع واحد .

أما الشيخ فلا يبرح بلده إلى أى بلد – إلا كما يبرح الحاج ، إلى مكة . والشيخ عندئذ لا يبارح بلده فالحجاز إقليم واحد . والتلاميذ يتوافدون لينهلوا من المورد الذى لا مورد مثله : مورد المدينة .

كان مجتمع المدينة مجتمع الدولة الإسلامية مذ كانت الأولة من عواصمها ، ثم ظلت عاصمة عواصمها ، وظل فيها سروات وأشراف . إلى جوارهم موال وعبيد ، فيها الأغنياء والفقراء والمتعلمون والعمال ، والشعراء والنساك . وأصحاب المجون وأصحاب الغناء . وفيها النساء العظيمات كالرجال العظماء . وفيها من الأسرة الحاكمة وفيها خصومها . وبنو هاشم وبنو الصحابة إلى جوار بنى أمية وبنى العباس . وفيها العرب الأصليون ، والفرس والروم والمصريون والأفارقة ، والعراقيون والشاميون .

وفيهم ثلة أوتيت سعة من المال وقلة أوتيت بسطة من العلم .

وعاشت الحلقة بداية دولة ونهاية دولة . وعاش مالك ختام القرن العظيم وأكثر القرن الذى يليه . فرأى رأى العين كيف يغير التاريخ وجهه . فيقلب صفحة بعد صفحة ، من سقوط بنى أمية إلى صعود بنى العباس . ومن بطش الولاة بالمدينة ، والخلل والمسغبة اللذين يصحبان الهزيمة ، إلى دخول الخوارج ، وخروج العلويين ، مرة بعد أخرى ، ومصارعهم مصرعاً مصرعاً . كل أولئك رآه مالك واحتفظ بالنظرة الفاحصة لنفسه دون أن يشغب على الخلفاء أو ينفصل عن العامة . .

وكان فى قمته العالية قد رقى إليها درجة درجة . فبلغ الذروة.ثم غدا ، هو والمدينة ، شيئاً واحداً . تتلاقى فيه علومها جمعاء وتاريخها كله .

تفردت عاصمة الإسلام فى معزلها عن الحواضر الأخرى بطراز من العلاقات التى تتابعت فى القرنين . فكانت دمشق فى إبان حكم بنى أمية تحكمها بالحديد والدم . وترتجى رضاها . دون أن يحسب طغاتها حساباً لقول الرسول: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح فى الماء» فكانوا ينماعون واحداً إثر واحد وإن أرسلوا إليها يوماً رأس زيد بن على لتصلب فيها .

وكانت مكة فى خلافة ابن الزبير مقرًّا له فلفها معها فى رداء واحد . فذاقتا معاً مرارة العلقم ، وصعقات الحجاج وعبد الملك . ثم غزاها الخوارج واسترهبوها وذبحوا بنيها .

أما بنو العباس فمدوا إليها بكل سبب من اليسر والمهادنة فلم تهادن . بل راحت تثور مرة إثر أخرى . فبطش بها أبو جعفر البطشة الكبرى . وأرسل إليها رأس علوى آخر . محمد بن عبد الله بن الحسن .

وأخذ أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فقضت المدينة أياماً حسوماً نحسات ، تصب الأذى على الناس فى الأرزاق . وكان أكثرها أعطيات من الخلفاء . وحقوقاً فى بيت المال تصلهم أو تنقطع عنهم إذا رضى الخلفاء ، أو طووا كاشحين . أو أقبلت الأيام ، أو أدبرت . وكانت عيشة جمهرتها فى الجملة عيشة ضنكا . ولم تكن حياة سرواتها حياة مترفة بل كانت أدنى إلى الخصاصة منها إلى البلهنية والراحة .

لقد انقضت مائة عام أو أكثر على الأيام التى حكمت فيها المدينة العالم كله ، وجبيت إليها أموال الإمبراطوريتين اللتين كانتا تتقاسمان خيرات العالم . وعمر بن الخطاب فى مسجد الرسول يجلس حيث يجلس مالك بن أنس الآن . تزدحم ساحته بالأموال حتى يبكى عمر خوفاً على المسلمين من فساد أنفسهم بالمال ولا يدرى من كثرة المال : أيحثو لهم أم يكيل لهم بالصاع . ويسارع فى تفريقه حتى لا تتأخر الحقوق عن ذويها .

روى سعيد بن المسيب : لما قدم عمر بأخماس فارس قال : « لا يجنّها سقف تحت السماء حتى أقسمها بين الناس » فأمر فوضعت بين صفى المسجد . وأمر عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم فباتا عليها . ثم غدا عمر فأمر بالجلابيب فكشفت عنها . فنظر إلى شيء لم تر عيناه مثله من اللؤلؤ والجوهر والذهب والفضة . فبكى . فقال له ابن عوف : هذا من مواقف الشكر فما يبكيك ؟ قال : أجل . ولكن الله لم يعط قوماً مثل هذا إلا ألقى العداوة والبغضاء بينهم . . ثم قال : أنحثو لهم أم نكيل لهم بالصاع ؟ ثم أجمع رأيه أن يحثو لهم . فحثا .

وفى عصر معاوية . باع حكيم بن حزام بن خويلد (ابن أخى أم المؤمنين خديجة) داراً له من معاوية بستين ألفاً فقيل له غبنك معاوية فقال : والله ما أخذتها فى الجاهلية إلا بزق خمر . أشهدكم أنها فى سبيل الله . فانظروا أينا المغبون .

وفى عهد عثمان بيعت جارية بوزنها دراهم كما يقول ابن سيرين وبيع فرس بمائة ألف درهم ونخلة بألف درهم لأن المال كثر فى أيدى القادرين على الشراء .

وفى العهد ذاته تخارجت إحدى زوجات عبد الرحمن بن عوف الأربعة على ثمانين ألف أو مائة ألف .

وتناقل الناس أحاديث مواكب عائشة بنت طلحة وهى تحج فى القرن الأول فتزرى بموكب زوجة الخليفة عبد الملك بن مروان ، بنت الخليفة يزيد بن معاوية .

لكن أموال عائشة لم تكن من بقايا ميراث طلحة بن عبيد الله . وقد تأثرت بالميراث والأحداث ، قدر ما كانت أموالاً وافدة من بعيد . لقد مهرها زوجان كل منهما ألف ألف درهم . أما بنتها نفيسة فقد تزوجها الخليفة الوليد .

والمدينة واحة فى قفر . والرزق نزر . والزرع سقيم فى الصحارى الساخنة . قال عمر فى إحدى خطبه : إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك .

أما من عظم عطاؤه أو ثراؤه ، أو كانت لهم تجارة فى موسم الحج أو غيره ،

مع البلدان البعيدة فكانوا يستبقون الخيرات ، ويؤثرون على أنفسهم فيحملون هموم الكثرة الكاثرة . ممن لا يجدون إلا جهدهم ، وأفرغ الله صبراً على من لا يجدون . ولم يكن الأمر غمة على آخرين . فصاروا يستدينون فى انتظار ورود الأعاطى : كعطاء رجل ريش معاشه وفشا رياشه ينال الجميع من عطائه : ذلك عبد الله بن جعفر بن أبى طالب[1] .

وكان زين العابدين — على بن الحسين — من مصادر الرزق المجهولة فى المدينة . كان ناس من أهلها يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم ! فلما مات تفقدوا كل ما كانوا يؤتون به فى الليل !

* * *

مضى قرن توزعت فيه الثروات . وغلقت فيه أبواب السعى للرزق — وأمسى أهل المدينة سواسية فى مستواهم إلا من انتعش وارتاش من حواشى الحكام مباشرة أو غير مباشرة .

وتطورت السجايا فى الأسر ، مثل تطور الزمن :

كانت غلة طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه كل يوم ألف درهم واف ، وسخاؤه يفوق الخيال . ثم مضت أجيال . فعاتب الناس حفيده محمد بن عمر فى بخله ! وكان قاضياً على المدينة لأبى جعفر . فقال : لا أحيد عن الحق ولا أذوب فى الباطل .

وجرت أحكام الفقر على مالك بن أنس كما كشف الستر عنها أبو جعفر المنصور يوم وعظه مالك، فى أحد لقاءاته، بتفقد أحوال الرعية . قال الخليفة : أليس إذا بكت ابنتك من الجوع تأمر بحجر الرحى فيحرك لئلا يسمع الجيران؟ فقال مالك . والله ما علم بهذا أحد إلا الله ! قال أبو جعفر . فعلمت هذا . ولا أعلم أحوال رعيتى ؟

---

(١) سأله يزيد بن معاوية يوماً : كم عطاؤك ؟ قال : ألف ألف درهم . قال يزيد : قد أضعفناها لك قال : عبد الله . فداك أبى وأمى . وما قلتها لأحد قبلك . فضاعف يزيد عطاءه ثانية . وخرج عبد الله . وقال للخليفة جلساؤه : تعطى رجلا واحداً أربعة آلاف ألف درهم ! قال لهم : ويحكم . إنى أعطيتها أهل المدينة أجمعين . فما يده فيها إلا عاربة .

وهاجرت الدولة فى دمشق شباب قريش . وحجرت على أشخاصهم أن يبرحوا الحجاز إلا بإذن ، فانقلبوا يلهون . وانطوى الفارغون منهم على أنفسهم. ينشئون مجتمعاً خاصًّا بهم . كله المحنة والصبر والترقب .

وتراحم الناس وانقطعت الشحناء بين المضطهدين . فوجدنا أبناء الأعداء ، أصدقاء فى البأساء والضراء . ووجدنا سكينة بنت الحسين بن على يبنى بها مصعب بن الزبير ثم يبنى بضرة لها هى عائشة بنت طلحة ! هكذا يجتمع على وطلحة والزبير بأبنائهم أروع اجتماع . وهذا مثل من عشرات[1] .

وصهرت المدينة مجتمعها وأذابت خلافاتها . ورفعت أبناء الصحابة إلى أماكن الشرف فى مناصب الشرطة والفتيا ، والقضاء . فكان منهم كبار الرواة ، والمحدثين والفقهاء وكان منهم عظيمات النساء . فالمرأة العظيمة ينتجها المجتمع العظيم . وناهيك بأمهات المؤمنين ــ عائشة ، وأم سلمة ، وميمونة ، والباقيات

---

(١) إليك أمثالا أخرى تحوى معانى كبرى : فاطمة بنت الحسين بن على تتزوج من عبد الله ابن عمرو الأكبر بن عثمان ويكون لأبنائها منه أسماء الرسول وأبنائه ــ أو أم إسحق بنت طلحة يتزوجها الحسن ثم الحسين . ابنا على يتزوجان بنت طلحة ! أو حفصة بنت محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أمها خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير . وأم عروة أسماء بنت أبى بكر وأبوها محمد أمه فاطمة بنت الحسين وأم الحسين فاطمة بنت الرسول . وأم فاطمة بنت الحسين أم إسحق بنت طلحة وأم عبد الله بن عمرو ابن عثمان حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب . فهذا رسول الله وستة ممن بشرهم بالجنة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير . منهم أربعة قد اختلفوا وثلاثة قد اقتتلوا . لكنهم اجتمعوا على رأس أسرة واحدة ، يدخل فيها عبد الله بن عمر ، وعروة بن الزبير . والحسين بن على وأسماء بنت أبى بكر . ولما زاحم الحجاج بن يوسف فى معترك النبل فتزوج من أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر . قال سعيد ابن المسيب إن أباها لم يزوج إلا الدراهم . . . وأبرد عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يذكره تجاوز قدره ويأمره بتسويغ أبيها المهر وتعجيل طلاقها . فما بقى أحد إلا سره ذلك . وتزوج زيد بن عمر بن عثمان سكينة بنت الحسين بعد طلاقها من الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان . ثم طلقها زيد فبنى بها مصعب بن الزبير ثم تزوجها بعده عبد الله بن عثمان بن حكيم بن حزام ثم تزوج سكينة إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف . كذلك نجد أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر يتزوجها عبد الملك بن مروان ونجد ميمونة بنت (على زين العابدين) بن الحسين يتزوجها المهدى وأختها أم موسى يتزوجها عبد الله بن على ابن عبد الله بن عباس ثم يتزوج بعدها أختها أم حسن .

وأخريات من مثيلات أسماء[١] بنت أبى بكر وسكينة[٢] بنت الحسين فى العلم والعمل . وكان كثير من النساء يتعلمن. قالت عائشة : « نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين » وكان النبى يعقد لهن مجالس يعلمهن .

وشغلت المرأة العاملة مكانها فى المجتمع : منهن من تحترف حرفة وأكثرهن يعملن فى بيوتهن . ومن السابقات زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود الأستاذ الأعلى لأبى حنيفة . كانت امرأة صناعة تنفق على زوجها وولدها قال لها النبى : « لك فى ذلك أجر ما أنفقت عليهم فأنفقى عليهم » .

وتزوجت أسماء الزبير بن العوام . وليس له مال. فكانت تعلف فرسه وتدق النوى لبعيره وتسقى له الماء وتنقل النوى على رأسها من أرض له على مبعدة ميلين .

وتلألأت كواكب المجد فى شخصيات رفيعة المقام ، فى نسق واحد ، بالعلم والورع ، والجود والزهد : كالحسين بن على ، وابنه على زين العابدين ، وابنى زين العابدين الإمامين زيد ومحمد الباقر ، وابن الباقر الإمام جعفر الصادق —

---

(١) أسلمت مع أبيها . وخاطرت بنفسها . لإخفاء هجرته مع الرسول وبعد نحو من سبعين عاماً بايعت الأمصار ابنها عبد الله وحاربه على الخلافة مروان ثم ابنه عبد الملك وحاصره الحجاج بمكة وخذله الناس وكان يعبر السنين إلى السبعين . فذهب إليها وقد كف بصرها فقال . لم يبق عندى إلا اليسير ومن لا دفع عنده أكثر من ساعة من النهار . وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا . فما رأيك قالت مقال بناة الأبطال : إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه. فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية . فيتلعبوا بك . وإن قلت إنى كنت على حق ولما وهن أصحابى ضعفت نيتى، فليس هذا فعل الأحرار ولا فعل من فيه خير . يا ابن الزبير كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقنع به .

(٢) كانت سكينة برزة تستقبل الشعراء والفقهاء وتتذوق الشعر . زارها الفرزدق بالمدينة فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا — قالت بل جرير حيث يقول . . . فعاد لها من الغد بشعر جديد قالت بل جرير حيث يقول . . وكذلك صنعت فى اليوم الثالث .

ولما أنشدها الغريض مغنى مكة قصيدة عمر بن أبى ربيعة ومطلعها :

ألمم بزينب إن البين قد أفدا ... قل الثواء إذا كان الرحيل غدا

طلبت إليه أن يغنيها لها . فلما غناها قالت أحسنت والله وأحسن عمر وأمرت له بكل بيت ألف درهم وقالت لو زادنا عمر لزدناك .

وسنرى بعد أمثالا من تذوقها للشعر .

أستاذ مالك . يمثلون جلال بنى هاشم . وتراءى كذلك بنو تيم وبنو عدى رهط ابن الخطاب مفخرة للأمة .

وكهيئة هؤلاء كان بنو عبد الرحمن بن عوف إبراهيم وحميد وأبو سلمة .. وبنو الزبير عبد الله وعروة ، ثم بنوهم .

وكان لبنى أمية قسطهم فى مجد المدينة كأبان بن عثمان وعبد الملك بن مروان . وعمر بن عبد العزيز . وإنْ هم فصلوا عن المدينة بعد موقعة الحرة ، مخلفين أعظم الذكريات. ففيها ولد عبد العزيز وعبد الملك ابنا أمير المدينة . مروان بن الحكم. وفيها ولد أعظم رجل عند الله والناس فى دولة بنى مروان : عمر بن عبد العزيز . لتكون ولايته على المدينة آخرة أيامها العظيمة . فترتبط بمالك بن أنس قدر ما ترتبط بالمدينة وسنها وتاريخها ومجتمعها ، وبعائلة مالك .

عمر بن عبد العزيز والمدينة

كان عمر مثلا تضربه السماء للناس . فيه من صميم دنياهم وفيه من عظيم هداها ، وهو من مواليد المدينة فى سنة ٦٢ . حفيد لمروان بن الحكم وعمر ابن الخطاب معاً . أبوه عاهل مصر وأفريقية عشرين عاماً . وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. نشئ فى النعمة والحلية . وتناهت إليه أموال بنى أمية. مواريث وهبات. أما من الجانب الآخر فقدورث سمات وصفات . لجده عمر .

ولى أبوه مصر لأخيه عبد الملك فدعا إليه زوجه فرأى عمها عبد الله بن عمر أن تدع ابنها بالمدينة ليتعلم . وكان له فى أفئدة بنى عمر مكان . أنْ كان أكثر الناس شبهاً بأبيهم عمر . وسر أبوه لبقائه هنالك آصرة يدلى بها إلى المدينة . وسر عمه الخليفة . فأجرى عليه من مال الفىء فى الشهر ألف دينار .

فلما بلغ أشده زوجه من بنته فاطمة .

وصعد عمر مراتب الفقه حتى مرتبة شيخه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة فبلغ مرتبة الاجتهاد مثله .

وفى الخامسة والعشرين ولاه الوليد بن عبد الملك أميراً على المدينة ليصلح

ما أفسده هشام بن إسماعيل بشدته على بنى هاشم . وليصبح عمر آخر من أقام بالمدينة من الخلفاء الراشدين . وكانت تتيه على العالم بأعمدة العلم السبعة المسمين بالفقهاء السبعة فانضاف إليهم « الأمير » فقيهاً ثامناً . . .

وكان وهو أمير . يقصد إلى عبيد الله . فربما حجبه . وربما أذن له . كما روى أبو الزناد.حتى إذا صار خليفة كان يتلمس عونه الفكرى فيقول : لو أدركنى عبيد الله ووقعت فيما وقعت فيه لهان علىّ الأمر.

فلما ترك المدينة إلى الشام كان فقهاؤها يستفتونه . قال ميمون بن مهران: أتينا عمر فظننا أنه يحتاج إلينا فإذا نحن تلاميذه.أو كما قال مجاهد (١٠٣) أتيناه نعلمه فتعلمنا منه .

استوثق عمر لنفسه وللمدينة قبل أن يليها فقال للخليفة :«إنك استعملت من كان قبلى فأنا أحب ألا تأخذنى بعمل أهل العدوان والظلم والجور » .

قال الوليد : « اعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا درهماً واحداً » .

ولى عمر الإمارة فأخذ الناس باليسر والنصفة . وأقام الحدود . وعمل بمشورة الفقهاء . وأخذ يتعلم فى مدرسة جده كيف يحكم حكم الإسلام . . وكان أيامئذ فى عنفوان الشباب فأذن للشعراء أن ينشدوه فأنشدوه وارتجزوا بين يديه ، وسمع الأصوات وطرب لها . وتمادى فصفق بيديه ورجليه . بل وتغنى بصوت ندىّ حسن التطريب .

وكان صوته من حسنه يلهى من يستمع إليه ممن ينقطعون للصلاة بالمسجد . صلى ذات ليلة فرفع صوته بالتلاوة قريباً من مجلس سعيد بن المسيب وهو كفيف فقال سعيد لغلامه برد : يا برد نح عنا هذا القارئ فقد آذانا بصلاته . واستمر عمر فى صلاته دون أن يعرف أمر سعيد.وعاد سعيد يأمر برداً بتنحية هذا القارئ. قال برد : ليس المسجد لنا ! وأدرك الأمير . . فأخذ نعليه . . وتنحى . .

وقدم أنس بن مالك خادم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة من البصرة فصلى خلف « الأمير » ثم قال : « ما صليت خلف إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه بصلاة رسول الله من إمامكم هذا » .

وأراد الوليد أن يوسع المسجد ويدخل فيه حجرات أمهات المؤمنين فأمست المدينة غضبى لزوال آثارها الكبرى . فراح الوليد يستعين بعمر لمكانة أخواله فى المدينة . فوسع المسجد بإدخال الحجرات التسع فيه . وجوّف المحراب فكان أول محراب مجوف . ورفع المنارة . فتعالت المآذن فى الأقطار كافة . وكأنما تنقل للناس فى كل أذان فضل عمر .

وفى ذات يوم جاءه خبيب بن عبد الله بن الزبير فقال : نشدتك الله يا عمر أن تذهب بآية من آيات الله تقول : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) واستمر خبيب يتلو وعمر يغضب . ولكنه يمسك. ثم حدث خبيب عن بنى العاص – العاص جد مروان ومروان جد الوليد وعمر – « إن بنى العاص يتخذون عباد الله خولا ومال الله دولا إذا بلغوا ثلاثين رجلا » .

وجن جنون الوليد للتحدى فكتب إلى عمر أن يضرب خبيباً مائة سوط . وأطاع عمر الخليفة . فأمر بخبيب فضرب تعزيراً . ثم مات خبيب . فلما بلغ عمر موته سقط إلى الأرض فزعاً . وصار إذا بشره أحد بالجنة قال : « كيف وخبيب على الطريق ؟» فلما كادت نفسه تتلف ذهب إليه القاسم بن محمد بن أبى بكر – وهو ابن خال عبد الله بن الزبير أبى خبيب – فنصحه . فنصل عمر من ثوب الحزن الذى أطال ارتداءه .

* * *

وفى سنة ٩١ حج الوليد وقصد إلى المدينة فغدا إلى المسجد النبوى وقد أخلى له فخرج الناس إلا سعيد بن المسيب المخزومى . جلس عند القبلة فى مجلسه المألوف . ليس عليه من الثياب إلا ريطتان ما تساويان إلا خمسة دراهم ولا أحد يجرؤ على إخراجه .

وكان بين سعيد والوليد أمور . منها رفضه أن يبايع له . ورفضه تزويجه بنته ودعاؤه على بنى أمية فى كل صلاة .

وكانت معاينة القبلة غرضاً للزيارة قال عمر : « فجعلت أعدل بالوليد . . . لئلا يراه . فالتفت إلى القبلة فقال من هذا الشيخ : أهو سعيد ؟ فقلت نعم ومن حاله كذا وكذا . وجعلت أعتذر له وأقول له لو علم بمكانك لقام فسلم عليك

وهو ضعيف البصر . فقال : قد علمنا حاله . نحن نأتيه . . . فدار فى المسجد ثم جاء فقال : كيف أنت أيها الشيخ ؟ فوالله ما تحرك سعيد . فقال بخير والحمد لله ؛ فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله ؟ وانصرف أمير المؤمنين وهو يقول : هذا بقية الناس وأنا أقول . أجل يا أمير المؤمنين» .

واستشعر الوليد غضب المدينة فخطب قاعداً تكبراً وغلظة .وترضى السادات بعطاياه . . . فنفر الفقراء .

وكان الحجاز محل مراقبة الخليفة فهو ميدان معركة ابن الزبير التى لم تجف دماؤها بعد . ولعمر عرماء ، مثل الحجاج وهو يفتك بالبشر تثبيتاً لدعائم الدولة ، وعمر لا يكف عن استهجان بطشه . مهما قدم للدولة من فتوحات فى آسيا . فالدول تحيا قليلا بالنصر لكنها تحيا دائماً بالنصمة .

وفتح عمر أبواب المدينة لمن يتعنتهم الحجاج من أهل العراق رحمة بالأمة وكتب للوليد يشكو بطشه بالبشر . وكان رد الوليد أن عقد للحجاج إمرة الحج فى سنة ٩٢ ! ! فهاج الناس وماجوا بالمدينة . فكتب عمر إلى الوليد يستعفيه أن يمر الحجاج بالمدينة فأمره أن يسلك إلى مكة غير سبيل المدينة .

وفى العام التالى عزل الوليد عمر بعثمان المرى بعد سنوات ست لم تشهد مثلها المدينة منذ قتل عثمان . وستعقبها سنوات ست أخرى .يتناول فيها نفسه بالتطهير ، والخليفة بالنصح ، ليعد نفسه لتكون غداً مثل أنفس الصحابة . بل ليكون صاحبها فى خلافته خامس الخلفاء الراشدين .

ولم تطل أيام الوليد ولا خلافة سليمان بعده .وأصبح أمير المدينة السابق أميراً للمؤمنين لكنه رعى المدينة وأهلها وسننها فى المقام الأول . حتى لتعتبر أيامه فى الخلافة امتداداً لأيامه فى المدينة .

عمر — الثانى — يجتهد

أعلن عمر عزمه لإعادة الدين غضاً مرات . وحسبنا مثلا عليها بعض عبارات .

الأولى من قبل أن يلى الخلافة ، يوم آلى على نفسه الألية الخالدة . لرجاء بن حيوة « فوالله لئن ابتليت بذلك . وإنها شرف الدنيا . لأطلبن بها شرف الآخرة » .

والثانية يوم أعلن طريقته فى الفقه أنها الاتباع الدقيق للسنة فقال : «سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله . وقوة على دين الله . من عمل بها فهو مهتد . ومن استنصر بها فهو منصور . ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين . وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا » .

والثالثة يوم أعلن طريقته فى الحكم : الاتباع الكامل . ولا اتباع مثل اتباع جده . فكتب إلى مستشاره السابق بالمدينة وهو حفيد آخر لعمر ، سالم بن عبد الله يقول : «فقد ابتليت من أمر هذه الأمة من غير مشاورة منى ولا إرادة يعلم الله ذلك . فإذا أتاك كتابى فاكتب إلى بسيرة عمر بن الخطاب فى أهل القبلة . وأهل العهد فإنى سائر بسيرته إن الله أعاننى » ، فنصحه سالم : إنك لست فى زمان عمر ولا فى مثل رجال عمر . . . ولا يمنعك من نزع عامل أن تنزعه أن تقول لا أجد من يكفينى مثل عمله . فإنك إن كنت تنتزع لله وتستعمل لله أتاح الله لك أعوانا وأتاك بهم . فإنما قدر عون الله للعباد على قدر النيات فمن تمت نيته تم عون الله له .

* * *

لقد صحت نية عمر فلم يثبطه أنه فى زمن غير زمان جده . فأعلنها معركة إلى الجنة . وبدأ الجهاد إليها بنفسه وزوجه وولده . فإذا صدق الجهاد ، بهؤلاء . بلغ الجهاد غرضه ولو كان صعوداً بالدنيا إلى السماء .

وكأنما كان يعرف أن أيامه معدودات فضن بالساعات . عزل قبل أن يدفن الخليفة السابق . واليى مصر وأفريقية لظلمهما ، واسترجع جيش مسلمة ابن عبد الملك . الذى جمده البرد والجوع فى حصار القسطنطينية ورجع إلى نفسه

فنزع ثيابه ، وكان لباساً ، فلبس كساء بثمانية [1] دراهم وباع ما عنده من متاع ولباس وعطر ، بثلاثة وعشرين ألف دينار . . . دفعت إلى بيت المال . وقرّبت إليه مراكب الخلافة فدعا بمولاه مزاحم فقال له : هذه البراذين والخيل وهذه السرادقات . . . ضمها إلى بيت مال المسلمين . ورأى قميص ابنه وقد تمزق من ازدحام الناس عليه فقال له : يا بنى أصلح جيب قميصك فإنك لم تكن أحوج إلى ذلك منك اليوم .

وأودع جواهر زوجته فاطمة بيت المال ، فلما أحس منها عدم رضى خيرها بين اللحاق بأهلها وبين أن تقيم عنده ، وأعلمها أنه شغل عن النساء بما فى عنقه فرضيت . ودفعت حليها إلى بيت المال . فلم تستردها حتى بعد أن مات . . وضيق عليها وبنيها . فكانت تقول : «وددت لو أن بيننا وبين هذه الإمارة ما بين المشرقين» ! وبعثت إليه بنت له بلؤلؤة وقالت إن رأيت أن تبعث إلىّ بأختها حتى أجعلها فى أذنى فبعث إليها بجمرتين وقال : إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنيك بعثت إليك بأخت لها .

وقدمت إليه امرأة من العراق قالت : هل على بيت أمير المؤمنين حاجب ؟ قالوا لا . فدخلت من غير إذن على زوجته فاطمة وفى يدها قطن تعالجه . . فلم تر فى البيت شيئاً ذا بال . فقالت : إنما جئت لأعمر بيتى من هذا البيت الخراب ! فقالت لها فاطمة — إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك .

وكان له غلام يحتطب يقال له « درهم » فسأله ما يقول الناس يا درهم ؟ قال : الناس كلهم بخير أما أنا وأنت فبشر . . . قال فأنت حر . فاذهب ودعنى وما أنا فيه حتى يجعل الله لى منه فرجا .

وغاب بعد استخلافه ليالى يجمع سجلات قطائعه وقطائع بنى مروان وعهود

---

(١) شهد جده — عمر بن الخطاب — فى قدم كاتب حدث من كتاب عماله — زياد بن أبيه — حفين ساذجين وفى يده عصا رأسها حديد . وعليه ملابس كتان . فغمز العصا فى خفه حتى مزقه وأدمى قدمه . فلما عاد فى اليوم التالى رجع فى خفين غليظين وثوب من قطن بغير عصا . فلما رآه قال . هكذا وقال : بكم الخفان ؟ قال زياد بدرهم واف — فأعطاه درهماً وقال اشتر لى مثلهما

الأموال التى تجرى عليهم . وكانت نحو نصف بيت المال . ثم نادى : الصلاة جامعة : وصعد المنبر فقال — أما بعد فإن هؤلاء — يقصد آباءه — أعطونا عطايا ما كان لنا أن نأخذها . وإنى قد رأيت ذلك . ليس علىّ من دون الله محاسب . وإنى قد بدأت بنفسى وأهل بيتى . فجعل يقرأ السجلات و يمزق ما يقرأ وأمر أن ينادى فى الأمة . أن ليس لأحد إلا ما فى كتاب الله .

قيل له لو أخذت من بيت المال ما كان يأخذ عمر بن الخطاب. قال: إن ابن الخطاب لم يكن له مال . أما أنا فمالى يغنينى . ثم جعل نفقته فى ماله درهمين . وأبقى لنفقة بيته عيناً بالسويداء عملها من صلب عطائه فكانت حلالا خالصة تعطيه فى العام مائتى دينار .

ورجع إلى سائر بنى أمية يأخذهم بما أخذ به نفسه فهان أمرهم عليه.وسمى أموالهم مظالم وجعل رد المظالم مشغلته . فطلبوا إليه أن يبرحوا دمشق سعياً وراء الرزق فأذن لهم . وأنفذوا إليه عمته قالت : أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيبا ! قال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة لا وقانى الله شره . . ودعا بدينار ونار فلما احمر الذهب قال : يا عمة أما ترثين لابن أخيك من مثل هذا ؟ وأخذتها الموعظة . فعادت إلى قومها تقول : تزوجون ابنكم عبد العزيز من آل عمر فإذا نزع ابنه إلى الشبه جزعتم ! !

وبعث عمر إلى الأمصار معلمين للسنن وكتب إلى الولاة يكلفهم أن يقضوا ديون الغارمين . فكتبوا له — إنا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس . والأثاث فى بيته فكتب إليهم: « لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه . وخادم يكفيه مهنته وفرس يجاهد عليه عدوه وأثاث فى بيته . فهو غارم . فاقضوا دينه » .

وانطلق يوزع على الناس حقوقهم — حدث يحيى بن سعيد (١٤٣) قال بعثنى عمر على صدقات أفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً . ولم نجد من يأخذها . قد أغنى عمر الناس . فاشتريت رقاباً فأعتقتهم . وولاؤهم للمسلمين . ذلك فى أقصى الأرض بأفريقية وهو كذلك بالمدينة .

حيث حدث رجل من ولد زيد بن الخطاب « إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء. فما يبرح حتى يرجع بماله . يتذكر من يضعه فيهم فما يجده ؛ فيرجع بماله . قد أغنى عمر بن العزيز الناس » .

* * *

كان فى دمشق وعقله فى المدينة . كتب إلى أهلها : من تعبد بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح . ومن عد كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه . ومن جعل علمه غرضاً للخصومات أكثر التنقل .

ولم يكن يجيئه رجل إلا سأل عن أهلها كافة . سأل رجلاً مرة . ما حال المساكين الذين كانوا يجلسون فى مكان كذا . قال : قاموا يا أمير المؤمنين. قد أغناهم الله .

وقدم عليه زياد بن أبى زياد [١] من المدينة فى حوائج لمولاه ابن عياش فقال : السلام عليكم ونسى السلام بالإمارة فعاد يسلم بها . قال أمير المؤمنين يا ابن أبى زياد إننا لسنا ننكر الأولى التى قلت . . . ومشى إلى زياد وهو جالس على أسكفة الباب حتى جلس بين يديه ووضع يديه على ركبتيه وقال : يا ابن أبى زياد استدفأت فى مدرعتك واسترحت مما نحن فيه ؟ ثم سأله عن صلحاء المدينة فما ترك منها أحداً . . وأعطاه من ماله عشرين ديناراً قائلاً : استعن بهذه . فإنه لو كان لك فى الفىء حق أعطيناك حقك وأبى أن يأخذها فما زال به حتى أخذها . ثم قضى حوائج ابن عياش. وخرج. فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه له ولأصحابه يأخذون ما يشاءون فنظر الخادم إلى عمر فاقتحمته

---

(١) زياد بن ميسرة – وكان عبداً – هو مولى عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة القرشى . وكان عمر يستريره ويكرمه يروى عنه مالك بن أنس أنه كان عابداً معتزلا لا يزال يذكر الله . ويلبس الصوف ولا يأكل اللحم وقال محمد بن المنكدر ، شيخ مالك ، للناس يوماً : إنى حلفت زياد بن أبى زياد يخاطب نفسه فى المسجد ويقول : أتخرجين إلى أحسن من هذا المسجد ! تريدين أن تبصرى دار فلان ! مالك يا نفسى غير الخبز والزيت

عينه ففعل فدخل زياد فأخذ لنفسه بضعة وثمانين درهماً . فلما رأى الخازن ذلك قال : أمير المؤمنين أعلم بمن يسلطه على بيت المال .

وكتب عمر إلى ابن عياش يطالب أن يبيعه زياداً ليعتقه فأبى أن يبيعه وأعتقه.

كان الناس يقومون له فى المجلس فيقول لهم : إن تقوموا نقم—وإن تقعدوا نقعد . وإنما يقوم الناس لرب العالمين .

وكان فقيهاً . وأى فقيه . جاءه مصرى من « حلوان» يقول إن أباه عبد العزيز غصب ضيعته فى إبان ولايته . وعنف على عمر فقال عمر: نازعنى منازعة كريمة ولا تشتم عرضى فإن لى فيه شركاء . إخوة وأخوات . وهؤلاء لا يرضون أن أرد لك الضيعة بغير قضاء . والرأى أن تذهب إلى القاضى . . وظهر أن الأرض للرجل فقال عمر : قد أنفقنا عليها ألف دينار . فنظر القاضى فإذا عمر وأهله قد أخذوا منها قدر ما أنفقوه . فقال : قد أخذتم منها بقدر ما أنفقتم. فقام عمر فرد الأرض قائلاً للرجل بارك الله عليك .

وكتب إليه عدى بن أرطاة يستأذنه فى أن يمس الناس بسوء ليحصل منهم على إقرار بما عليهم من الخراج فكتب إليه « العجب كل العجب من استعانتك إياى فى عذاب البشر . كأنى جنة من عذاب الله . فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إلىّ من أن ألقاه بعذابهم » .

وشكا عدياً إليه رجل فأشكاه ورد إليه أرضه ثم قال له : كم أنفقت فى مجيئك إلىّ ؟ قال لا تسألنى عن نفقتى .وقد رددت إلىّ أرضاً خيراً من مائة ألف ؟ فقال إنما رددت إليك حقك . وأمر له بالمصاريف من بيت المال.فلما ولى صاح به : خذ خمسة دراهم من مالى فكل بها لحماً حتى ترجع إلى أهلك إن شاء الله .

دخل عليه غلام مع أبيه . فسأل أباه ماذا تعلمه؟ قال: الفقه . قال: علمه الفقه الأكبر . قال وما الفقه الأكبر . قال : القناعة وكف الأذى .

ودخل عليه رجل من قريش لا ترده الخلفاء عن حاجة فطلب إليه طلباً لا يجوز— فرده فخرج مغضباً . فناداه فرجع فقال له: «إذا رأيت شيئاً من الدنيا

فاعجبك فاذكر الموت فإنه يقلله فى نفسك . وإذا كنت فى شيء من الدنيا قد غمك فاذكر الموت . فإنه يسهله عليك . وهذا أفضل مما طلبت» .

وتناهى عمر فى الأمر برد المظالم إلى حد التشجيع على الشكوى بالإغداق . فكتب إلى أهل المواسم ليقولوا للناس إن أمير المؤمنين يقول: «أيما رجل قدم علينا فى مظلمة أو أمر يصلح به خاصاً أو عاماً من أمر الدين فله ما بين مائة دينار إلى ثلثمائة دينار بقدر ما يرى من الحسبة . وبعد الشقة . لعل الله يحيى به حقاً أو يميت باطلاً . أو يفتح من ورائه خيراً» .

* * *

لم يكن يهتم بزيادة الدولة ولكن زيادة العدل كانت همه ، كتب إلى واليه ليرسى دعائم الدولة على أركانها : «إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها.. فالوالى ركن . والقاضى ركن. وصاحب بيت المال ركن.والركن الرابع أنا (يريد الخليفة) . فعمر لايقول مقالة أبى جعفر المنصور . إنما أنا ظل الله فى الأرض . فهو أفقه وأورع ، وهو فوق فقهه وورعه أعدل ، وأعلم . فالوالى أداة الحكم التى تمسك الرعية وتخدمها والقاضى مقدم على صاحب المال . فالعدل والولاية عند عمر صنوان . يسبقان كل الأركان . بما فى ذلك وظيفة الخليفة التى أجاءها الخليفة إلى المحل الأخير .

ولم يكتف عمر بالرجوع إلى آراء العلماء : بل راح يستعملهم . أرسل أبا الزناد الفقيه كاتباً أو مساعداً لعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب فى خراج العراق . وولى الحسن البصرى (١١٠) حيناً على قضاء البصرة . مثلما استعمل يحيى بن سعيد على أفريقية وميمون بن مهران[1] على خراج الجزيرة وسليمان بن يسار (على سوق المدينة) وأبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم على

---

(١) صلى فى سبعة عشر يوماً سبعة عشر ألف ركعة . قال فيه عمر بن عبد العزيز . إذا ذهب هذا وضرباؤه صار الناس رجراجة» ولاه عمر قضاة الجزيرة وخراجها فبعث يشكو شدة الحكم والجباية فكتب إليه: «إنى لم أكلفك ما يعنيك . اجتن الطيب . واقض بما استبان لك أنه الحق فإذا التبس عليك الأمر فارفعه إلى . فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا» . وكان ميمون فى السبعين من عمره فى خلافة عمر ومات سنة ١١٠ عن ثمانين عاماً

المدينة وما كان يقدم على أبي بكر كتاب من عمر إلا وفيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة . أو قسم أو تقدير عطاء . حتى خرج عمر من الدنيا . قال : كتب إليّ عمر أن أستبرئ الدواوين فأنظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فأرده إليه . فإن كان أهل المظلمة ماتوا . فادفعه إلى ورثتهم . وكتب عمر إليه مثلما كان جده يكتب إلى قضاته : وإياك والجلوس في بيتك . اخرج إلى الناس . آس بينهم في المجلس والنظر . ولا يكن أحد من الناس آثر عندك من أحد . ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين . . وإذا أشكل عليك فاكتب إليّ .

وكتب إليه في أول خلافته . عندما وقع في يده كتاب منه إلى سليمان ابن عبد الملك يطلب شمعاً يستضيء به الناس في طريقهم إلى المسجد بين المغرب والعشاء : « أما بعد فقد قرأت كتابك الذى كتبت به إلى سليمان بن عبد الملك وكنت المبتلى بالنظر فيه دونه . كتبت .. وتذكر أن الشمع الذى عندك نفد ولعمري قد طالما رأيتك تخرج من منزلك إلى المسجد في الليلة المظلمة الوحلة بغير ضياء . ولعمري لأنت يومئذ خير منك اليوم » .

وأبو بكر يعمل ليل نهار لاستحثاث عمر إياه . فلقد كان عمر يحس أن أيامه معدودات . وإلى أبي بكر وضّح عمر حقوق أفراد المسلمين في بيت المال فقال : « افرض للناس العطاء إلا لتاجر» .

فالتاجر قادر أو موسر .

ولما تولى يزيد بن عبد الملك نزع أبا بكر بن حزم من إمرة المدينة وولى عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري . فدخل عليه أبو بكر فلم يعرف له حقه. فقال له : هذا شيء لا تملكه قريش للأنصار . وجلس في بيته وحذره . فلقد كان يريد مثلاً للفساد. وكان واليه مثلاً للشقاء . . . ضرب أبا بكر ظلماً . وجزت السماء ظلمه بالعدل . فعزل سنة ١٠٤ ثم قال شاهد عيان فيما بعد . . . فرأيت عبد الرحمن بن الضحاك وعليه جبة صوف يسأل الناس .

. . .

كانت « المدة » كما أطلق المسلمون على الشهور الثلاثين من خلافة عمر ، ثورة دينية واجتماعية . جاءت من عل . فدلت بما حالفهما من النجاح على أن الإصلاح مستطاع أبداً ، دون سفك أو قسوة . وعلى يد رجل واحد يهب له نفسه . . وعلى أن صلاح الدنيا مقترن بصلاح الدين . والناس يرمون الإمام بالحدق ، من بعيد ، فيرونه بجمعه . ويرون منه ما لا يراه من نفسه . والصحة فيه تعدى كما يعدى المرض .

لقد بلغ عمر بحكمه أن أغنى الناس فى الحياة الدنيا ثم بلغ ما هو أعلى : أن يقودهم إلى طريق الجنة .

ودلت هذه « المدة » — وما كانت إلا مُديدة — على أن طول الزمن أو قصره ليس بذى بال . وإنما الأثر للقوة والعمق . والقوة فى الصدق. والعمق فى ابتغاء وجه الله وحده .

وحق لعمر أن يقول لمولاه وهو يتهيأ للحج : «.. إن لى نفساً تواقة لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هو أرفع منها حتى بلغت اليوم المنزلة التى ليس بعدها منزلة . وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة » .

* * *

أصبح عمر أقرب الخلفاء الراشدين الخمسة إلى مالك ، فقد عاش حداثته فى أيامه ، وبلغ أشده فى ذكرياته . وكان جده وعمه يدخلان عليه . وأصبحت سيرته علماً من علومه . وكأنما كانت توجيهاته للفقهاء توجيهات مباشرة لمالك ، والزهرى وأبو بكر بن حزم فى صدارة هؤلاء . الأول عاش عشرة أعوام ولمالك حلقة ، والثانى عاش بضعة عشر كذلك .

وسنرى أثر ذلك فى عمله الفنى الأشهر — الموطأ — وفى المحيط الذي أحيط به وكان إذا ذكر كلماته اهتز طرباً وباهى بأنها كلمات عمر ! ! وأصبح مالك أول وأعظم من درس لتلاميذه سيرة عمر . وشمل الكتاب العظيم الذى وضعه تلميذه عبد الله بن عبد الحكم ، عن عمر ، روايات مالك .

* * *

وبموت عمر سنة ١٠١ مسموماً . على قول ، أو من إجهاد نفسه على قول آخر ، عادت الأمور تجرى فى أعنتها بيزيد بن عبد الملك . (١٠١ — ١٠٥) وكان ولى العهد بوصية من سليمان لم يغيرها عمر خوف الفتنة . وكان يزيد جماعاً لرذائل بنى أمية ومروان . من سلب الثروات والانغماس فى الشهوات . فكان بداية النهاية . وإن تأخرت ، شيئاً ، لإمساك أخيه هشام بالزمام . وحسبنا عنواناً على فساد حكمه وحياته أن لعبت سلامة وحبابة المغنيتان دوراً رئيسيًّا فى بلاطه ، وفى نشاطه . طرب يوماً ، وعنده حبابة وسلامة ، فقال : دعونى أطير ؛ قالت حبابة : إلى من تدع الأمة ؟ ! ولعله كان باخعاً نفسه يوم ماتت حبابة لولا نصح أخيه مسلمة أن يتماسك بين الناس ومع ذلك لحقها بعد موتها بأيام سبعة .

وخلفه هشام (١٠٥ — ١٢٥) وكان يقرب العلماء كالزهري وأبى الزناد لكنه لا يتسامح فيما يمس الدولة . خرج عليه زيد بن على سنة ١٢٢ . وكان عالم عصره وخرج أهل الكوفة للقتال معه . فقتل .

وهرب ابنه يحيى إلى خراسان فقتل فى سنة ١٢٥ . فسمت كل والدة بخراسان وليدها فى ذلك العام باسمه.وكان قتله ذريعة لإشعال الخراسانيين الحرب التى انتهت بقيام دولة بنى العباس . وكان لهشام ابن من قادته المغاوير هو معاوية أبو عبد الرحمن الداخل . الذى أقام دولة الأمويين بالأندلس بفراره من سفك بنى العباس .

ولى المدينة لهشام خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل من ١٠٥ إلى ١١٥ — وهى الفترة التى جلس فيها مالك للتدريس . أول ما جلس . فلما عزل وليها خالد بن عبد الملك بن الحرث بن الحكم بن أبى العاص .

وخلف هشاماً الوليد بن يزيد (١٢٥ — ١٢٦) فتهتك تهتك أبيه . ولما حملت إليه رأس يحيى بن زيد استعرضها فى وليمة !

وفى سنة ١٢٦ أخذ يزيد بن الوليد البيعة لنفسه . وقتل الوليد . فنقص يزيد أعطيات المدينة فأطلقت عليه : يزيد الناقص .

وفى سنة ١٢٦ مات يزيد وخلفه إبراهيم بن الوليد . وفى سنة ١٢٧ دخلت جيوش مروان بن محمد بن مروان مدينة دمشق . ثم أخذ مروان البيعة لنفسه وقضى سنوات خمساً يحارب أهله والخوارج الذين دخلوا المدينة سنة ١٣٠ بقيادة أبى حمزة المختار بن عوف الأزدى — بعد أن قتل من أهلها ألفين ونيفا .

وكان واليها عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك . فسفر بينه وبين أبى حمزة السفراء : عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ومحمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر وعبد الله بن عمر . . ابن عمر بن الخطاب ، ومعهم ربيعة الرأى فى رجال أمثالهم ، وطبق أبو حمزة على الوفد مبادئ الخوارج . فعبس وبسر فى وجه الأولين — حفيدى على وعثمان — وبشر فى وجه الثالث والرابع حفيدى أبى بكر وعمر . وقال لهما : والله ما خرجنا إلا لنسير بسيرة أبويكما . قال له عبد الله بن الحسن : والله ما جئناك لتفضل بين آبائنا ولكن بعثنا الأمير إليك برسالة وهذا ربيعة يخبرك بها .

وهكذا لا نجد مالكاً يسفر بين السفراء وهو قد قارب الأربعين . فلم تكن حلقته عند ذلك ، لتحجب أضواء حلق الآخرين . وسفر ربيعة مع أبناء على وعثمان وعمر وأبى بكر رضى الله عنهم .

واستمر مروان يحارب ليثبت ملكه حتى جاءته جيوش العباسيين من خراسان فانهزم وفر إلى مصر حيث قتل .

* * *

بنو العباس

وقامت دولة بنى العباس سنة ١٣٢ .وانتقل مقر الخلافة من دمشق إلى الكوفة فازدادت الخلافة بعداً من المدينة . وانطلقت شياطين البطش — فسفك السفاح . (١٣٢ — ١٣٦) دماء بنى أمية وروى عمه داود بن على رماحه من الدم

بما لم يسمع التاريخ مثله [١] وولى الخلافة بعده أخوه أبو جعفر المنصور (١٣٦ـ ١٥٨) فكان يبطش البطشة الكبرى بخصومه وقواده . وكأنه يتنفس ! حتى إذا كانت سنة ١٤٤ عرف ما يدبره بنو على ضده بالمدينة فأوفد الرسل إلى عبد الله ابن الحسن والد محمد بن عبد الله. وقد سبق أن بايعه أبو جعفر : وكان مالك ابن أنس يحمل أعلام الفقه خفاقة فى الأفق. من ثلاثين عاماً . لا يقاربه الخلفاء ولا يقاربهم — أما بنو على فليس هواه معهم . ولهذا كان محل ثقة أبى جعفر فكان سفيره إلى عبد الله بن الحسن .

---

(١) فى سنة ١٣٢ نادى قائد السفاح بالأمان لبنى أمية فاجتمعوا إليه وفيهم محمد بن عبد الملك ابن مروان وأبناء إخوته هشام ويزيد وسليمان وثمانون رجلا من بنى أمية فلما اجتمعوا آمنين قال أحسبت بنو أمية أن سيرضى هاشم عنها ويذهب زيدها وحسيها ! فوضع الجند الأعمدة يتبه خوذهم وأتوا على آخرهم ، وفى سنة ١٣٣ جمع السفاح بقية بنى أمية ليقتلهم فقال له عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على : يا أخى إذا قتلت هؤلاء بمن تباهى ؟ أما يكفيك أن يروك رائحاً وغادياً فيما يسوءهم ! — فقتلهم .

وفى سنة ١٣٣ قتل قواد يحيى بن محمد أخى السفاح ثلاثين ألفاً وفى سنة ١٣٤ دخل سليمان بن هشام طاعة السفاح وسفك السفاح دمه !

الفصل الثانى

الشعر والغناء فى الحجاز

« لست من دد ولا دد منى »
« ولست من الباطل ولا الباطل منى »
(حديث شريف)

استسلمت المدينة لقدرها المقدور عليها . وضمر حجم التجارة . وهى والعمل والعلم من قديم صناعات الأشراف وسواد الناس .

واتسمت الحضارة بميسمها الأول . فوجدنا العمال الفقهاء والفقهاء العمال ... المسيب أبا سعيد زياتا . وأيوب السختيانى يبيع جلود السختيان ؛ ثم ميمون بن مهران بزازا . ومالك بن دينار وراقا يكتب المصاحف . وكان من بنى عيينة بمكة خزازون عشرة .

وتتابعت أسماء أصحاب الصناعات من الفقهاء العالميين فى بلاد الإسلام تتابع أسماء الصناعات ذاتها مثل الصفار (من يبيع الأوانى الصفرية) والجصاص والحلوانى والخصاف والتيان (من يبيع التين) والقدورى والبقالى والكرابيسى (من الكرابيس = الثياب) وابن الساعاتى [1] وكانت بنته من الفقيهات كزوجة الكاسانى . كانت بنت علاء الدين السمرقندى من الفقيهات . تخرج الفتوى منها وعليها خطها وخط أبيها ، فلما تزوجت صاحب البدائع كانت الفتوى تخرج وعليها خطها وخط أبيها وخط زوجها . وقد آثره أبوها على جماعة من ملوك الروم المسلمين خطبوها منه . وتتابعت بالمدينة أسماء الفقيهات فى بيوت العلم العريقة ومنهن فاطمة ، زوجة عبد الله بن أبى بكر بن حزم . وفاطمة ست

---

(١) أحمد بن على شيخ الحنفية (٦٩٤) أبوه صانع الساعات التى اشتهرت بعصر المستنصر ببغداد .

مالك – أم أبيها – وعمرة بنت عبد الرحمن وأم الدرداء زوج أبى الدرداء وزينب بنت أبى سلمة كمثل آخريات كثيرات لسن إلا تلميذات بارعات فى مدرسة المدينة . يقتفين آثار عائشة وأم سلمة . فى دين يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

وكان من رائع الصور أن يتخصص أبناء الخلفاء الراشدين ، وكبار الصحابة لا فى البلهنية والرفاهية ولكن فى الفقه والزهادة كمثل ما صنع عبد الله بن عمر ثم ابنه سالم والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، وابنه عبد الرحمن ، وعروة بن الزبير ، وأخوه عبد الله ، وإبان بن عثمان بن عفان . وعلى زين العابدين بن الحسين بن على وابناه زيد والباقر .

والقاسم وسالم وزين العابدين أبناء خالات أمهاتهن بنات يزدجرد ملك الفرس وكمثلهم أبو سلمة بن عبد الرحمن ، أمه تماضر بنت الأصبغ ، ملك قبيلة أخضعها أبوه عبد الرحمن بن عوف فى عهد الرسول . . .

ويتنازع المؤرخون فى سالم وأبى سلمة أهما من الفقهاء السبعة أم أن أبا بكر ابن الحارث هو السابع وأبو بكر نفسه ابن أخ لأبى جهل زعيم قريش فى الجاهلية . . .

وفى هذا المحيط العلمى ومهبط الوحى نشأ عمر بن عبد العزيز . فصار من العلماء قال : «خرجت من المدينة وما أحد أعلم منى . فلما قدمت الشام نسيت» .

* * *

وفى العصر ذاته تجمع فى الحجاز بمكة والمدينة والطائف كثيرون ممن اعتزلوا الحياة السياسية ، وقليلون ممن عادت على أصولهم الفتوحات بالثراء . أو أجزلت لهم الدولة العطاء . وساعدت أموال الحجيج أحياناً فى اقتصاد الحجاز فوجدت العمائر وزادت طوائف الخدم والرقيق . ووجدت رفاهة فكرية بل وجدت رفاهة مادية فى ثلة قليلة تنساب الخيرات منها إلى الناس .

واشتهرت بالمدينة مجالس سكينة بنت الحسين بن على . وعائشة بنت طلحة ابن عبيد الله ، وقد اجتمعتا سنوات ، لرجل واحد هو مصعب بن الزبير .

حتى لقى مصرعه فى حرب أخيه عبد الله ، دفاعاً عن خلافته بمكة ، ضد عبد الملك .

لكن الرفاهة كانت وقفاً على هذه الطبقة ، وحسبك دليلا على انحصارها فيها أن يكون على رأسها عبد الله بن جعفر أو هاتان . وهما لا تتكرران أباً أو جداً أو زوجاً ، أو مواريث فضل أو مال .

وكان سائر الناس يمدون أبصارهم إلى العواصم فى انتظار عطاء أو تجارة أو بر يقدم على الواحة الخضراء فى الصحراء .

ومضى الدهر الذى روى عنه مالك : كان رجل من الأنصار يصلى فى حائط له (بستان) فى القفّ — واد من أودية المدينة — فى زمان الثمر والنخيل ، فهى مطوقة بثمرها ، فنظر إليها فأعجبته ثم رجع إلى صلاته فهو لا يدرى كم صلى : فقال : لقد أصابتنى فى مالى هذا فتنة . فجاء عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة فذكر له ذلك وقال : هو صدقة فاجعله فى سبيل الخير . . فباعه عثمان بخمسين ألفاً فسمى ذلك الحائط الخمسين .

وتخلف عن رفاهة القلة ما شاعت المدينة من ازدهار فى الشعر والأدب والسماع .

وتغير الدهر وعرفت بالمدينة معاقرة الخمر ، ونظم فيها الشعر ، وانشغل ولاة السوء عن تطبيق الحدود . فإذا بنا نقرأ بالحق أو الباطل — فى بيت شعر واحد أسماء فتية عرفوا فى مجتمع المدينة بعد انتقال الخلافة إلى دمشق ، أنضى الاستهتار سيرهم فهزل الشعر أوزانـهم . قال الشاعر :

إذا أنت نادمت العتير وذا الندى جبيرا وعاطيت الزجاجـة خالدا

* * *

وساعد الفراغ والجدة ، وأسباب الترف والدعة ، على استعلاء شأن الغناء . وفرح بنو أمية بأن تلهو المدينة الغضبى عن الشحناء فى دمشق مع الخلفاء . وسعدوا بما قد يشوه صورة المدينة فى أذهان الأمة .

فلما أصبح الغناء فنًّا فى المدينة له نجومه ، أصبحت دمشق أول المستوردين له . وتابعتّها بغداد عندما صارت عاصمة .

لقد مات أو كاد - يزيد بن عبد الملك فى هوى «حبابة » وقد اشترّاها وسلامة القس من المدينة . وكان ثمن سلامة وحدها عشرين ألف درهم . وهما تلميذتان لجميلة .

وجميلة أصل من أصول الغناء أخذ عنها معبد ، وابن عائشة وسلامة وغيرهم . وكان لها وقارها .

حجت مرة وحج معها خمسون قينة من قيان المدينة ، أرسلهن معها مواليهن تعظيما لها . فلما بلغ الركب مكة تلقاه المغنون العظام ابن سريج والغريض وابن محرز ، والشعراء الفحول ، مثل عمر بن أبى ربيعة وكان أبوه والياً على الجند باليمن للنبى وأبى بكر وعمر ، ومثل الحارث بن خالد المخزومى ، والعرجى . فلما قضت حجها سألها المكيون أن تجعل لهم مجلساً . فقالت : أللغناء أم للحديث ؟ قالوا : لهما جمعاً : قالت ما كنت لأخلط جداًّ بهزل . وأبت . فحلف عمر ابن أبى ربيعة على من يريد سماعها إلا أن يخرج معها إلى المدينة . فخرج الناس معها وفيهم المغنون فلما مضى على مقامها بالمدينة عشرة أيام قالت لعمر . إنى جالسة لك ولأصحابك وغنتهم من شعر عمر . فدمعت عينه . ثم غنى ابن سريج . وغنى كل من حضر .

زارها فى دارها يوماً عبد الله بن جعفر قال : يا جميلة . قد سمعت ما آليت أنك لا تغنين أحداً إلا فى منزلك . وأحببت الاستماع منك . فغنته بيتين لامرئ القيس أنقذا جماعة من المسلمين .

* * *

وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ولدته أمه بالحبشة بين المهاجرين الأولين . وأبوه بطل مؤتة وشهيدها — الطيّار فى الجنة — فلما استشهد كفل الرسول ابنه عبد الله .

كان عليه السلام ينظر إليه إعجاباً ويأخذ بيمينه ويقول : « اللهم اخلف

جعفرا فى أهله وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه . وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة »
ولما كبرت السيدة زينب ابنة على من فاطمة الزهراء زوجها من ابن عمها . وإليه
أصهر عبد الملك بن مروان . فى بنته أم أبيها . لينال الشرف . روى للرسول
خمسة وعشرين حديثاً وروى عنه بنوه والقاسم وسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن
ابن عوف . أقرض الزبير بن العوام ألف ألف. فلما قتل جاءه عبد الله بن الزبير
يقول : إن فى كتب أبيه ديناً على ابن جعفر ألف ألف . قال : هو صادق
فاقضها إن شئت . ثم عاد إليه ابن الزبير يقول إن الدين لك لا عليك فقد
وهمت.قال ابن جعفر : لا أريد ذلك فإن شئت فهو لك . وإن كرهت فلك فيه
نظرة . توفى سنة ٩٠ وقد عبر التسعين وصلى عليه إبان بن عثمان بن عفان وكان
والياً على المدينة ومن فقهائها المعدودين فحمل سريره ودفنه وهو يقول ودموعه
تسيل : «كنت والله خيراً لا شر فيك» وأبو حنيفة يستشهد به فى الدين فيقول :
«إذا تزوج الرجل المرأة وامرأة أبيها فهذا جائز . بلغنا ذلك عن عبد الله بن جعفر
رضى الله عنهما أنه فعل ذلك . وبه نأخذ » .

أما أم عبد الله فأسماء بنت عميس.تزوج منها أبو بكر بعد موت جعفر
ثم تزوجها على بعد موت أبى بكر . فكان محمد بن أبى بكر ناسك قريش ويحيى
ابن على أخويه لأمه. وأختا أسماء — لأمها — أم المؤمنين ميمونة وأم الفضل زوج
العباس (جدة بنى العباس). وأما شقيقتاها فكانتا عند حمزة عم النبى وبطل
بدر وشهيد أحد.وعند شداد بن الهاد .ولذلك قيل عن أمهن . أكرم عجوز فى
الأرض أصهارا .

وحق لنا أن نتصور عبد الله بن جعفر فى المدينة حتى وفاته فى أواخر القرن
أقرب المسلمين إلى قلوب المسلمين .

* * *

وأول من غنى بالعود فى المدينة سائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر.أخذ
الغناء عن نساء صناجات بالمدينة وعن فارسى يقال له (نشيط) غنى بالفارسية
فأعجب عبد الله فاشتراه فكان يغنيه . فقال سائب خاثر لمولاه : أنا أصنع لك

مثل ذلك بالعربية . فأول شعر غنى بالعربية غنى لعبد الله بن جعفر . ولم يغن سائب خاثر ولا نشيط إلا له .

ولما وفد عبد الله على معاوية صحب معه سائباً . وأسمع معاوية سائباً وهو يغنى :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجـــدة دما

وزار عبد الله عبد الملك بن مروان وهو مريض فدعا « بديح » المغنى فرقى عبد الملك . ولما شفى عبد الملك علم أنه رقاه بالشعر . فما برح ابن جعفر حتى جعله يفرغه فى مسامعه .

وغنى سائب خاثر ليزيد بن معاوية فخوّله وموّله وواعده المدينة . لكن سائباً قُتل يوم الحرة ، فلما بلغ يزيدمقتله قال : أوَ بلغ القتل إلى سائب خاثر وطبقته ؟ ما أرى أنه بقى فى المدينة أحد ! قبحكم الله يا أهل الشام .

وفى عهد الوليد دعى إلى البلاط مغنيا الحجاز المشهوران ابن سريج ومعبد . وكان الوليد نصيراً للفنون عامة .

وقالوا إن سعيد بن مسجح ، وهو مكى أسود ، نقل غناء الفرس وألحان الروم إلى غناء العرب . تعلمها على البنّائين لقصر معاوية بدمشق . وأن ابن محرز أخذ عنه .

وامتلأت مكة والمدينة وضواحيها بالغناء والمغنيين . واشتهر فى عصر واحد من الكبار بالحجاز : ابن سريج والغريض ومعبد . وصار مثلهم حنين بالعراق : قيل له أنت تغنى من خمسين سنة . ما تركت لكريم داراً ولا مالا ولا عقاراً إلا أتيت عليه. قال : بأبى أنتم إنما هى أنفاسى . أقسمها بين الناس. أفتلوموننى أن أغلى بها الثمن ! !

ووجد فى عصر واحد جميلة وهيت ، وبرد الفؤاد ، ونومة الضحى ، ورحمة ، وهبة الله ، ومعبد ، وابن عائشة ، وعزة الميلاء ، وحبابة ، وسلامة القس ، وسلامة الزرقاء ، وبلبلة ، ولذة العيش ، وغيرهم .

وكان عبد الملك وسليمان وهشام ومروان بن محمد يستمعون للمغنيين وبينهم وبين الندماء ستارة .

* * *

وفى عهد أبى جعفر المنصور – عهد العلم والوقار والتقشف – لمعت مغنيات المدينة .

خذ مثلا بين أمثال : « بصبص » ، يأتيها عبد الله بن مصعب[١] . وفتيان قريش فيستمعون ، ويمر المنصور بالمدينة فى حجه فينشد مصعب :

أراحـل أنت أبا جعفـر من قبـل أن تسمع من بصبصا
لو أنهـا تدعو إلى بيعـة بايعتهـا ثم شققتُ العصا

وكانت البيعة ونقضها وشق عصا الطاعة من جراح قلب أبى جعفر . فدعاه وقال له : إما أنكم آل الزبير قديماً ما قادتكم النساء وشققتم معهن العصا[٢] حتى صرت أنت آخر الحمقى تبايع المغنيات . فدونكم يا آل الزبير هذا المرتع الوخيم . . . ثم بلغ المنصور أن عبد الله اصطبح مع « بصبص » وهى تغنيه بشعره :

إذا تمـزت صراحيـة كمثـل ريح المسك أو أطيبا
فـا أبالى وإلـه الـورى أشرّق العـالم أم غربـا

فقال أبو جعفر : لكن العالم لا يسألون كيف أصبحت ولا أمسيت . . . الذى يعجبنى أن يحدو بى الحادى الليلة بشعر طريف العنبرى . . . ثم دعا حادياً وحفظه الشعر :

إنى وإن كان ابن عمى كاشحا لمـزاحم من دونه وورائـه
ومُمـده نصرى وإن كان امرأً متزحزحاً فى أرضه وسمائـه
وإذا غـدا يوماً ليركب مركباً صعباً قعدت له على سيسائه

(١) ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير

(٢) لعل قصده أن أم المؤمنين عائشة كانت تريد الخلافة لجده عبد الله بن الزبير وأن أم عبد الله ذات النطاقين ، أسماء أختها ، كانت تؤيده فى خلافته .

فلما كان الليل حدا الحادى فقال : هذا ، والله، أشبه بالمروءة من غناء « بصبص » . فحدا به ليله أجمع . فلما أصبح قال : يا ربيع أعطه درهماً فأعطاه درهماً فقال : يا أمير المؤمنين لقد والله حدوت بهشام بن عبد الملك فأمر لى بعشرين ألف درهم . وتأمر لى بدرهم واحد ! قال أبو جعفر ذكرت ما لم يجب ذكره . وصفت رجلاً أخذ مالا من حله وأنفقه فى غير حقه . يا ربيع . اشدد يديه حتى يأتى بالمال . قال الرجل : قد مضت على هذا السنون وقضيت به الديون . وتمزقته النفقات . وما بقى عندى منه شيء . فلم يزل أهل الخليفة وخاصته يسألونه حتى كف عنه . وشرط عليه أن يحدو به ذاهباً وراجعاً ولا يكف عنه .

ولقد وقعت هذه الوقائع فى المدينة فى الوقت الذى وقعت فيه لمالك وأبى جعفر وقائع ذات بال .

ولم يكن المهدى أقل ورعاً من أبيه. وقيل إنه اشترى (بصبص) من المدينة وهو ولى عهد بسبعة عشر ألف دينار وأنها ولدت له علية بنت المهدى .

* * *

ولم يكن شأن الغناء عند الفقهاء غيره عند الخلفاء العلماء : معاوية وعبد الملك وأبى جعفر. مرّ ابن سريج مغنى مكة بعطاء بن رباح [1] (١١٤) وهو بمكة كابن المسيب بالمدينة ، وبابن جريج (١٥٠).فحلف عليهما بالطلاق أن يغنيهما فإن نهياه بعد أن يسمعاه انتهى فغناهما فطربا. ولما ختن ابن لعطاء طعم الناس وتفرقوا إلا خاصته دعوا ابن سريج والغريض . فلما قدما انتقلوا بهما فى داخل داره وبقى عطاء فى مجلسه . فغناهم ابن سريج .

أمنقطــع يا عز ما كان بيننا وشاجرنى يا عز فيك الشواجر

وغنى الغريض . وعطاء فى مكانه وربما مال رأسه وتحركت شفتاه.قالوا . يا أبا محمد أيهما أحسن غناء ؟ قال الرقيق الصوت يعنى ابن سريج .

وجلس ابن جريج فى حلقته بمكة وعبد الله بن المبارك أمام أهل خراسان

---

(١) قال فيه أبو حنيفة : ما رأيت أحداً أفضل من عطاء وقال فيه ابن سريج : كان المسجد وراثه عشرين سنة وقال فيه الأوزاعى . مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس

فيمن حوله فمر به ابن ميزن المغنى فدعاه فغناه واستعاده ثم التفت إلى التلاميذ فقال : لعلكم أنكرتم ما فعلت ؟ قال العراقيون المتحلقون : إننا ننكره عندنا فى العراق.قال : فما تقولون فى الرجز ؟ . يعنى الحداء . قالوا لا بأس به عندنا . قال فما الفرق بينه وبين الغناء [1] ؟

واهل الحجاز أصحاب ظرف ورقة . خرج عبيد الله بن عمر العمرى حاجًا فرأى امرأة رفثت بكلام . فقال لها : يا أمة الله ألست حاجة ؟ ألا تخشين الله ؟ فسفرت عن وجه يبهر كالشمس . ثم قالت :تأمل يا عمى : فإنى ممن عنى العرجى بقوله :

من اللاء لم يحججن بغية حسبة ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

فقال لها عبيد الله : فإنى آمل ألا يعذب الله صاحبة هذا الوجه فى النار .

وقال سعيد بن المسيب : إذ بلغه ذلك : أما والله لو كان من بعض بغضاء العراق لقال لها : اغربى قبحك الله . لكنه ظرف عباد الحجاز .

ولما خرج محمد بن عبد الله سنة ١٤٥ قسا أبو جعفر على المدينة فضيق عليها الرزق وأغلق تجارتها من البحر . وبدأت رحلة الفن إلى مصادر النعمة فى العاصمة ، كما تطوف الفراشات بالنور . وعظم شأن الغناء عند الخلفاء فسمع الرشيد والمأمون وكانا من الصالحين .

* * *

ومن قبل عصر التابعين خرج رهط من الشبان مع عمر وفيهم رياح الفهرى فقال الشبان له : احدُ.قال : مع عمر ! ! قالوا احدُ فإن نهاك فانته . فحدا ولم ينهه عمر . بل طرب لسماعه . فلما كانت ساعة السحر قال له . كف هذه ساعة الذكر . وفى الليلة التالية سألوه أن ينصب لهم نصب العرب . ففعل حتى

---

(١) وكان عكرمة مولى ابن عباس صنو عطاء بمكة وعنده علم ابن عباس . قدم البصرة فأحاط به المحدثون العلماء وجلس يحدثهم فسمع صوت غناء فقطع الحديث يسمع . ثم قال : قاتله الله فقد أجاد . ولم يعد بعض العلماء إلى المجلس فى الغداة . وعاد البعض ومنهم أيوب السختيانى العالم العامل أستاذ يزيد بن هرون . ويزيد يقول عن عودته للمجلس . قد أحسن . ويزيد أستاذ أحمد بن حنبل .

كانت ساعة السحر . فقال له عمر : كف فهذه ساعة ذكر . وفى الليلة الثالثة سألوه أن يغنى غناء القيان، فلم يكد يبدأ حتى صاح به عمر . كف فهذا ينفر القلوب .

وخرج عمر مرة للحج فاقترح من معه على خوات بن جبير أن يغنيهم من شعر ضرار . فقال عمر : بل ادعوا أبا عبد الله أن يغنيكم من بنيّات فؤاده . وغنى خوات. وطرب عمر. حتى إذا كان السحر قال : ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا .

وكان عمر شاعر النفس، فى شعره التقوى ، كتب لولاته يقول : مروا الناس أن يخرجوا إلى الصحارى فى أيام الربيع فينظروا إلى آثار رحمة الله . كيف يحي الأرض بعد موتها .

وتغنى عمر يوماً وهو فى ركب . فتغنى بحب النبي عليه السلام :

وما حملت من ناقة فوق رحلها   أبر وأوفى ذمة من محمـــد

فاجتمع الركب يستمعون . فلما رآهم اجتمعوا قرأ القرآن . . .

ورووا أن النبي عليه السلام رأى ركباً ولهم حاد يحدو بهم فقال : ممن القوم ؟ فقالوا من مضر . فقال : ما لحاديكم ؟ فقال رجل منهم : إن أول من حدا لنحن . قال وما ذاك؟ قال : كان رجل منا فى إبله فى الربيع . فأمر غلاماً له ببعض أمره . فاستبطأه فضربه بالعصا . فجعل ينشد فى الإبل ويقول : يا يداه، فقالوا له الزم . فاستفتح الناس الحداء منذ ذاك .

وروى البراء بن عازب أن النبي كان ينقل التراب يوم الأحزاب ويرتجز بكلمات ابن رواحة :

والله لولا الله ما اهتدينـــا   ولا تصدقنـــا ولا صلينـــا

فأنزلن ســكينة علينـــا   وثبت الأقـــدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينـــا   إذا أرادوا فتنـــة أبينـــا

ثم يمد صوته « بكلمة » أبينا .

وحدا (أنجشة) بأمهات المؤمنين فى حجـــة الوداع . وكان عبداً

حسن الصوت . وأسرعت الإبل.فقال عليه السلام : « رويدك يا أنجشة ورفقاً بالقوارير » .

مالك والغناء

فى إطار ، ما أسلفنا ، نتحدث عما نسب من الغناء. إلى عمر بن عبد العزيز ومالك معه ، وهما من أبناء المدينة ، على لسان أبى العلاء المعرى فى رسالة الغفران . يلقى تبعته على ابن خرداذبه وكأنه يتخلص من عبء أثقله . فيقول: « . . ولعله قد نظر فى طبقات المغنين فرأى فيهم عمر بن عبد العزيز ومالك ابن أنس كما ذكر ابن خرداذبه . فإن كان كاذباً فعليه كذبه . . »

والتاريخ يسلم أن أستاذ عمر بن عبد العزيز من فقهاء المدينة السبعة . عبيد الله بن عبد الله بن عتبة الهذلى . قد صح عنه الشعر الجيد . وهو من بنى هذيل قبيلة الشعراء الكبار. وقد قيل إنه جمع السبعة فى منظومة تشيد بجمال هذلية قدمت المدينة فقال :

أحبك حبًّا لا يحبك مثله ... قريب ولا فى العالمين بعيد
وحبك يا أم العلاء متيمى ... شهيدى « أبو بكر » فذاك شهيد
ويعلم وجدى « قاسم بن محمد » ... و «عروة» ما ألقى بكم و «سعيد»
ويعلم ما أخفى « سليمان » كله ... و «خارجة» يبدى بنا ويعيد
متى تسألى عما أقول وتخبرى ... فللحب عندى طارف وتليد [1]

فلما بلغت الأبيات سعيد بن المسيب . قال : والله لقد أمن أن تسألنا وعلم أنها لو استشهدت لم نشهد بالباطل عندها .

وكان لمالك أستاذ فى الفقه كمثل أستاذ عمر ، يقرض الشعر بل يصوغ الألحان ويتغنى . هو عروة بن أذينة . وقفت عليه سكينة بنت الحسين – (١١٧) فقالت : أنت الذى يقال له الرجل الصالح وأنت تقول :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى ... عمدت نحو سقاء القوم أبترد

---

(١) الفقهاء السبعة : سعيد بن المسيب سليمان بن يسار . القاسم بن محمد بن أبى بكر عروة بن الزبير . أبو بكر بن الحارث . خارجة بن زيد – أما السابع فهو الشاعر

هبنى بردت ببرد الماء ظاهره   فمن لنار على الأحشاء تتقد

قال: نعم . قالت : وأنت القائل:

قالت : وأبثثها وجدى وبحت به   قد كنت عندى تحب الستر فاستتر

ألست تبصر من حولى فقلت لها   غطى هواك وما ألقى على بصرى

قال : نعم . فالتفتت إلى جواركن حولها وقالت : هن حرائر إذا كان خرج هذا من قلب سليم قط .

ورثى عروة أخاه بكراً فى شعر رفيع . فسألت سكينة عن بكر هذا فعرفوها فقالت : لقد طاب بعده كل شىء حتى الخبز والزيت . رداً على قوله فيه : « وأى العيش يصلح بعد بكر» .

ولما غنيت الأبيات للخليفة الوليد بن يزيد قال للمغنى : لمن الشعر ؟ قال لعروة . فسخر الخليفة من بكر بقوله : وأى العيش يصلح بعد بكر ! وقال : هذا العيش الذى نحن فيه . لقد — والله — تحجر واسعاً .

وعروة فقيه ثبت ، وشاعر غزل ، روى عنه مالك فى الموطأ ، وإن رجع اشتهاره فى تاريخ مالك إلى شعره وغنائه . وقد لحن عروة بعض الشعر مثل :

يا ديـــار الحى بالأجمـــه   لم تبين دارهـــا كلمـــه

وروى صاحب الأغانى أن عروة قد ذكر أمام عمر بن عبد العزيز فقال : نعم الرجل الصالح أبو عامر ، على أنه الذى يقول :

ولقد قالت لأتراب لها زهر تلاقينا [1] .

* * *

(١) وفى ديوان الحماسة أروع القريض لعروة مثل :

إن التى زعمت فؤادك ملها   خلقت هواك كما خلقت هوى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها   بلباقـــة فأدقهـــا وأجلهـــا

حجبت تحيتها فقلت لصاحبى   ما كان أكثرها لنا وأقلها

وإذا وجدت لها وساوس سلوة   شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

ودخل على هشام بن عبد الملك مع الشعراء فقال له : ألست القائل :

ترددت فى تاريخ مالك — رواية تنسب إليه أنه قال : « نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وآخذ عنهم : فقالت لى أمى : يا بنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه . فدع الغناء واطلب الفقه . فإنه لا يضر معه قبح الوجه . فتركت المغنين واتبعت الفقهاء . فبلغ بى الله عز وجل ما ترون». ولو صحت الرواية لكانت هوى من أهواء طفل يدق أبواب التعليم . لأن مالكاً أقبل على العلم من طفولته . والشك فيها كبير لأن مالكاً كان جميل الوجه صبوحه . فلا تصده أمه عن الغناء على هذا الوجه . فإن كان قصدها قبح وجه غيره، فإن هذه المجادلة لوجه جميل حجة معه ليقدم ، لا حجة عليه ليحجم .

ويروون من نوادر مالك وملحه أنه مر بمغنية تغنى :

أنت أختى وحرمة جارى — وحقيق علىَّ حفظ الجوار
أنا للجار ما تغيب عنى — حافظ للمغيب فى الأسرار
ما أبالى أكان للباب ستر — مسبل أم بقى بغير ستار

وأن مالكاً قال : لو غنى بها حول الكعبة لجاز . أو قال : يا أهل الدار علموا قينتكم مثل هذا .

ويروون كذلك أن مالكاً كان يمشى مع ابن أخته إسماعيل بن أويس فسمعا جارية تغنى غزلا :

ليتنى أرض لسلمى — فتطانى قدماها

= لقد علمت وما الإسراف من خلق — أن الذى هو رزق سوف يأتينى
أسعى إليه فيعيينى تطلبه — ولو قعدت أتانى لايعنينى

قال : نعم . قال لكنك أتيت إلى الشام فى طلب الرزق . وما أراك فعلت كما قلت . قال عروة : لقد وعظت ياأمير المؤمنين فبالغت فى الوعظ . وعمد من مخرجه إلى راحلته فركبها إلى المدينة . فلما كان الليل ذكر الخليفة الرجل فقال لنفسه . هذا رجل من قريش ذكر حكمة فجبهته . وهو مع هذا شاعر لا يؤمن لسانه . فبعث إليه بألف دينار . فأدركته وهو فى بيته فى المدينة فأخذ المال وقال لحامله : أبلغ أمير المؤمنين السلام ، وقل له : كيف رأيت قولى : سعيت فأكديت ورجعت إلى بيتى فأتانى فيه الرزق

ليتنى درع لسلمى ترتديني من وراها
ليتنى خادم سلمى قاعد حيث أراها

فسأله مالك : رجل أو امرأة ؟ قال : قلت هى غزال خادم بنى عمارة . قال إنها لفصيحة اللهجة حسنة التأدية .

وروى صاحب الأغانى قول القائل : كنت بالمدينة فخلا لى الطريق فجعلت أتغنى :

ما بال قومك يا رباب خزراً كأنهمو غضاب

فإذا خوخة قد فتحت وإذا وجه بدا تتبعه لحية حمراء فقال : يا فاسق أسأت التأدية ومنعت القائلة وأذعت الفاحشة . ثم اندفع يغنيه . فظننت أن طويساً قد نشر بعينه فقلت له : أصلحك الله من أين لك هذا الغناء ؟ فحدثه مالك بقصة طلبه الغناء وهو صغير فقال له الراوى : فأعد جعلت فداءك . قال لاولا كرامة . تريد أن تقول : أخذته عن مالك بن أنس ؟

والذين يتكلمون فى مالك والغناء يشيرون إلى أنه لم يذكر فى الموطأ أثراً فى تحريم الغناء مع أنه تحدث عن حرمة كثير من الأشياء مما يدل — عندهم — على أنه يجوّزه أو لا يقاومه .

ويروى الخطيب البغدادى : أن بعض أصحاب الحديث أتى إبراهيم بن سعد[1] ليسمع الحديث فسمعه يتغنى . فقال له : لقد كنت حريصاً على أن

---

(١) إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف . استوطن بغداد وولى بها بيت المال للرشيد . وأبوه سعد بن إبراهيم (١٢٧) كان قاضياً على المدينة ، ومحدثاً ثقة ، لم يروعنه مالك . وفى تعليق فى « الرسالة » للشافعى، ذكر الخلاف فى سبب ذلك : قيل إنه وعظ مالكاً فوجد عليه وقيل إنه تكلم فى نسب مالك . ولا يذكر مالك فيمن روى عنهم إبراهيم مع أنه سمع ابن وهب والقعنبى تلميذى مالك — وقيل ولى إبراهيم القضاء بواسط . وقيل إنه مات سنة ١٨٣ أو ١٨٤ — عن ٧٥ عاما وقيل عن ٩٥ عاماً .

وهو من رواة المغازى عن ابن إسحق . وابن إسحق محل طعن فى المدينة من أعظم المحدثين بها فى عصره هشام بن عروة بن الزبير . ومالك . وكلاهما يقول صراحة : إنه كذاب . ويقول عنه ياقوت فى معجم الأدباء « خرج من المدينة قديماً فلم يروعنه (من أهلها) غير إبراهيم بن سعد » .

أسمع منك أما الآن فلا سمعت منك حديثاً أبداً . قال : إذن لا أفقد إلا شخصك . على وعلى إن حدثت ببغداد ما حدثت حديثاً حتى أغنى قبله . وبلغت الحادثة الرشيد وكان قد قدم عليه سنة ١٨٤ وأظهر الرشيد بره . فدعا به فسأله عن حديث المخزومية التى قطعها النبى صلى الله عليه وسلم . فى سرقة الحلى . فدعا بعود. فقال الرشيد : أعود المجمر؟ قال : لا . ولكن عود الطرب . فتبسم . قال إبراهيم : لعله بلغك يا أمير المؤمنين حديث السفيه الذى آذانى بالأمس وألجأنى إلى أن حلفت؟ قال : نعم . فدعا الرشيد بعود فغناه :

يا أم طلحة إن البين قــد أفــدا قل الثواء إذا كان الرحيــل غــدا

فقال الرشيد من كان من فقهائكم (فقهاء المدينة) يكره السماع ؟ قال من ربطه الله . قال الرشيد : فهل بلغك عن مالك بن أنس فى هذا شىء ؟ قال لا والله . إلا أن أبى أخبرنى أنهم اجتمعوا فى مدعاة كانت فى بنى يربوع وهم يومئذ جلة ، ومالك أقلهم فى فقهه وقدره . ومعهم دفوف ومعازف وعيدان يغنون ويلعبون . ومع مالك دف مربع وهو يغنيهم :

سليمى أجمعت بينـــا فأين لقاؤها أينا
ولقـــد قالت لأتراب لهـــا زهر تلاقينـــا
تعالين فقد طاب لنا العيش تعالينـــا

فضحك الرشيد ووصله بمال عظيم .

ولو صحت الرواية أو صدقت الواقعة لكانت الرواية فى آخر سنة من حياة إبراهيم . ووقعت الواقعة فى أول حياة مالك . أى فى عهد التلمذة ، فهو عندئذ قد يكون أقل القوم فى فقهه وقدره .

وأياًّ كان الأمر فإن مالكاً قد عقد لنفسه حلقة فى مسجد النبى وهو فى نحو السابعة عشرة ، وكان تحريم الغناء درساً من دروسه .

ولو وقع ما يلام عليه مالك لما سكت عنه النقدة الشداد من معاصرين أدنى إليهم أن يهاجموه من أن يهادنوه ، مثل ابن أبى ذئب وابن إسحق .

والأول عنيف لا يهاب . يلوم مالكاً لأنه شهد بما رآه ولم يشهد بما لم يره !

عندما طلب أبو جعفر إليهما وإلى ابن أبي سبرة أن يحققوا شكوى قرشي حبسه عبد الصمد – أمير المدينة– حبساً ضيقاً. ولما انتقلوا إلى السجن كان قد حل وثاقه وكنس المكان ورشه . فشهد مالك وابن أبي سبرة بما بصرت به عيناهما . وأحس ابن أبي ذئب أن هناك تغييراً للحال فقال لمالك : داهنت وملت إلى الهوى اكتب رأيت محبساً ضيقاً وأمراً شديداً . وابن أبي ذئب هو الذي يقول لأبي جعفر والسياف على رأسه ، كما يروى الشافعي ، أشهد أنك أخذت المال من غير حقه وجعلته فى غير أهله.ويقول له أبو جعفر والله لولا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك .

وكان ابن إسحق (١٥١) يهاجم مالكاً فى صميم اختصاصه ويقول : أنا بيطار حديثه . وكان مالك يقول: « إنا نفيناه من المدينة »[1] . والمدينة تنفى خبثها .

ذلك، ومالك فى فقهه ينهى عن الغناء ويراه عيباً ترد به الجارية المشتراة إن وجدت مغنية . والشافعي يراه مكروهاً.وأبو حنيفة يراه ذنباً.ولم يمتنع مع ذلك الغناء والسماع .

وابن حنبل يروى عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون تلميذ مالك بالمدينة – « قدم علينا ومعه من يغنيه» . وبيت الماجشون بيت علم وورع .فنى صنيع عالمه دلالة على أن مجتمعات المدينة ترى سماع الغناء كالغناء لا جناح فيه . وإنما الجناح فيما يؤدى إليه الغناء ، أو يقصد به أو يصحبه ،من الفتنة ، أو ما يؤدى إلى الفتنة . ومن أصول مالك سد الذرائع التى تؤدى إلى مفسدة .

ولقد سمع عبد الملك بن مروان – فقيه المدينة – الغناء . لكنه لم يقبل أن يفسد الغناء الفتيان . إذ قيل له إن ابن مسحج أفسد فتيان قريش وأنفقوا عليه أموالهم فكتب إلى عامله أن اقبض ماله وسيره .

ونهى النبي أن يدخل المخنثون على النساء . والتخنث عيب من كل وجه . فما بالك بالغناء الذى يفسد النفس ؟ والقول والفعل قد يصطبغان بألوان الزمان

---

(١) كان ابن إسحق يتكلم فى نسب مالك أن ولاء مالك لبنى تيم ليس ولاء النظراء .

والمكان . ويريد الاول حده وشدة أن يطرد لرجل واحد . وقالوا إن صالح بن حسان المدنى . (فى القرن الثانى) كان سريا يملأ المجلس إذا تحدث . وكان يحدث عن محمد بن كعب القرظى وغيره . وكان عنده جوار مغنيات فهن وضعنه عند الناس .

كان الغناء وسماعه عرف العصر . وسيبقى حاجة للنفس . يكمل لها أسباب الحياة . ولا يقدح فيه ابتذال المغنين أو السامعين ، فالمبتذلون هم المقبوحون .

لقد كانت عنان الناطفية تستفتح مجالسها للغناء بتلاوة القرآن أيام الرشيد

أما أخوه إبراهيم فقد ألقت به الثورة عامين على كرسى الخلافة وكان مغنياً عبقرياً وله من الكتب كتاب « الغناء » وأما ابنه المأمون فكان حقاً فيلسوف الخلافة عشرين عاماً (١٩٨ - ٢١٨) يحدث عشرات الأحاديث فى المجلس الواحد وله مجلس خاص للفقه والسنن والأدب . نادى حيناً بجواز المتعة . فرووا له حديث الزهرى بتحريمها فسأل الأشهاد : أمحفوظ هذا من حديث الزهرى ؟ فلما قالوا نعم . رواه جماعة منهم مالك - ومالك شيخه . قال : أستغفر الله . نادوا بتحريم المتعة فنادوا .

وكان يهوى الغناء ويغدق عليه بغير حساب[1] .

---

(١) سأله إسحق الموصلى أن يكون دخوله عليه مع أهل العلم والأدب الرواة لا مع المغنين فأذن له . ثم طلب إليه أن يأذن له فى الدخول مع الفقهاء فأذن .

قالوا : وإن جماعة من المغنين لجلوس فى حجرة لهم ذات يوم ، ينتظرون خروج الناس من عند المأمون وجلوسه إليهم إذ دخل عليهم يحيى بن أكثم قاضى القضاة وكان من عباقرة عصره ويده فى يد إسحق يماشيه حتى جلس معه بين يدى المأمون . فكاد علويه المغنى أن يجن ! ! ثم مضت مدة فسأل إسحق المأمون أن يأذن له فى لبس السواد يوم الجمعة وأن يجلس معه فى المقصورة فضحك المأمون وقال ولا كل ذا يا إسحق . ولقد اشتريت منك هذه المسألة بمائة ألف درهم وأمر له بها .

وكان إسحق فى عهد الواثق يماشى أحمد بن أبى دؤاد فى البلاط فى رتبه ، وقلنسوته مثل قلنسوته ، حتى يقول علوية : يا هؤلاء : خيناكر (مغن أو مضحك بالفارسية) يدخل مع قاضى القضاة ! فيجيبه مغن آخر هو مخارق . دع عنك هذا فقد والله بلغ ما أراد .

وابن أبى دؤاد هو الشديد التعصب للعلم والدين كما يفهمه المعتزلة . . وهو الذى دبر ضرب =

ولئن كان عمر بن عبد العزيز قد تغنى لنفسه فى الصبا ، أيام كان يجر إزاره خيلاء ، أوكان عروة بن أذينة قد لحن ألحاناً ، فإن مالكاً وجد من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين والخلفاء والفقهاء من يستمعون ؛ فهذا عرف وجد عليه مجتمع المدينة . لكنه حذّر من أن يتخذ وسيلة لنفاق القلوب عندما سئل عنه فأجاب : إنه يصنعه بالمدينة الفساق .

ومن الصحيح أن الابتذال فى كل أمر منقصة . وأن من يتخصص فى جمع الرخص واتخاذها ديناً يتدنّى بها إلى الشر . قال سليمان التيمى : «إن أخذت برخص كل عالم اجتمع فيك الشر كله». ومن غلا فى الاحتياط علا بسد الذريعة .

فشعر الغواية منهى عنه — والبعض يتشدد فيرى من الشر إنشاد كل شعر ! قال المعتمد بن سليمان : «رآنى أبى وأنا أنشد الشعر قال لا تنشد الشعر فقلت له : يا أبت كان الحسن ينشد الشعر وكان ابن سيرين ينشد الشعر . فقال : أى بنى . إن أخذت بشر ما فى الحسن وشر ما فى ابن سيرين اجتمع فيك الشركله » مع أن جابر بن سمرة يقول: «جالست النبى صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة وكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون من أمور الجاهلية . وهو ساكت . وربما تبسم معهم » .

لكنه عليه السلام أعرض عن سماع غناء جاريتين عند عائشة كانتا تغنيان

أحمد بن حنبل فى محاكته من أجل خلق القرآن .

وإسحق الموصلى (١٥٠ — ٢٣٥) هو ابن إبراهيم الموصلى وكان إبراهيم فى عهد المهدى والرشيد إذا غنى وضرب له زلزل — وزوجته أخت زلزل — اهتز له المجلس .

وكانت لإسحق معرفة راسخة باللغة والأشعار وأيام الناس والحديث والفقه والكلام .

قال إسحق يوماً ليحيى بن أكثم : ما بالى أقوم بسائر العلوم قيام أهلها وأنسب إلى فن واحد قد اقتصر الناس عليه . فجعل القاضى الجواب إلى العطوى الشاعر فقال : هل أنت كالفراء والأخفش فى النحو ؟ قال لا ،قال : أفأنت فى اللغة كالأصمعى وأبى عبيدة ؟ قال لا : قال ، أفأنت فى الكلام كابن عبيد والنظام ؟ قال لا ، قال أفأنت فى الفقه كالقاضى : قال لا ، قال فمن ها هنا نسبت إلى ما نسبت إليه لأنك لا نظير لك فيه .

وكان المعتصم يقول : ما غنانى إسحق قط إلا خيل إلى أنه قد ريد فى ملكى .

غناء بعاث . فاضطجع على فراشه وحوّل وجهه وهو يقول : «لست من دد ولا دد مني ولست من الباطل ولا الباطل مني » . والدد اللهو واللعب . .

ومقامه عليه الصلاة والسلام ليس كمقام الناس فهو يصنع ما يليق بمقامه حتى ليقسم بين زوجاته بعدل النبي ثم يقول : «اللهم هذا عملي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك » يقصد ميل القلب إلى البعض دون البعض . فذلك فعل الرسول . أما فعل الناس فقد فعلته أم المؤمنين إذ سمعت غناء بعاث [1] .

---

(١) يقول الله جل ثناؤه في سورة لقمان :

(ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً . أولئك لهم عذاب مهين) .

واشتهر أن الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه كان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول « أطعميه واسقيه وغنيه » ويقول هذا خير مما يدعوك إليه محمد ! !

قال المفسرون إن لهو الحديث هو كل ما شغلك عن العبادة من السمر والأضاحيك والخرافات والغناء . وقيل إن لهو الحديث هو الشرك وقيل يفسر بكل ذلك . وعن ابن عباس أنه قال : لهو الحديث هو الغناء وأشباهه وقال مكحول : إنهن الجوارى الضاربات وعن ابن مسعود : « هو رجل يشترى جارية تغنيه ليلا ونهاراً » .

فإن كانت الآية نزلت في النضر . فهذا رجل يصد عن الإسلام وعمله عمل كافر ، بما فيه الإطعام والسقيا . وغناء الجارية . أمكن الله المسلمين منه يوم بدر فقتله على بأمر النبي عليه السلام .

وظاهر النص لا يفيد التحريم على القطع لفن الغناء .

وإذا كان المقصود السمر والأضاحيك والخرافات فمؤداه تحريم غرضها من الإضلال عن سبيل الله .

ولذلك يفهم تفسير اللهو بالغرض الذى اشتريت له كما صنع النضر .

ويفهم تفسير ابن مسعود بالانقطاع ليلا ونهاراً مما يشغل عن ذكر الله سبحانه .

وتفسير مكحول عن الجوارى الضاربات لا يجعل الضرب وحده حراماً إذا قام به رجل وإنما الحرام ضرب الجارية إذا أحاط به الباطل ، كالمجال الذى يستعمل فيه . أو الغرض الذى يسخر له . ومن الباطل عمل جارية النضر أو انقطاع الرجل لجارية تغنيه ليلا ونهاراً . فهذه مفسدة .

يقول ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل ويقول الضحاك : « الغناء منفدة للمال ، مسخطة للرب . مفسدة للقلب » . . . فيخرج ما لا يستنفد المال ولا يسخط الرب أو ما يصلح القلب . مثلما ورد في الدر المختار من أن « التغني لنفسه لدفع الوحشة . لا بأس به عند العامة » .

ومثل ما أجيز من الغناء في العرس . كمثل ما أجيز ضرب الدف فيه . ومنهم من أباحه مطلقاً

والفارابى — المعلم الثانى . أضحك بموسيقاه وأبكى . وأنام بها سامعى البلاط — ومضى وهم نيام ! . =

. . . .

= والكندى فيلسوف العرب – كان عالماً بالموسيقى. والرازى قبل أن يصبح طبيب العصور الوسطى كلها كان موسيقياً . والموسيقى والغناء صنوان .

وكان أبو حنيفة يكره الغناء ويجعله من الذنوب. وكذلك كان رأى أئمة الكوفة الثورى والشعبى وحماد.

ولما سأل عبد الله بن أحمد أباه الإمام أحمد بن حنبل قال : ينبت النفاق فى القلب . ثم ذكر عبارة مالك : إنما يفعله عندنا الفساق . فربط بين عمل الفساق وإنبات النفاق وبين الجواب .

والقرطبى يذكر عن مالك رده على بن المبارك « من جلس إلى قينة يسمع منها صب فى أذنه الآنق يوم القيامة » .

فهنا الجلوس – ومنه الانقطاع – والقينة والسماع . أمور ثلاثة .

أما الشافعى فيراه لهواً مكروهاً يشبه الباطل والمحال ، من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته .

كل أولئك ومن الغناء والسماع ما لا بأس به – بيقين – كأغانى القوة والفتوة . وسماع ما بعد من الابتذال وسلم من الشهوة فإذا اقتصرت الحرمة أو الكراهية على ما يؤدى إلى مفسدة ونفاق فذلك سد الذريعة .

الباب الخامس

روح المدينة

« أصحابى كالنجوم »
« بأيهم اقتديتم »
« اهتديتم »
(حديث شريف)

فى هذا الباب محاولة لإجمال خصائص المفكر . وطريقته فى وجازة وتركيز . ونحن نحاول إبراز صورة . والشمول فى التصوير مستحيل ، وحسبنا القليل القاطع بما فيه من بروز ، وقوة أثر ، تتجلى به الصورة المنشودة .

وفى كل خلجة من خلجات مالك اتباع عميق للأثر الأول . فى السنة ومقاصدها ، وارتباط وثيق بالمدينة وأهلها ، فى عملهم وعلمهم . وهذان العمل والعلم نابعان من صميم الحنيفية السمحة . صنعا على أيدى الرسول وصحبه والتابعين ليصير منهما جماع فكر « إمام المدينة » .

وعلى هذا الغرار جاءت الفصول الثلاثة التالية عن عمل أهل المدينة والعلم عند أهل المدينة والعمل بالمصلحة الإسلامية .

الفصل الأول

عمل أهل المدينة

الإمام مالك فقيه عملى ، يعتد بالواقع ، فى إثبات الأحكام والنصوص والعمل بالمصلحة ، وبالعرف ، كما سنرى بعد ؛ وهو نحو تقاربه شرائع معاصرة تجعل الأحكام مصادر للقواعد والنظريات وتتخذ من السوابق القضائية أصولاً قانونية . فالأحكام حلول لمشاكل الناس .تفعل فيها وتنفعل بها . وهى بعدُ أمور شاركت فيها الجماعة . والقاعدة الناتجة عن التطبيق قاعدة ثبتت على الامتحان .

ومالك يحتفل أعظم احتفال بسابقة العمل بالمدينة . وباتفاق الجماعة عليه . أخذاً بالاحتياط فى الدين ، وانتفاعاً بوضع المدينة وأهلها من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين . فهو يجعلها وأهلها مزية علمية . وطريقة فى الثبوت ، وضماناً من الزلل . بل شعاراً فى الفقه .

نزلت الأصول الكلية للدين بمكة . والمدينة ، بالقرآن والسنة .

ولما خرج الرسول إلى المدينة واتسعت دائرة الإسلام ، كملت الأصول على تدرج . ففيها عرضت الخصوصيات التى تقتضيها عوارض الحياة الجديدة . التى أرسى عليها الإسلام أساسه . وبدت من البعض فلتات . فاحتاجوا إلى حدود تحدد لهم الشرع وما يخالفه . فنزل بها القرآن وجاءت بها سنة النبى . وفى المدينة وقع معظم النسخ . الذى ورد فى القرآن . ولم يثبت نسخ لأصل كلى .

راعى الشارع التدرج رفقاً بأبناء العصر لبلوغ الغرض . ووضح للناس دينهم ،وفقهه الرامى إلى حفظ الضروريات . ورفع الحرج ، بالتخفيف والرخص : وتجميل الحياة . وتم الدين يوم نزل قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم . وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

وبكى عمر يوم سمعها إذ استشعر نعى النبى . وقال : «ما بعد الكمال

إلا النقصان » ولم تطل بالنبي أيامه بعد ذلك إلا واحداً وثمانين يوماً .

والسنة هي ما نقل عن النبي عليه السلام من أقوال ، أو أعمال ، أو إقرار لأقوال أو أعمال غيره . فمن عمل على خلاف سنة النبي لم يكن على سنة . بل كان على بدعة . وشر الأمور المحدثات البدائع .

وعمل الصحابة على الجملة اتباع لسنة ثبتت عندهم وبخاصة الخلفاء الراشدين وهو عليه السلام يأمر بالاقتداء بهم فيقول : « عليكم بسنتي وسنة خلفائي المهديين . تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ» ومثل سنة الصحابة هذه حد الخمر . فقد كان تعزير الشارب في عهده عليه السلام غير محدود . تارة يضربونه نحو أربعين جلدة ، وتارة يبلغون ثمانين وكذا في عهد أبي بكر . فلما كان آخر إمرة عمر استشار الصحابة في حد زاجر . فقعّد عليّ القاعدة قال : نرى أن تجلده ثمانين لأنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى وعلى المفترى جلد ثمانين . وقال عبد الرحمن بن عوف : أرى أن تجعلها كأخف الحدود . يعنى ثمانين .

وأجمع الصحابة على هذا .

ولما فسرت عائشة قوله تعالى لرسوله : (وإنك لعلى خلق عظيم) بأن خلقه هو القرآن دلت على أن فعله وقوله وإقراره في الحياة راجع إلى القرآن . والعلماء مجمعون على أن رد النزاعات إلى الله وإلى الرسول حسبما وردت الآية : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) مقصود به الاحتكام إلى الرسول . إن كان حاضراً . وإلى سنته إن كان غائباً . أو بعد مماته .

وكان النبي يبين حكم القرآن . فيقيس على تحريم القرآن الجمع بين المرأة وابنتها . وبين الأختين في الزواج . تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها . ويعلل ذلك بقوله : «فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » ويقيس على تحريم القرآن الأمهات والأخوات من الرضاعة . تحريم سائر القرابات من الرضاعة كالعمة والخالة . وبنت الأخ . وبنت الأخت — وأشباه ذلك ويقول : «إن الله

حرّم من الرضاعة ما حرّم من النسب » [١] .

على أن ما حرّم الرسول أو حلل فعن الله حرّم وحلل . قال عليه السلام: « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه » يعنى السنة . فالسنة بهذا المعنى منزلة عليه بالوحى . وإن كانت لا تتلى كما يتلى القرآن .

وقديماً وجد من قالوا : لا نقبل إلا ما جاء به نص القرآن . وهؤلاء كفار بلا جدال . لأن السنة مبينة للدين كله ، ونبه النبى عليهم فى حديثه: «يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديثى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله » .

ويروى عن عمران بن حصين أن رجلاً أتاه فحدثه فقال الرجل : حدثوا من كتاب الله عز وجل . ولا تحدثوا عن غيره . فقال له : إنك امرؤ أحمق أتجد فى القرآن الظهر أربعا لا يجهر فيها ؟ وعدّ الصلوات وعدّ الزكاة ونحوها . ثم قال : كتاب الله أحكم ذلك والسنة تفسر ذلك .

قال رجل تابعى : لا تحدثونا إلا بالقرآن . فرد عليه مطرف بن عبد الله الصحابى : «والله ما نريد بالقرآن بدلا . ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا » .

أنذر الرسول من يكذب عليه بعذاب جهنم . ولم ير أن يكتب إلا القرآن . ولم يعارض فى أن يتحدث عنه . روى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى غير القرآن

---

(١) وقايس الرسول بين مكة والمدينة: حرم الله تعالى مكة بدعاء إبراهيم: (رب اجعل هذا البلد آمناً) فلما أشرف النبى على المدينة دعا لها كدعاء إبراهيم واستجاب الله لدعائه. «اللهم إنى لأحرم ما بين جبليها مثلما حرم إبراهيم مكة » .

وقال عليه الصلاة والسلام فى المدينة: «إن إبراهيم حرم بيت الله وآمنه وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها . ولا يقطع عضاهها » .

وكان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به رسول الله فإذا أخذه قال: «اللهم بارك لنا فى ثمرنا وفى مدينتنا . وبارك لنا فى صاعنا وبارك لنا فى مدنا . اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك . وإنه دعاك لمكة وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة . ومثله معه » ثم يدعو أصغر وليد فيعطيه ذلك الثمر .

فليمحه . وحدثوا عنى فلا حرج . ومن كذب علىّ متعمداً . فليتبوأ مقعده من النار » .

واستجاب عليه السلام لرجل من اليمن طلب أن تُكتب له خطبة للرسول .

* * *

انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى . وبالمدينة من الصحابة[1] كثيرون مات منهم فيها نحو عشرة آلاف بين اثنى عشر ألفاً عادوا إليها بعد وقعة حنين فى السنة الثامنة والألفان الآخران تفرقا فى الأمصار .

وكانوا يتحرجون عن التفسير . روى أبو عبيد القاسم بن سلام أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى : (وفاكهة وأبا) فقال : أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذا قلت فى القرآن ما لم أعلم .

وروى الشعبى عنه أنه سئل عن الكلالة[2] فقال : أقول فيها برأيى فإن يكن صواباً فمن الله . وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : « الكلالة من لا ولد له ولا والد » .

وسأل رجل ترجمان القرآن ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة فقال له : فما يوم (كان مقداره خمسين ألف سنة) فقال له السائل : إنما سألتك لتحدثنى فقال ابن عباس (هما يومان ذكرهما الله فى كتابه . الله أعلم بهما) ... فكره أن يقول فى كتاب الله ما لا يعلم[3] .

* * *

(١) الصحابى عند المحدثين كل مسلم رأى النبى ولو ساعة . ولو لم يحدثه ولو لم يجالسه . ويشترط جمهور الأصوليين الرفقة فالصحابى عندهم من طالت صحبته للنبى ، متبعاً له مدة يثبت منها إطلاق وصف صاحب عرفاً دون تحديد . وقدر البعض الزمن بسنة أو غزوة .

(٢) الكلالة مشتقة من الإكليل الذى يحيط بالرأس من جوانبه . يقول تعالى : (وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث) .

(٣) جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن فقال : أحرج عليك إن كنت مسلماً لما قمت عنى . وروى مالك عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من آيات القرآن قال . إنا لا نقول شيئاً فى القرآن . مع أنه كان يفتى فى الحلال والحرام وكان يلقب بسعيد ابن المسيب الجرىء .

قال مسروق : اتقوا التفسير فإنه الرواية عن الله .

عظم حظ المدينة من فقهاء الصحابة الذين يفاخر بهم التاريخ وفيهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأمهات المؤمنين وهن معلمات فقه فى المقام الأول . حتى الذين رحلوا إلى الكوفة ودمشق وفسطاط مصر كانوا عاريّة من المدينة . فازدادت بوجود الصحابة فيها حفاظاً على سنة الرسول وهديه . بالنقل الذى ظلوا ينقلونه والعمل الذى طفقوا يعملونه ، وتكاثر النقلة عنهم وتضافر النقل بكثرتهم ومكانتهم . وبعملهم به ، فكان مالك يقول عن الحديث الذى لا يحدث به بين طرفى المدينة : « إذا جاوز الحديث الحرّتين ضعفت شجاعته » .

والرسول يقول عن أصحابه : «الله الله فى أصحابى . لا تتخذوهم غرضاً بعدى . فمن أحبهم فبحبى أحبهم . ومن آذاهم فقد أذانى . ومن آذانى فقد آذى الله . ومن آذى الله يوشك أن يأخذه» وقال فيهم : «لا تسبوا أحداً من أصحابى فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » والله تعالى يقرنهم بالرسول ويزكيهم فيقول : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) ويقول فيهم سبحانه : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) .

ولقد رتبهم البعض اثنتى عشرة طبقة آخرها من أسلم يوم الفتح . وابن حزم الأندلسى يرتبهم« يفضل المهاجرون الأولون بعد عمر ثم بعد هؤلاء أهل العقبة ، ثم أهل بدر ، ثم أهل المشاهد مشهداً مشهداً . وأهل كل مشهد أفضل من المشهد الذى يليه حتى يبلغ الأمر إلى الحديبية ، فكل من تقدم ذكره من المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم إلى تمام بيعة الرضوان (يوم الحديبية) فإنا نقطع على غيب قلوبهم أنهم كلهم صالحون ، ماتوا كلهم على الإيمان والهدى والرفقة الكافية والبر . كلهم أهل الجنة لا يلج أحد منهم النار » .

ومن الصحابة من لازم الرسول فأكثر الرواية كعائشة . وكأبى هريرة وهو يقول : « إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدثت حديثاً» . ثم تلا قوله تعالى : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى . . . الآية) إن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم وإن أبا هريرة

كان يلزم الرسول صلى الله عليه وسلم – يشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون)[١] .

ذلك ، وبيانه عليه السلام للأحكام . عملى وكلامه موجز . تقول عائشة : « ما كان النبي يسرد كسردكم هذا . ولكن كلام قليل لو عده عاد لأحصاه » .

ومن الصحابة من كان يحفظ ومن كان لا يحفظ فيروى من فهمه بالمعنى . وكانوا يتفاوتون فى فهم المعانى ، ولذلك تصدى للفتيا منهم المبرزون فى العلم . وكانوا يشتورون . . . كزيد وعبد الله بن عمر يتساءلان ، وعمر وعبد الله بن مسعود وزيد يتساءلون ، وعلى وأبى بن كعب وأبى موسى يتشاورون[٢] .

وقد يحمل بعضهم فعل الرسول على القربة . ويحمله البعض على أنه فعله على سبيل الاتفاق لا على سبيل السنة ، كالرمل فى الطواف رآه ابن عباس على سبيل الاتفاق ، ورآه الجمهور سنة . وقد يختلفون للسهو أو الضبط أو من أجل العادة . لكنهم لم يختلفوا فيما هو محض الشرع والدين . وإن اجتهدوا فى غير ذلك . ولم يقفوا عند ظواهر النصوص وعملوا بما رأوه مصلحة فى شئون

---

(١) فيروى عن أبى هريرة ٥٣٧٤ حديثاً وابن عمر ٢٦٣٠ حديثاً وأنس بن مالك ٢٢٧٦ حديثاً وعائشة ٢٢١٠ حديثا وابن عباس ١٦٧٠ حديثاً وأبى سعيد الخدرى ١١٧٠ حديثاً وجابر بن عبد الله ١٥٤٠ حديثاً وعبد الله بن عمرو ٧٠٠ حديث وابن مسعود ٨٤٨ حديثاً وعمر ٥٣٧ حديثاً وعلى ٥٨٦ حديثاً وأبى بكر ١٣٢ حديثاً وأبى ذر ٢٨١ حديثاً

يلاحظ أن أكثر الصحابة صحبة بعد عائشة أبو بكر وعلى وعمر وابن مسعود أقلهم رواية .

(٢) الصحابة كلهم عدول عند جمهور الأمة – أهل السنة – لا يسأل عنهم أو يشترط تزكيتهم فى رواية السنن . وللشيعة والخوارج فيهم آراء . تدور حول من والى كلا من الشيعة والخوارج . وبعض المعتزلة يقول كلهم عدول إلا من قاتل عليا . ولو صح هذا لسقط طلحة والزبير من العدول المرضى عنهم والله تعالى يقول : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) .

يقول الغزالى عن الصحابة : الذى عليه سلف الأمة وجماهير الخلف أن عدالتهم معلومة بتعديل الله عز وجل إياهم وثنائه عليهم فى كتابه فهو معتقدنا فيهم . إلا أن يثبت بطريق قاطع ارتكاب واحد لفسق مع علمه بذلك وذلك مما لا يثبت . فلا حاجة لهم إلى التعديل ، وقد زعم قوم أن حالهم كحال غيرهم فى لزوم البحث ، وقال قوم : حالهم العدالة فى بداية الأمر إلى ظهور الحرب والخصومات . ثم تغيرت الحال وسفكت الدماء فلا بد من البحث ، ثم فسر الصحابى المعنى بهذا بمن كثرت صحبته النبي صلى الله عليه وسلم .

المعاملات السياسية والتدبير ومصالح الدولة .

* * *

فى عصر الفقهاء السبعة ، جُمع فقه الخلفاء والصحابة وحاول الفقهاء تدوينه . ثم سانده عصر الفقهاء السبعة مشافهة بالحفظ فى الصدور لمن جاءوا بعدهم . وتُوج العصر فى ختام القرن باستخلاف عمر بن عبد العزيز ، وكان مدرسة وحده هى مدرسة الاتباع الكامل فى السياسة والحكم والعلم . ولذلك قدمت للتاريخ البشرى نموذج النجاح الذى ييسر على العقل تدليله . بأنه الرجوع الصادق إلى الكتاب والسنة . وكان عظيم الأثر فيمن تتلمذ عليه ، ممن شهده ، أو جاء بعده . وفى طليعتهم علماء المدينة المعاصرون ومنهم — أبو بكر بن حزم وابن شهاب الزهرى . وربيعة بن أبى عبد الرحمن ومحمد بن المنكدر . أساتذة مالك .

يقول مالك عن مدرسة المدينة . «كان أعلم الناس عندنا بعد عمر — بن الخطاب — زيد . وكان إمام الناس عندنا بعده . ابن عمر . وكان سعيد بن المسيب جل ما يفتى به من فتاوى زيد» ، ويقول على بن المدينى فيما بعد ذلك : «وكان أصحاب زيد بن ثابت الذين يذهبون مذهبه فى الفقه الاثنى عشر : قبيصة بن ذؤيب . وخارجة بن زيد . وأبان بن عثمان . وسليمان بن يسار . وكان ممن لا يثبت له لقاء مثل هؤلاء الأربعة سعيد وعروة وعبد الملك بن مروان وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وعبيد الله بن عتبة . وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وسالم بن عبد الله والقاسم بن محمد» .

أهملت الدولتان اللتان نقلتا الخلافة إلى دمشق وبغداد أهل المدينة . وجازاهما بعض الفقهاء بصدود واستعلاء . يقول قائل لسعيد بن المسيب : يزعم قومك أنما يمنعك من الحج أنك جعلت الله عليك ، إذا رأيت الكعبة . أن تدعو على بنى مروان . فيقول : ما فعلت ذلك : وما أصلى لله عز وجل فى صلاة إلا دعوت الله عليهم .

وخرجت دولة العباسيين على السنة . بالبطش من أجل الخلافة . وكان حقاً أن نرى المدينة الغضبى تعتصم بالسنن فهى خصيصتها التى ينحنى لها ، من

أجلها . كل المغاضبين لها. وإن كانوا هم العلماء . روى — الشافعي : أن معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة للسورة التي بعد أم الكتاب ولم يكبر حين يهوى . فأنكر عليه من حضر من المهاجرين ذلك . فلما صلى المرة الثانية بسمل وكبر حين يهوى ساجداً .

ولما طلب أبو جعفر إلى مالك أن يصاحبه إلى عاصمته أبى أن يتخلى عن عاصمة السنة . وقال : « إن تكن عزيمة من أمير المؤمنين فلا سبيل إلى مخالفته وإن تكن غير ذلك : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

* * *

كان العلم يطلق على المعرفة بالسنن وأحكام الصحابة . والفقه يطلق على إفتاء المفتي دون اعتماده — ظاهراً — على النص — وبهذا وجد عند هؤلاء المطلقين المحدث والفقيه — فقيل مثلاً : إن ابن عمر جيد الحديث وليس جيد الفقه . وابن عباس عليم في الرواية وفقيه . وزيد بن ثابت فقيه الدين عالم السنن . وابن المسيب فقيه الفقهاء عالم العلماء .

ومالك تلميذ كل هؤلاء : قد جمع السنن وأكثر الفتوى في الأحكام ورأيه كما قال عن نفسه هو ثمرة العلم والعمل في المدينة . فمالك يعدل في عالم الفقه ما يجوز أن يسمى بأسلوب العصر الحالي « روح المدينة » .

وهو يقول : «وأما ما لم يسمع منهم—فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته حتى وقع ذلك موقع الحق أو قريباً منه حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم . . . فنسبت الرأى إلىّ بعد الاجتهاد مع السنة وما مضى عليه عمل أهل العلم المقتدى بهم والأمر المعمول به عندنا » .

والسنة عند مالك تثبت من وجهين — أحدهما أن نجد الأئمة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا بما يوافقها . وهذا هو الذي يقول فيه مالك « وعليه العمل عندنا » والآخر ألا نجد الناس اختلفوا فيها وهذا هو الذي يقول فيه « وهو الأمر المجتمع عليه عندنا » وترد إن لم يجدوا للأئمة فيها قولاً ووجدوا الناس اختلفوا

فيها . ومعنى ذلك أن تحقيقها يكون بما يجرى عليه أهل المدينة ويتفقون عليه . وهو بهذا يعطى عمل أهل المدينة واتفاقهم أهمية كبرى تزيد على اعتبارها وسيلة من وسائل الثقة بالحديث .

والذى يذهب إليه مالك آية على انبثاق فكره من المنابع الأصيلة — فالسنن أرفع صادرات المدينة . ومنتجاتها . والشيء يؤخذ من مصادره . خطب ابن عباس وهو على البصرة لعلى فقال : أدوا زكاة صومكم . فجعل الناس ينظر بعضهم إلى بعض — إذ كانوا لا يعلمون حكم زكاة الفطر من قبل : فقال من ها هنا من أهل المدينة ؟ . . قوموا فعلموا إخوانكم فإنهم لا يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض صدقة رمضان نصف صاع من بر وصاعاً من شعير أو صاعين من تمر . على العبد والحر . والذكر والأنثى . . . وإنما كاف أهل المدينة لأنهم أعرف الناس بزكاة الفطر . وبمكيالها . . . وهذه مدينة البصرة كلها لا تعرف سنة خطيرة كهذه السنة !

والحق أن صدارة المدينة هى التى صدرت أهلها . ومن رأى مالك أن مبايعة أهل الحرمين بمكة والمدينة كافية لانعقاد البيعة ، لأنهم حملة السنة النبوية . فهم أهل الحل والعقد .. وأهل المدينة هم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وإذا كان هذا رأيه فى صحة الخلافة فهذا رأيه فى صحة الرواية .

والمحدثون من غير المدينة — يحدثون ويعنعنون حتى يصلوا إلى الصحابى الواحد ، وهو من المدينة . فى الغالب . ولا يشترك فى هذه الميزة ، بعض الشركة ، إلا من كانوا بمكة . لكن انتقال المهاجرين إلى المدينة وعدم رجوعهم إلى مكة جعل الكلمة الأخيرة للمدينة . فالرواية عمن كان بمكة تحتمل نسخاً لها بعد إذ انتقل الإسلام ورجاله إلى المدينة . ومجرد احتمال النسخ كالداء الخفى المخوف .

أمسى عمل أهل المدينة وكأنه جواز المرور للرواية؛ تحدث الطبرى فى تاريخه أن محمد بن أبى بكر بن حزم (١٣٢) كان على القضاء بالمدينة . فكان إذا قضى قضاء مخالفاً للحديث قال له أخوه عبد الله : أى أخى : قضيت اليوم

فى كذا وكذا ؟ . فيقول محمد : نعم، فيقول عبد الله . فأين الحديث ؟ عز الحديث أن يقضى به ! ! فيقول محمد : أيهاه فأين العمل ؟

هذان عبد الله ومحمد ولدا أبى بكر بن حزم .

أما أبوهما فيقول : « إذا وجدت أهل المدينة مجمعين على أمر فلا تشك أنه الحق » .

ومالك يروى عن كل هؤلاء . ويقول قريباً ن ذلك عن محمد « رأيت محمد بن أبى بكر بن . . عمرو بن حزم وكان قاضياً . وكان أخوه عبد الله كثير الحديث رجل صدق . فسمعت عبد الله إذا قضى محمد بالقضية . قد جاء فيها الحديث مخالفاً للقضاء . يعاتبه يقول له : ألم يأت فى هذا كذا وكذا : فيقول بلى، فيقول: فما بالك لا تقضى به . فيقول: فأين الناس ؟ يعنى ما أجمع عليه الصلحاء بالمدينة . العمل به أقوى » .

وفى هذا العمل يقول ربيعة أستاذ مالك : ألف عن ألف خير من واحد عن واحد .

فإذا ارتقينا فى الأثبات فهذا عمر بن عبد العزيز يجمع فقهاء المدينة يسألهم عن السنن والأقضية التى يعمل بها فيثبتها وما لا يعمل به الناس يطرحه .

وقديماً كان يقال لأبى الدرداء . قاضى عمر بن الخطاب : بلغنا كذا وكذا بخلاف ما تقول؛ فيقول: «وأنا قد سمعته . ولكن أدركت العمل على غير ذلك» ، وعلى هذا سار مالك نفسه . فكان يقول عن أستاذه ابن شهاب : «سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط . قيل لم ؟ . قال ليس عليها العمل » .

فهى إذن مدرسة المدينة الأصيلة الدائمة — ترى المكانة العليا للعمل طوال القرن الأول إلى عهد مالك بن أنس .

ومالك فيما يتعامل فيه المحدثون بالمدينة . صيرفى فطن . يميز الصحاح من الزيوف ، بالتجربة وفى محل الواقعة . بعيار ما لمست أيدى الناس وبصرت به أعينهم . قال إسحق بن سليمان : «قلت لمالك : يا أبا عبد الله كم قدر صاع

النبي صلى الله عليه وسلم . قال خمسة أرطال وثلث بالعراقى. أنا حزرته . قلت : يا أبا عبد الله خالفت شيخ القوم قال من هو : قات أبو حنيفة يقول ثمانية أرطال . فغضب غضباً شديداً ثم قال لجلسائنا . يا فلان هات صاع جدك. يا فلان هات صاع عمك، يا فلان هات صاع جدتك . فاجتمعت آصُع فقال : ما تحفظون فى هذا ؟ فقال هذا : حدثنى أبى عن أبيه أنه كان يؤدى بهذا الصاع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقال هذا حدثنى أبى عن أخيه أنه كان يؤدى بهذا الصاع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر : حدثنى أبى عن أمه أنها كانت تؤدى بهذا الصاع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقال مالك أنا حزرت هذه فوجدتها خمسة أرطال وثلثا » .

وعلى أساس عمل أهل المدينة . يقول مالك فى الموطأ : الأمر المجتمع عليه عندنا أن شهادة الصبيان تجوز فيما بينهم من الجراح ولا تجوز على غيرهم . إذا كان ذلك قبل أن يتفرقوا . وبهذا كان يفتى على ، ومعاوية وعبد الله بن الزبير وعروة وابن المسيب وعمر بن عبد العزيز . وقوله تعالى : (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) لا ينفى قبول شهادة الصبيان .

والمفسرون متفقون على أن الآية جاءت فى المدينة ويختلفون فى لفظ رجالكم . هل هم البالغون الذكور . أم الأحرار . ومالك ومن معه — يذهبون إلى أنهم الأحرار المسلمون . يؤيدهم فى ذلك عمل أهل المدينة .

* * *

يحتفل مالك بالعمل المستمر . والعمل المجتمع عليه من أهل المدينة إذا وافقه علماؤهم كل احتفال؛ فيترك ما سوى ذلك وإن جاء فيه حديث آحادى أو كان فيه قياس . فلقد كان العمل المستمر فى التابعين مأخوذاً من العمل المستمر فى الصحابة . وقد استمر فيهم إذ هو مستمر فى عمل الرسول صلى الله عليه وسلم أو فى قوة المستمر . سأله أبو يوسف يوماً عن الأذان . فعجب مالك لقاضى القضاة الذى يسأل عن الأذان ! وقال وما حاجتك إلى ذلك . وكيف الأذان عندكم ؟ . فذكر مذهبهم فيه فقال مالك : من أين لكم هذا ؟ . فذكر له

أن بلالا [١] لما قدم الشام سألوه أن يؤذن لهم فأذن لهم كما ذكر . فقال له مالك : ما أدرى ما أذان يوم وما صلاة يوم ! . هذا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده من بعده — يؤذنون فى حياته وعند قبره. وبحضرة الخلفاء الراشدين بعده، يشير بذلك مالك إلى أن ما جرى عليه العمل وثبت آثر وأثبت فى الاتباع وأولى أن يرجع إليه .

وهو لا يلتفت إلى النقل الذى يخالفه العمل المستمر . إذا كان النقل قليلاً ولا إلى العمل المخالف إذا كان نادراً . . . وإذا لم يكن العمل جماعيًّا من أهل المدينة . وإنما هو عمل كثرة . فإنه يفضله على حديث الآحاد . لأن عمل الكثيرين يعدل قول الكثيرين ومايخالفه من حديث رجل واحد يترجح أنه منسوخ.

سئل مالك عن الرجل يأتى إليه الأمر يحبه فيسجد لله شكراً . فقال : لا يفعل . ليس مما مضى من أمر الناس . . فقيل له إن أبا بكر سجد يوم اليمامة شكراً . . . قال : ما سمعت ذلك . وأرى أن كذبوا على أبى بكر . وهذا من الضلال أن يسمع المرء الشىء فيقول : هذا شىء لم نسمع له خلافاً . ثم قال قد فتح الله على رسول الله وعلى المسلمين بعده — أفسمعت أن أحداً منهم سجد ؟ إذا جاءك مثل هذا مما كان فى الناس وجرى على أيديهم لا يسمع عنهم فيه شىء فعليك بذلك . فإنه لو كان فيه لذكر من أمر الناس الذى كان فيهم . فهل سمعت أن أحداً منهم سجد ؟ فهذا إجماع . إذا جاءك الأمر لا تعرفه فدعه .

ولما أخذ مالك بما عليه الناس وطرح ما سواه . انضبط الناسخ والمنسوخ . بشهادة العمل المستمر . فالقد يكون العمل النادر فلتة أو خاصًّا بصاحبه أو رأياً لم يتابع عليه لخطئه أو لنسخه أو لعدوله عنه ، خذ مثلاً أن عائشة سئلت عن امرأة ماتت وعليها صوم فقالت أطعموا عنها وما رووه من أن ابن عباس قال

---

(١) بلال الحبشى هو الصحابى الكبير من السابقين إلى الإسلام وإلى عذاب المشركين الذى أذن أول أذان من فوق الكعبة يوم فتح مكة . وظل يؤذن فى حياته عليه السلام ولما مات الرسول انقطع بلال عن الأذان . وكان الصحابة يحنون إلى أذانه وهو يرفض . إلا عند ما وسطوا إليه عمر . إذ زار دمشق بعد أعوام من انقطاع بلال عن الأذان .

لا يصوم أحد عن أحد . وفى هذا قال مالك : ولم أسمع أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من التابعين بالمدينة أمروا أحداً أن يصوم عن أحد ولا يصلى أحد عن أحد . وإنما يفعل ذلك كل أحد عن نفسه . ومالك يرد خبر الواحد إذا لم يعضده أصل قطعى أو إذا عارض الخبر الأصول القطعية وشرط العمل به ألا يتعارض مع الأصول القاطعة .

* * *

ولا يمكن أن يعمل أهل المدينة بحديث مناف لأصل قرآنى لأنه أصل الشريعة . فإذا تنافى مع الحديث أهمل مالك اعتبار الحديث . كحديث « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » يتنافى مع قوله تعالى : (ألا تزر وازرة وزر أخرى...وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)وكذلك حديث المرأة التى قالت للنبى : « إن فريضة الحج أدركت أبى شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة . أفأحج عنه ؟ قال نعم،وفى رواية أفرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته أكان يجزئه ؟ قالت نعم . قال : فدين الله أحق أن يقضى » .

وأنكر مالك حديث إكفاء القدور التى طبخت من الإبل والغنم قبل القسم . تعويلاً على أصل رفع الحرج الذى يعبر عنه بالمصالح المرسلة؛فأجاز أكل الطعام قبل القسم لمن احتاج إليه . والمصلحة المرسلة عنده من الأصول لا من الفروع . ونهى عن صيام ستة أيام من شوال مع وجود الحديث تعويلاً على أصل سد الذرائع . وفى صدد حديث غسل الإناء من ولوغ الكلب فيه سبعاً.يقول : مالك:« جاء الحديث ولا أدرى ما حقيقته » بل كان يضعف الحديث ويقول « يؤكل صيده فكيف يكره لعابه » !

ولقد ردت عائشة حديث « أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » بقوله تعالى (ألا تزر وازرة وزر أخرى) وهو يتضمن إحدى كليات الشريعة .

فى رواية محمد بن الحسن فى الموطأ : « أخبرنا مالك : حدثنا عبد الله بن أبى بكر عن أبيه عن عمرة بنت عبد الرحمن أنها أخبرته أنها سمعت عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وذكر لها أن عبد الله بن عمر يقول:«إن الميت ليعذب

ببكاء الحى » . فقالت عائشة يغفر الله لابن عمر أما إنه لم يكذب . ولكنه قد نسى أو أخطأ . إنما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنازة يبكى عليها، فقال : إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذب فى قبرها . قال محمد . وبقول عائشة نأخذ وهو قول أبى حنيفة » .

وردت عائشة خبر ابن عمر فى الشؤم وقالت — إنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن أقوال الجاهلية . وخبر ابن عمر يعارض أصلاً قطعياً هو أن الأمر لله كله . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

وناقض مالك بقواعده عمر بن عبد العزيز . سئل عن سجود القرآن الذى فى المفصل : أتسجد أنت فيه : فقال لا . فقيل له إنما ذكرنا هذا لحديث عمر ابن عبد العزيز فقال : أحب الأحاديث إلىّ ما اجتمع الناس عليه . وهذا مما لم يجتمع الناس عليه . وإنما هو حديث من حديث الناس . وأعظم من ذلك القرآن يقول الله (فيه آيات محكمات هن أم الكتاب) فالقرآن أعظم خطراً . فيه الناسخ والمنسوخ . فكيف بالأحاديث . وهذا مما لم يجتمع عليه .

وكمثل العمل المستمر . والمجمع عليه ، العمل القديم . سئل عن القراءة فى المسجد على وجه مخصوص أو بأثر صلاة من الصلوات أو إدارة الكلمات بين المصلين على صوت واحد . فقال: لم يكن بالأمر القديم وإنما هو شىء أحدث . ولن يأتى آخر هذه الأمة بأهدى مما كان أولها والقرآن حسن[1] .

---

(١) وما يراه أهل المدينة عن طريق الاستدلال فيه خلاف بين المالكية أنفسهم ، فريق يراه حجة وفريق لا يراه حجة ويكتفى البعض بأنه مرجع . أما ما يروونه عن طريق النقل ففيه مذاهب .

فأما نقل الروايات فقد قال بعض المحدثين : روايتهم تقدم فى ذلك على غيرهم . إذا عارضتها .

والبخارى يبتدئ فى كل من أبواب صحيحة بذكر أحاديث أهل المدينة . وجمهور المحدثين لا يرون للراوى المدنى فضلا من حيث هو مدنى . وإنما الفضل بالعدالة والضبط .

وأما نقل المحسوسات وتعيين الأماكن كنقل الصاع وتعيين موضع المنبر والقبر والروضة الشريفة وما إلى ذلك ، فهم شهود عيان وكذلك نقل العمل المستمر فى المعاملات كالوقوف والزراعة . وفى العبادات كالأذان على المكان المرتفع أو الأذان للصبح قبل الفجر وما إلى ذلك والبعض يرى أن هذا هو ما يريده مالك فى الموطأ .

. . . .

فإجماع أهل المدينة إذا كان جارياً مجرى النقل. مقدم على خبر الأحاد، ومعنى ذلك أن الحديث لم يثبت لأن المدينة جمعت من الصحابة من يقع العلم بخبرهم فيما اجتمعوا على نقله .

وابن القيم يقول عن أهل المدينة : من المحال عادة-أن يجمعوا على شيء نقلا أو عملا متصلا من عندهم إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكون السنة الصحيحة الثابتة قد خالفته . وإن وقع ذلك فيما أجمعوا عليه من طريق الاجتهاد فإن العصمة لم تضمن لاجتهادهم . وكان ربيعه بن أبى عبد الرحمن . يفتى وسليمان بن بلال المحتسب ينفذ، فتعمل الرعية بفتوى هذا وتنفيذ هذا ، كما يطرد العمل فى بلد أو إقليم ليس فيه إلا قول مالك ، على قول مالك وفتواه .

على أن لسائل أن يتساءل . إذا كان الاشتهار عند الحنفية يعطى الحديث الأحادى قوة . فكيف لا يعطيه نفس القوة عمل أهل المدينة المستمر ؟ وفيه قوة العمل .وقوة الجماعة . وقوة الاستمرار ؟ من أجل ذلك جاز تصور المدينة فى اتباعها أشد ضبطاً للحقيقة من الاشتهار إذا قورن الاشتهار بالعمل الجماعى والاستمرار ، وكون ذلك فى الموطن الأصلى الذى نشأت فيه السنة .

والحنفية يشترطون على راوى الحديث أن لا يعمل بخلافه وربما جاز أن يقال « أن يعمل به لا بخلافه » وإلا احتمل النسخ . وكذلك عدم أخذهم بحديث الواحد فيما تعم فيه البلوى أى ما يتكرر وقوعه للناس والعادة تقضى باستفاضة نقل ما تعم به البلوى. فهلا دل هذا وذلك على أن للعمل القوة .

وإننا لنجد أبا الدرداء (٣٢) منذ الثلث الأول للقرن الأول يجعل القوة للعمل وهو قاضى عمر . ثم عمر بن عبد العزيز فى المدينة فى آخر القرن يجعل القوة للعمل فى المدينة . ونجد مثله أبا بكر بن حزم قاضى عمر ثم ولده محمدا فى الثلث الأول من القرن الثانى ، وفى إبان ازدهار حلقه مالك، وهذا هو القضاء المستمر أى العمل المطبق بقوة الدولة فى القرنين الأول والثانى ثم نجد مالكاً يتابع النظر نفسه طوال القرن الثانى ، مما يدل على أن العمل فى المدينة كان ناجحاً فى اعتباره آلة الضبط والقياس عند الفقهاء والقضاة والولاة .

هذا وثبوت التواتر فى السنة العملية أكثر من ثبوته فى السنة القولية دلالة على قوة الإثبات التى تنبع من العمل . وكون السنة المشهورة تفيد الظن القريب من اليقين ، لأن الكل يتناقلونها ، أساسه استمرار العمل بها .

ومن هنا يظهر أن شرط مالك فى قبول الحديث أن يعمل به أهل المدينة مثل شرط الشافعى أن يكون الحديث الصحيح السند متصلا، ومثل شروط الحنفية المتعددة ، كلها تتغيا اليقين فى اتصال الحديث بالمصدر الأصلى .

ولا جدال أن الثابت بالعمل قوى من ناحية الواقع . ومالك فقيه عملى ، وفى يده ثروة أهل المدينة يتعامل فيها بحرص وباعتزاز ، فجعلها قوة بمجرد أنها مجتمع عليها فى المدينة .

وإجماع العلماء على الاعتراف بمكانة الموطأ شهادة مباشرة له وغير مباشرة لأهل المدينة .

وشهادة الشافعى لأحاديث مالك تسجل لها مكانها الذى رفعها إليه المسلمون فهو يقول « مافى الأرض كتاب فى الفقه والعلم أكثر صواباً من كتاب مالك » ويقول «لولا مالك وابن عُيينة لذهب علم أهل الحجاز » ويقول : « إذا ذكر الحديث فمالك النجم» .

الفصل الثانى

العلم عند أهل المدينة

« لن يأتى آخر هذه الأمة بأهدى »
« مما كان عليه أولها »
(مالك بن أنس)

جمع الصدّيق الناس بعد وفاة النبى فقال : إنكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافاً . فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً . فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله . واستحلوا حلاله وحرموا حرامه .

وقال قرظة بن كعب . « لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا وقال : أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا مكرمة لنا . قال ومع ذلك . فإنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم. جردوا القرآن . . . وأقلوا الرواية عن رسول الله وأنا شريككم » .

فلما قدم قرظة قالوا حدثنا . قال نهانا عمر .

وروى عروة بن الزبير أن عمر أراد أن يكتب السنن فاستشار أصحاب رسول الله فأشار عامتهم بذلك . فلبث شهراً يستخير الله فى ذلك . شاكا فيه . ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إنى كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم . ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها . وتركوا كتاب الله . وإنى لا ألبس كتاب الله بشىء .

وصنيع عمر درس فى حلقة مالك . قال معن بن عيسى : حدثنا مالك . . أن عمر حبس ثلاثة : «ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصارى» فقال :

قد أكثرتم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى الدراوردى عن ... أبي هريرة : قلت له أكنت تحدث الناس فى زمان عمر هكذا ؟ قال :" لو كنت أحدث فى زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربنى بمخفقته .

وكانوا بالعراق يهددون الرواة بالشكوى لعمر . كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأناس من أصحابه فى الغضب . فينطلق ناس ممن سمع ذلك فيأتون سلمان فيذكرون قول حذيفة فيقول سلمان « حذيفة أعلم بما يقول » فعاتب حذيفة سلمان على عدم تأييده روايته ، وتركها على عهدته . وتجادلا . قال سلمان « فوالله لتنتهين أو لأكتبن إلى عمر » .

ومن بعد عمر كان معاوية يقول : عليكم من الحديث بما كان فى عهد عمر فإنه قد أخاف الناس فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتشددوا فى قبول الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكان أبو بكر يطلب الشهادة على السنة التى لا يعلمها . جاءته جدة تطلب ميراثاً . فقال المغيرة بن شعبة : سمعت رسول الله يعطيها السدس . وشهد محمد بن مسلمة بذلك فأعطاها أبو بكر السدس . وطلب عمر البينة . من أبى موسى الأشعرى . على حديث « إذا سلم أحدكم ثلاث مرات فلم يجب فليرجع » فأقره الناس . فقال لأبى موسى : إنى لم أتهمك ولكنه الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى هشام عن ابن المغيرة أن عمر استشارهم فى الجنين يسقط من المرأة نتيجة عدوان عليها ، فقال المغيرة قضى فيه رسول الله بغرة «عبد أو أمة» فقال عمر إن كنت صادقاً فهات شاهداً يعلم ذلك . فشهد محمد بن مسلمة أن النبى قضى به .

وكان على يستحلف الراوى .

أما عبد الله بن مسعود فكان يقضى العام بتمامه لايحدث مع أنه عاش نحو عشرين عاماً بعد وفاة الرسول . نصفها بعد وفاة عمر : وكان صاحب فتوى ورأى لكنه إذا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . تستقله الرعدة . ويقول توقيراً لقول الرسول . هكذا . . أو نحو ذا أو قريباً من ذا .

وكلمة «الحديث» تختلف عن كلمة «السنة» مع محاولة المحدثين التوحيد بينهما.

فالسنة هى المادة الدينية أو القانونية أى القاعدة أو المبدأ الذى يتضمنه الحديث. يقول ابن حنبل « فى هذا الحديث خمس سنن » .

سئل عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان الثورى والأوزاعى ومالك فقال . « سفيان إمام فى الحديث وليس بإمام فى السنة . والأوزاعى إمام فى السنة وليس بإمام فى الحديث . ومالك إمام فيهما جميعاً » .

* * *

يقول عليه السلام « المدينة حرام . من أحدث بها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

فإحداث حدث بدعة والبدعة ضلالة لا تنوء إلى المدينة وهى دار السنة . لأنها دار العالمين العاملين بأقوال الرسول وصحبه وأعمالهم . وهى نواة « الأمر الأول » ومن ثم أمسى يقال عن « الأخذ بالأمر الأول » أخذاً بالسنة .

وحدث أن تكاثر الناس بالحديث مع حدوث الفرق ، وقيام النحل ، وتعاقب الدول . وتعددت أسباب اختراع الأحاديث فتوقف الناس وشكوا . قال ابن عباس فيما صار إليه الناس من شك وتوقف « إنا كنا إذا سمعنا رجلاً يقول : قال رسول الله ابتدرته أبصارنا . وأصغينا إليه بآذاننا . فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف . وأُتى ابن عباس بكتاب قيل أن فيه قضاء لعلى فمحاه إلا قدر ذراع .

جاء فى مقدمة صحيح مسلم . « عن ابن سيرين : لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا — سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم » .

ولم يقبل الخوارج والشيعة إلا أحاديث جماعتهم . وتناقلت الأجيال الشكوك وبخاصة بعد دخول أشياع بنى أمية بشهواتهم فى تسخير العلم لصالح الدولة الجديدة . فأمسى من الفقه أن يتحرى الفقيه الحديث وسنده . ثم جاء دور أشياع بنى العباس .

ودخلنا عصر الكذابين : الذين يقولون على النبي ما لم يقله كالزنادقة وأشباههم ممن لا يرجون للدين وقاراً ، أو المحتسبين(!) كجهلة المتعبدين ، أو الفاسقين من المخترعين ، أو المتعصبين كدعاة المبتدعة ،أو المرتزقة الذين يتوسلون إلى الدنيا بالاختلاق ابتغاء مرضاة أمير أو وزير ، أو غير هؤلاء .

وكان التحريف فنونا فمنه ما يصنعه قوم بوضع متن الحديث وآخرون بوضع إسناد مشهور لمتن ضعيف . أو قلب الأسانيد أو الزيادة فيها أو ادعاء سماع لم يقع أو ممن لم يسمعه . أو نسبة شيء من الحكمة أو كلام الصحابة إلى الرسول .

كان المهدى يعجبه اللعب بالحمام . فدخل عليه غياث بن إبراهيم فروى حديثاً « لا سبق إلا فى خفّ أو فى حافر أو جناح» يقصد سبق الحمام ذى الجناح . فأمر له المهدى بعشرة آلاف درهم؛ فلما قام ليخرج قال المهدى : أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله . ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أو جناح » ولكنه أراد ليتقرب إلينا .

هكذا أثاب الخليفة الذى أنشأ ديوان الزنادقة لقتل الزنادقة بعشرة آلاف درهم على رواية حديث مزيف ، لا رضى منه عنه ولكن مثوبة على الزلفى إليه به . فالتحلل الدينى من غياث يلقى تهاوناً فى الدين عند خليفة من المتورعين !

لذلك ولغيره كان لا معدى عن تدوين الأحاديث وتحقيقها فى سندها وموضوعها . والاهتمام بالرواة

قال أبو الزناد «عبد الله بن زكوان» :«أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون وما يؤخذ عنهم الحديث . يقال : ليس من أهله » .

* * *

والمعروف أن تدويناً تم لبعض الحديث فى عهد الرسول مثل كتابه إلى عمرو ابن حزم . وفى عهد أبى بكر مثل كتابه إلى أنس بن مالك فى الصدقات ، وكتاب أو كتب كانت عند سعد بن عبادة الأنصارى وعند أبى رافع مولى النبى . كذلك صحائف جمعت فى عهد الخلفاء الراشدين كصحيفة أسماء بنت عميس زوج أبى بكر وصحيفة سمرة بن جندب وصحيفة جابر بن عبد الله وصحيفة عبد الله

ابن عمرو المسماة بالصادقة . وقد احتج بها الأئمة الأربعة : يقول عنها عبد الله : هذه الصادقة فيها ما سمعت عن رسول الله ليس بيني وبينه أحد . كذلك وجدت صحيفة همام بن منبه فيها (١٣٨) حديثاً أملاها عليه أبو هريرة مما يدل على أنها كتبت فى نحو منتصف القرن الأول. وقد نقلها ابن حنبل بعد نحو قرن ونصف .

وكان كثير من التابعين يحدثون بين يدى الصحابة . أما الفقهاء السبعة فى النصف الثانى من القرن الأول فظلوا يجمعون ويحفظون — مثل عروة بن الزبير كان سباقاً بما جمع لولا أنه أحرقه سنة ٦٣ يوم وقعة الحرة . فكان يقول إنه يؤثر ما حرقه على أولاده . ووجدت صحف عند الحسن البصرى وخالد بن معدان الكلاعى وأبى قلابة . وفى أواخر القرن الأول كان الزهرى من كبار الحفاظ والجامعين للحديث . حتى لتراه ، بعد ، يملى مئات منه فى المجلس الواحد . وحتى لتنقل كتبه على الدواب بعد مقتل الوليد بن يزيد (١٢٦) .

ولعمر بن عبد العزيز اليد الطولى فى هذه المضمار . والزهرى يعلنها فيقول : (أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً) .

وبعث عمر إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قاضيه وواليه على المدينة ليكتب إليه « بما يثبت عنده من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحديث عمر . فإنى خشيت دروس العلم وذهاب العلماء» . وابن وهب يقول إنه « لم يكن بالمدينة أحد عنده علم من القضاء ما كان عند أبى بكر بن حزم إذ ولاه عمر بن عبد العزيز وكافه أن يكتب إليه العلم من عند عمرة بنت عبد الرحمن والقاسم بن محمد . فكتبه له . ولم يكن على المدينة أنصارى غير أبى بكر» .

وأبو بكر بن حزم مرجع للفقه ، لليث بن سعد ومالك : كتب الليث لمالك كتابه ، وقد أسلفنا بعضه ، فاحتج على مالك بعمل ابن حزم قال : (. . . وقد استسقى عمر بن عبد العزيز . . . وأبو بكر بن حزم ، فكلهم يقدم الخطبة) .

ولقد حاول عبد العزيز بن مروان بمصر أن يجمع الحديث فى إبان ولايته التى

دامت عشرين عاماً حتى سنة ٨٦ . فكتب إلى كثير بن مرة الحضرمى الذى أدرك سبعين من أهل بدر أن يكتب له بما سمع من أصحاب الرسول . فعمر ابن عبد العزيز كان يتابع عمل أبيه.حذر طغيان الفيضان الجارف من التحريف لأغراض شتى عند الفرق وأصحاب البدع .

وكان للعلاء بن عبد الرحمن (١٣٩) صحيفة يحدث بما فيها كما روى ابن قتيبة ومالك . وربما أراد الرجل أن يكتب بعضها فيقول . إما أن تأخذها جميعاً أو تدعها جميعاً . وكانت أمالى الزهرى ومروياته قنية المحفظة والنقاة .

وفى عصر واحد حوالى الأربيعينات من القرن الثانى وجدنا ابن جريج (١٥٠) بمكة فيمن يجمعون وتبدى مالك بن أنس وقد استوى إماماً فى المدينة يعلم الناس ويجمع العلم ، ومثله فيها محمد بن أبى ذئب ثم وجدنا حماد بن سلمة (١٦٥) وسعيد بن أبى عروبة بالبصرة (١٥٧) ومعمر بن راشد باليمن (١٥٣) والأوزاعى بالشام ثم وجدنا ابن المبارك بخراسان (١٨١) وجرير عبد الحميد بالرى (١٨٨) ثم عبد الله بن وهب بمصر كلهم يثبتون الحديث وفتاوى الصحابة والتابعين[١] .

وروى أن عبد الرحمن بن أبى الزناد جمع فتاوى الفقهاء السبعة فى كتاب سماه « رأى الفقهاء السبعة فى المدينة وما اختلفوا فيه» وروى أن مالكاً تكلم فى عبد الرحمن بن أبى الزناد لرواية الكتاب المذكور عن أبيه . وقال مالك فيه أين كنا من هذا ؟ . وأبو الزناد (١٣١) ممن روى عنهم مالك فى الموطأ . وابن النديم ينسب الجمع لعبد الرحمن والحافظ الذهبى ينسب الجمع لأبيه ؛ وعلى الحالتين هما كلاهما ماتا فى حياة مالك[٢] .

---

(١) « المجموع » لزيد بن على زين العابدين يحتوى على فقه الشيعة ، فإذا ثبتت نسبته لزيد فقد يكون أسبق المجاميع الفقهية تدويناً بما فى ذلك مدونات الإمام أبى حنيفة نفسه أومدرسته فلقد مات شهيداً سنة ١٢٢ .

(٢) كان القرن الثانى عصر العلم العظيم الذى أنتج الأئمة الأربعة ، وقد ابتدأ بعلماء فى أبواب كثيرة . مثل أبان بن عثمان (١٠٥) فكان فقيهاً وعالماً بالسير والسنن . وتلميذه عبد الرحمن بن المغيرة . (١٢٥) وشراحيل بن سعد (١٢٣) يقول فيه ابن عيينة . « إن أحداً لم يعرف المغازى ، وغزوة أحد ، معرفته » وعاصم بن قتادة (١٣٩) أجلسه عمر بن عبد العزيز ليحدث الناس فى السيرة =

ولقد كان ثمة من الفقهاء عبد الله بن أبي بكر بن حزم (١٣٥) وأبو بكر (١٢٠) قاضى المدينة وواليها لعمر بن عبد العزيز وسليمان . أما زوجة عبد الله ذاته فاطمة بنت عمارة فمحدثة يحدث هو عنها . وتلقى الحديث عنها محمد ابن إسحق صاحب المغازى .

وكان بالمدينة كذلك محمد بن أبي بكر بن حزم (١٣٢) أخى عبد الله — قاضياً عليها وسيتولى ابنه عبد الملك قضاء بغداد للرشيد .

الموطأ :

فى إبان هذه النهضة لجمع الحديث قيل إن مالكاً كان يروى مائة ألف حديث . أودع الموطأ منها فى أول أمره عشرة آلاف ، وقيل تسعة آلاف ، أو أربعة آلاف أو أكثر . ثم ظل يخلصها عاماً فعاماً من الشوائب . حتى مات وهى ألف ونيف بقيت فى « الموطأ » . وسماه كذلك بمعنى المنقح أو الممهد أو المحرر .وقيل سمى كذلك لأنه وطأه للناس أو لأن سبعين من فقهاء المدينة واطؤوه عليه. نهج فيه منهج البدء بالآثار ثم التعقيب بالفقه عند الحاجة . . . روى فيه عن خمسة وتسعين رجلاً مثل ابن شهاب — الزهرى — روى عنه ١٠٠ حديث ومثل نافع روى عنه ٨٦ حديثاً وآخرين .

وقد أحصى البعض ما فى الموطأ فوجدوا فيه من المسند خمسمائة حديث ونيفاً ومن المرسل ثلثمائة ونيفاً ووجدوا مالكاً ترك العمل بسبعين. وتختلف الإحصاءات . بحسب اختلاف النظر .

أما الذين رووه عنه ففحول تلاميذه مثل ابن القاسم ويحيى بن يحيى الليثى ومحمد بن الحسن . وقيل إن الروايات للموطأ نيفت على الستين .

= وموسى بن عقبة (١٤١) ومحمد بن السائب الكلبى (١٣٦) ومحمد بن إسحق (١٥٢) ومعمر بن راشد (١٥٢) ثم الواقدى (٢٠٧) كل أولئك كانوا متخصصين فى المغازى وكان مالك يؤثر مغازى ابن عقبة على مغازى بن إسحق ويقول « عليكم بمغازى ابن عقبة فهى أصح المغازى» وأما الشافعى فيقول « من أراد أن يتبحر فى المغازى فهو عيال على محمد بن إسحق» .

وعد البعض للموطأ ثلاثين نسخة وعد آخرون عشرين. ومن النسخ ما ينفرد بأحاديث ليست في الأخرى .. ولعل السبب أن مالكاً كان ينقصها عاماً فعاماً ولا يبقى على ما فيه شك كلما راجع . والمشهور منها الآن روايتان الأولى ليحيى ابن يحيى الليثي والثانية لمحمد بن الحسن .

وليس فى الموطأ حديث غير حسن . قال الشافعي: «ما فى الأرض كتاب فى الفقه والعلم أكثر صواباً من كتاب مالك» .

ومن أجل ذلك أصبح هو الكتاب الأول فى السنن . وتتابع عليه أصحاب المسانيد والصحاح . وهذا من المقولات الشائعة قول القائل : الموطأ هو الأصل الأول والبخاري هو الأصل الثاني . وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذي وأضرابهما . يقول أبو داود : أصح حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما ثم مالك عن نافع عن سالم عن أبيه . ثم مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة وأعلى درجة فى الإسناد عند البخاري . هي : مالك عن نافع عن ابن عمر .

كثرت فى الموطأ روايات الزهري . على ماسلف - من بيان . أما روايات عبد الله بن أبي بكر فتترى عن أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم[1] أو عن عبد الله هذا عن عمته وعن جدته . أو عمته عن جدته . أو يحيي بن سعيد عن أبي بكر بن حزم . أو عن ربيعة الرأى عن أبي بكر ابن حزم . أوروايات عن أبيه محمد بن عمرو بن حزم أو عن عبد الله بن أبي بكرعن أبيه عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة . أو عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عمرة عن عائشة . أو يحيي بن سعيد الأنصاري عن عمرة عن عائشة . . . إلخ ما ورد فى الموطأ عن طريق بيت ابن حزم .

---

(١) عمرو بن حزم رسول النبي عليه السلام إلى نجران وإليه كتب الرسول كتاب الديات وقد رواه مالك فى الموطأ : عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه . وعبد الله أعلى سناً من مالك .

وروى الزهرى وربيعة أستاذا مالك عن أبى بكر بن حزم . وهو كما قال محمد بن سعد : أمه كبشة وخالته عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية الراوية عن عائشة . وسفيان بن عيينة يقول : أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة القاسم وعروة ، وعمرة .

هكذا ترتبط دار ابن حزم بعائشة ، فيرتبط بها - عن طريقها - مالك. وأبو بكر بن حزم بأبيه وجده وجدته وعمته وخالته وابن خالته - أبى الرجال -[1] وبابنيه ، وزوج ابنه عبد الله ، مدرسة كاملة . كانت قادرة فى زمان عمر ابن عبد العزيز . وفيما بعد زمانه . على الاستمرار فيما عهد به إليها .

كانت دارهم مَعْلَماً من معالم المدينة ، فهى لصق لدار عثمان ومنها نفذ الثوار إليه . ومن أمامها حمل مروان بن الحكم والى المدينة سرير أم المؤمنين حفصة إذ ماتت حتى دار المغيرة بن شعبة. وفى البيت الحفدة. والأبناء والآباء والأجداد . وفيه الرجال والنساء فى نسق واحد فقهاء . وفيه من الصحابة ومن التابعين . منهم عمرة التى ربيت فى حجر عائشة كما يروى القاسم لابن شهاب . وعندما يؤول علمهم إلى مالك عن طريق عبد الله ومحمد ابنى أبى بكر بن حزم أو عن طريق مدوناته فثمة علم المدينة دقة وجله . وإذ الوحظ أن القاسم ربيب عائشة وابن أخيها وأن بالموطأ كثيراً من أحاديثه وأحاديث عروة بن الزبير وهو ابن أختها وراويتها ، فقد يخلص أن دعوة عمر بن عبد العزيز للزهرى أو لأبى بكر بن حزم بجمع السنن بالمدينة من لدن عمرة والقاسم ، والرواة عن الصحابة ، قد لقيت استجابة عنده فأحدث التدوين المرجو. وسواء أسامه أبو بكر أم لم يسلمه لعمر أو سامه ولكن لم تتسامه الأمة بعده ، فإن مدوناته قد آلت إلى ولديه كما آل عامه وجمعه إلى علماء المدينة وبخاصة مالك .

وهكذا يدخل مالك بن أنس التاريخ بموطئه كما دخله بحلقته ، فى المدينة ،

---

(١) أبو الرجال : محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حارثة بن النعمان ، وكانت لحارثة منازل قرب منازل الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان كلما أحدث رسول الله أهلا تحول له حارثة عن منزل . قال عليه الصلاة والسلام : لقد استحييت من حارثة مما يتحول لنا عن منازله .

يتفيأ أفياء الصديق أبي بكر وعائشة وبنى المنكدر وآلهم . وآلاء عمر وآل عمر . وابن عوف وعلى وآخرين من الصحابة . والرواة عنهم . من مواليهم أو من أنفسهم ، لكن أثر عمر بن عبد العزيز فى موطأ مالك من أظهر الأثر . فهو الذى أمر بالجمع أو بالتعليم فى سائر الأمصار . وهو الذى هيأ له الزهرى ووالى المدينة وعالمها أبا بكر بن حزم .

ولقد بدأ عمر جمع العلم لنفسه مذ كان يتعلم فى المدينة ليصير من فقهائها المعدودين. تعهد العلم والعلماء وهو أمير عليها . ثم استأنف الجمع من أجل الأمة وهو أمير للمؤمنين (٩٩ — ١٠١) واستطرد يعلم الأمة فبعث إلى الأمصار من يعلمونهم السنن كما بعث نافعاً إلى مصر وكلف الزهرى بالجمع . وعهد إلى أبى بكر بن حزم (١٢٠) بمتابعة ما أهمه لظروف أبى بكر المواتية بالمدينة .

ومات أبو بكر سنة ١٢٠ — ولحقه ابنه محمد سنة ١٣٢ ثم ابنه عبد الله فى ١٣٥ ،وكان مالك بن أنس يرأس حلقة لنفسه منذ نحو عشرين عاماً .

جاء فى الموطأ « أخبرنا مالك ، أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سننه أو حديث عمر أو نحوه فاكتبه لى . فإنى قد خفت دروس العلم وذهاب العلماء » .

وفى رواية محمد بن الحسن تعليق محمد « وبه نأخذ . لا نرى بكتابة العلم بأسا » وظاهر ذلك أن اتجاه عمر لم يكن لتدوين الأحاديث وحدها بل لتدوين السنة بمعناها العام، وهذا يبدو من خوفه دروس العلم ومن نصه على حديث رسول الله وسننه وحديث عمر أو نحوه أى الفقه بمعناه الأعم،وهذا هو ما فهمه محمد بن الحسن .

* * *

ومالك يعمل بالحديث إذا صح أو حسن ولا يشترط فيه التواتر أو الاشتهار . وطريقته للصحة والحسن عمل أهل المدينة إذا اتفق عملهم مع علم علمائهم .

ويقدم هذا الاتفاق الإجماعى على القياس وعلى الحديث « لأنه يراه عندئذ قد نسخ » فإذا لم يكن العمل إجماعياً ، بل كان عمل أكثرهم ، قدمه على خبر الواحد لأن العمل بمنزلة الرواية فعمل الأكثر بمنزلة رواية الأكثر . فإذا جاء خبر الواحد يخالفهم كان الراجح أنه منسوخ . ومن أجل هذا لم يحدث مالك بكثير من أحاديث أستاذه ابن شهاب . . إذ ليس عليها العمل .

ولا يقف مالك فى التحرى عن الحديث عند حدود فيعلن «لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين — ويشير إلى أساطين مسجد الرسول — فما أخذت عنهم شيئاً وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أميناً . إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » فهم النوع الرابع من قوله « لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ من سواهم : لا يؤخذ من سفيه ولا من صاحب هوى يدعو إلى بدعة ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس ، وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدّث به » .

أما عن الأحاديث يقدم فيها ويؤخر والمعنى واحد فهو يقول: «أما ما كان من لفظ النبى فلا ينبغى للمرء أن يقول إلا كما جاء ، وأما لفظ غيره فإذا كان المعنى واحداً فلا بأس به . قيل له فحديث رسول الله يزاد فيه الواو والألف والمعنى واحد فقال : أرجو أن يكون خفيفاً » .

والإجماع على المنقول عن النبى حجة فى المذهب . مثل نقل الأذان والإقامة .

وقد نقل مالك إجماع أهل المدينة فى نيف وأربعين مسألة فى الموطأ .

والنبى يقول : « خير القرون قرنى[1] ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . ثم يفشو الكذب » . فهذان جيل النبى والصحابة وجيل التابعين يتقدم أولهما على ثانيهما فى الخير . لكن الجيل الثالث يفشو بعده الكذب . فحق على مالك أن يكون

---

(١) القرن مدة طبقة من أهل العلم . فمدة الصحابة قرن . ثم مدة التابعين قرن . ثم الذين يتبعونهم قرن .

أشد الرجال انتقاء للرجال كما وصفه سفيان بن عيينة .

اهتم مالك كل الاهتمام بدراسة الرجال والمتون فى الوقت ذاته . فانداحت بعمله موجة التعديل والجرح للرواة أى كونهم عدولاً أو مجرحين لتنتهى إلى إقامة علوم الحديث . وقيام أصحاب المسانيد والصحاح بجمع مسانيدهم وصحاحهم . وعظم احتياط المسلمين لدينهم لأن هذا العلم دين كما يقول مالك . لنجد فى إبان هذه الحقبة علىّ بن المدينى يُسأل عن أبيه بين الرواة فيقول « سلوا عنه غيرى » فأعادوا المسألة فأطرق ثم رفع رأسه وقال « هذا الدين : إنه ضعيف » ونجد يحيى بن معين (٢٣٣) المحدث الكبير يقول « إنا لنطعن على أقوام قد حطوا رحالهم فى الجنة منذ نحو من مائتى عام » .

يقول المستشرق الألمانى «شيرنجر» : « لم يكن فيما مضى أمة من الأمم السابقة كما لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت فى علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون فى هذا العلم العظيم الخطر الذى يتناول أسماء خمسمائة ألف رجل وشئونهم » .

الموطأ — منهجه :

والموطأ كتاب فقه يتميز بين جميع كتب الفقه بأنه يشتمل على السنة القولية والفعلية أساساً ، وعلى اتباع هذه السنة اتباعاً متواتراً جيلاً بعد جيل .

والسنة تتبدى فى أحاديث يرويها عن النبىّ وفى أخبار وآثار عنه — وعن الصحابة والتابعين إذ عملوا بها . والأحاديث جميعها مرددة فى الصحاح ، وجوامع السنة أو الكتب الستة بنصها أو بمثله أو بمعناه . ويستوى فى ذلك الأحاديث المسندة أو المرسلة[1] التى ينقطع فيها راو أو أكثر أو البلاغات التى

---

(١) الحديث المرسل هو الذى يسقط من روايته الصحابى والمنقطع هو الذى يسقط منه راو أو أكثر والبلاغات هى التى يقال فيها : بلغنى أو عن الثقة . والمعلقات هى التى لا يذكر فيها السند من أوله كأن يقول القائل فى القرن الثالث الذى لم ير ابن عمر عن ابن عمر . والموقوفات هى التى تخص الصحابة وينتهى فيها القول إلى الصحابى فلا يذكر فيها فعل أو قول للنبى . والمقطوعات هى التى ينتهى فيها القول إلى من دون الصحابى كالتابعى

يقول فيها بلغنى . وقد راجع العلماء مرسلات الموطأ فوجدوها موصولة أو تقويها أحاديث موصولة . كما وجدوا البلاغات صحيحة . وهذا ما يعنيه الأئمة بقولهم « بلاغات مالك صحيحة » . وقولهم : « مراسيل مالك أصح من مراسيل ابن المسيب » ، والشافعى الذى لا يأخذ بالمرسل يستثنى مرسلات سعيد بن المسيب لأنها امتحنت فوجدت صحيحة . ويقول سفيان فى بلاغات مالك : « إذا قال مالك بلغنى فهو إسناد قوى » .

ولما قال ابن عبد البر إن أربعة أحاديث لا توجد فى غير الموطأ قال إن الأربعة ليس فيها منكر واحد أو واحد يدفعه أصل . وهو بهذا يتلاقى مع ابن الصلاح الذى وصلها . وشرح ابن عبد البر للموطأ ، ويسمى التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد ، هو الذى يقول فيه ابن حزم الأندلسى : « لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثله فكيف أحسن منه » .

ذكروا أن مالكاً لم يكن يضع فى الموطأ إلا المجمع عليه . ولما عرضه عليه تلاميذه فى أربعين يوماً قال : « كتاب ألفته فى أربعين سنة أخذتموه فى أربعين يوماً ! قل ما تتفقهون فيه » .

وهذه الصحة مسلمة للموطأ مع أن ثلث أحاديثه مرسل أو منقطع [1] .

والموطأ مدونة للسنن قاصرة على الفقه . وهو بمقارنته بكتب الحديث كتاب سنة أكثر منه كتاب حديث .

ومع ذلك فمن فقهاء المغرب من يضعون الموطأ بجوار كتب السنة الصحاح وهى مقتصرة على الحديث .

* * *

---

(١) كان الزهرى كثير الإرسال . وقد ظهرت عادته فى موطأ مالك تلميذه .

قال الحسن : متى قلت لكم حدثنى فلان فهو حديثه . ومتى قلت قال رسول الله فمن سبعين .

وكان الشافعى يأخذ بمرسل سعيد بن المسيب . ولا يأخذ بمرسلات الزهرى مع إجلاله له . وسعيد بالمدينة يعدل فى الكوفة إبراهيم النخعى أستاذ مدرسة أبى حنيفة . وكان يكثر إرسال الحديث ويقول : «إذا حدثتكم عن رجل فهو الذى سمعت . وإذا قلت قال عبد الله فهو عن غير واحد عن عبد الله » فهو بهذا يبين أن إرساله لا يكون إلا عن متواتر أو مشهور لأنه لم يلق عبد الله بن مسعود .

أعد مالك للأمر عدته مذ رأى لعبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون موطأ بغير حديث فقال ما أحسن علمه ولو كنت أنا لبدأت بالآثار ثم سددت ذلك بالكلام .

فوضع موطأه كما تمنى وكما آل إلينا[1] .

---

(١) ظل مالك ينقص أحاديث الموطأ ، حتى انتهى إلى الصورة الأخيرة ، وبهذا القدر المتيقن أقره علماء المدينة وتابعهم عليه المسلمون كافة . فصار مصدراً جامعاً يتميز بجدة الطريقة وشمول التبويب المعروف من أبواب الفقه . وهو أول كتاب فقهى متكامل آل إلى أهل السنة وهو أول مجموع سنن فى مستواه آل إلى المسلمين .

ولئن كان أبو حنيفة قد بدأ تدوين الفقه وتبويبه فى حلقته فى العشرينات من القرن ذاته إن ما آل إلينا من كتبه ليس إلا كتابات فى العقيدة . وهى الفقه الأكبر والأوسط ورسالة فى الإرجاء منه إلى عثمان البتى .أما كتابات حلقته فطلائعها كتابات قليلة نسبياً لأبى يوسف وتآليف محمد بن الحسن الضافية وكلها كتبت بعد الموطأ بزمان ومن بعد ذلك كله كتب الشافعى كتبه التى جمعتها كتب الأم أو المبسوط التى رواها تلامذته .

ويقع الموطأ فى نحو ألف صفحة كبيرة .تسع كتب الفقه من عبادات — ومعاملات ومن شئون الجهاد وما إليها . وينحو نحو الكتب العصرية فى الشرح للمتون . حيث الحديث أو الخبر هو المتن . أما الشرح فهو رأى مالك أو رأى الصحابى أو التابعى ، وعمل أهل المدينة . وهو مقسم إلى ثلاثة وستين كتاباً وفى كل كتاب أبواب . أو عشرات أبواب .

خذ مثلا كتاب الحج يقع وحده فى ثلاثة وثمانين باباً . وكتاب البيوع فى ستة وأربعين وكتاب الأقضية فى واحد وأربعين — وكتاب الطلاق فى خمسة وثلاثين . فيها فروع بالعشرات .

ومالك يعلل ويفسر ويبدى اختياره أو يعرض ما عليه السنة أو عمل الصحابة أو عمل أهل المدينة . يقول أحياناً « وهذا الأمر هو الذى أدركت عليه الناس وأهل العلم ببلدنا » أو يقول « الأمر عندنا » أو يقول بعد استعراض الآراء . « وقول فلان أحب ما سمعت إلى فى ذلك » أو يقول « السنة التى لا اختلاف فيها عندنا» أو « قضت السنة عندنا » أو « ليس العمل على كذا » .

وبهذا ظهر فى الكتاب كثير من عرف المدينة فى البياعات وسائر المعاملات .

وهو أحياناً يروى آراء الجماعة من الصحابة فى المسألة الواحدة مثل عمر وعثمان وعلى والزبير معاً .

وأحياناً يسأل ويجيب أو يحسّن الرأى فيقول : هذا حسن وليس بواجب أو ينضم لرأى غيره . وكثيراً ما يقول : أرى أو يقول أرى والله أعلم . وكثيراً ما يروى آراء مالك من إنشائه أو تفسيره أو بيانه لما يكره . وأحياناً لا يذكر مالك فى الباب بتمامه حديثاً واحداً بل يذكر فتاوى لأئمة معتبرين فى مسألة موجودة أو مفروضة ليستنتج منها أو يثبت عملا لأهل المدينة فيها أو أمراً مجتمعاً عليه منهم . =

وفى الموطأ روايات عن على وابن عباس ، أو عن أحفاد على ، وروايات عن جعفر الصادق . فلا وجه لما روى من أن الرشيد أو أبا جعفر سأل مالكاً عن عدم إيراد أحاديث عن على وابن عباس وأنه أجاب بقوله إنهما لم يكونا ببلدى. فإن كانت الأحاديث المشار إليها أدرجت بعد السؤال . فمالك كان لا يفتأ يراجع كتابه عاماً فعاماً ينقص منه وربما زاد .

وهكذا نجد الموطأ كتاب فقه فى الدرجة الأولى وإن كان كتاب سنة من الدرجة الأولى ، ونجده أسبق الكتب الفقهية التى آلت إلينا من أئمة السنة .

ويظهرنا الموطأ على أن اتباع مالك للذين سبقوه لا ينفى استقلاله ولهذا الاستقلال نسبوا إلى الليث بن سعد أنه قال: «أحصيت على مالك سبعين مسألة قالها برأيه وكلها مخالفة لسنة رسول الله» بل إن مالكا وقد ذكر له الموطأ قال : فيه حديث رسول الله وقول الصحابة والتابعين وقد تكلمت برأيى على الاجتهاد وعلى ما أدركت عليه أهل العلم ببلدنا ولم أخرج من جملتهم إلى غيره .

قال يحيى بن معين شيخ المحدثين . إن مالكاً لم يكن صاحب حديث وكان صاحب رأى بل قال ابن رشد فيما بعد « مالك أمير المؤمنين فى الرأى والقياس » أما عن موافقة رأيه للسنة فقد أعلنها الإمام أحمد بن حنبل ، يوم سئل

= وتماز النسخة التى يرويها محمد بن الحسن بمجموعة من الخصائص منها أن محمدا يروى روايات أخرى غير روايات مالك وخصوصاً روايات العراقيين . وكثيراً ما يعلق برأيه . وبرأى أبى حنيفة . وبرأى العامة من الفقهاء حتى ليعلن البعض أن هذا الموطأ جدير بتسميته موطأ محمد لا موطأ مالك . ولو ذكرنا أن الموطأ مجموعة فقهية غير قاصرة على الحديث لزال التناقض. فمحمد يعلق على مجموعة فقهية هى الموطأ. وإن كثر ما يرويه عن غير مالك أوكثرت اجتهادات محمد وتعليقاته بآراء فقهاء العراق والحجاز مثل أقواله : وبه نأخذ . أو عليه الفتوى . أو وهو قول أبى حنيفة أو وهو الصحيح ؛ أو يذكر : وفى هذا آثار كثيرة أو يقول وهو قول أبى حنيفة والعامة –أى جماعة الفقهاء – أو : وهذا الحديث أرفق بالناس أو قد جاء ما هو أرخص من هذا وهو . . وأحياناً – يذكر خلافات الأئمة ويناقش مالكاً وأبا حنيفة .

ورواية محمد على هذا الوجه – مجموعة تسكر البصر من الفقه المقارن فيها سلاسل الكوفة والحجاز وآراء مدرسة أبى حنيفة والمحدثين فى العراق والحجاز وهى دلالة صادقة على أن فقه السنة فى مجموعه واحد . وإن تعددت أسانيده أو طرقه .

حديث من نأخذ ورأى من نأخذ ؟ فقال حديث مالك ورأى مالك .

يقول ابن حنبل : « فاتنى مالك . فأخلف الله علىّ سفيان بن عيينة » وسفيان شيخ المحدثين بمكة . وشيخ الشافعى فى الحديث . فمالك عند ابن حنبل محدث لا يحل محله إلا شيخ المحدثين بمكة . وابن حنبل صاحب المسند الأعظم .

والمروى عنهم فى الموطأ كلهم من المدينة إلا ستة : اثنان من البصرة وواحد من كل من مكة والجزيرة وخراسان والشام .

* * *

ويروى إسماعيل بن أويس عن مالك قوله : « أما أكثر ما فى الكتاب فرأى لعمرى ما هو برأى ولكنه سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل . والأئمة المهتدى بهم الذين أخذت عنهم وهم الذين كانوا يتقون الله تعالى : فكثر على فقلت رأيى إذ كان رأى الصحابة الذين أدركوهم عليه وأدركتهم أنا على ذلك . فهذا وراثة توارثوها قرناً عن قرن إلى زماننا . وما كان رأياً فهو رأى جماعة ممن تقدم من الأئمة . وما كان فيه الأمر المجتمع عليه فهو ما اجتمع عليه من قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه . وما قلت الأمر عندنا فهو ما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام وعرفه الجاهل والعالم . وكذلك ما قلت فيه ببلدنا فهو شىء استحسنته من قول العلماء .

وأما ما لم أسمع منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته حتى وقع ذلك موقع الحق أو قريباً منه حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم . فنسبت الرأى إلىّ بعد الاجتهاد مع السنة . وما مضى عليه عمل أهل العلم المقتدى بهم . والأمر المعمول به عندنا من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة الراشدين . . . »

الموطأ — مع الخلفاء :

اقترن وضع الموطأ بمناسبات فى لقاءات الخلفاء تبدأ بزيارة أبى جعفر للمدينة

عندما لقبه أبو جعفر ، وتستمر عندما شاوره المهدى وتنتهى عندما زاره الرشيد[1] .

روى ابن سعد عن الواقدى أنه سمع مالكاً يقول : لما حج أبو جعفر دعانى فدخلت عليه فحادثته وسألنى فأجبته فقال إنى عزمت أن آمر بكتابك الذى وضعته . يعنى الموطأ . فينسخ نسخاً ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدونه إلى غيره ، ويدعوا ما سوى ذلك من العلم المحدث . فإنى رأيت أهل العلم رواة أهل المدينة وعلمهم . فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا . فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات . وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف الناس وغيره . وإن ردهم عما اعتقدوه شديد . فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم فقال : لعمرى لو طاوعتنى على ذلك لأمرت .

كان أبو جعفر يعمل جاهداً ليقارب أصحاب السنن وكان فى فزع من الشيعة . كما كان من كبار فقهاء جيله من بنى هاشم . يقول عنه مالك : « ثم فاتحنى فيمن مضى من السلف والعلماء فوجدته أعلم الناس بالناس . ثم فاتحنى فى العلم والفقه فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه . وأعرفهم بما اختلفوا فيه ، حافظاً لما روى ، واعياً لما سمع » .

وكان ابن المقفع (١٤٣) فى بداية أيام أبى جعفر . ونهاية أيام ابن المقفع — قد أشار فى رسالة « الصحابة » إلى تناقض الأقضية فى البلدان فقال : « . . لو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه فى كتاب . ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ثم نظر أمير المؤمنين فى ذلك ، وأمضى فى كل قضية رأيه الذى يلهمه الله . ويعزم له عليه . وينهى عن القضاء بخلافه . وكتب بذلك كتاباً جامعاً وعزماً . لرجوت أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً . ورجونا أن يكون اجتماع السير

---

(١) ولى أبو جعفر الخلافة من سنه ١٣٦ إلى سنة ١٥٨ ووليها المهدى بعده حتى سنة ١٦٩ فالهادى فالرشيد (١٧٠ — ١٩٣) وأمر أبو جعفر على المدينة إسماعيل بن عبد الله . وأخاه عبد الصمد وجعفر بن سليمان بن على الذى أمر بضرب مالك بن أنس .

قربة لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك إلى آخر الدهر » .

فابن المقفع أراد إمضاء رأى الخليفة . أى إصدار تشريع من وضع الخليفة ، شأن الملوك فى فارس وسواها . وكان فارسياً تعرب ، فأحسن أدب العرب . أما الذى أراده أبو جعفر فأمر آخر رفضه مالك — وإن أمر له فى آخر الأمر بألف دينار ولابنه بألف .

وفى رواية عن مالك أن المهدى طلب ذلك فقال له : « يا أمير المؤمنين أما هذا الصقع "وأشار إلى المغرب" فقد كفيتكه . وأما الشام ففيهم الرجل الذى علمته " يعنى الأوزاعى" وأما أهل العراق ففيهم أهل العراق » .

وفى رواية عبد الله بن عبد الحكم — أنه سمع مالكاً يقول شاورنى هرون الرشيد فى ثلاث . فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة . ويحمل الناس على ما هم فيه . وفى أن ينقض منبر الرسول ويجعله من جوهر من ذهب وفضة . وفى أن يقوم نافع بن نعيم إماماً يصلى بالناس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا أمير المؤمنين أما تعليق الموطأ فى الكعبة فإن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع فافترقوا فى البلدان وكل عند نفسه مصيب . وأما نقض المنبر فلا أرى أن تحرم الناس أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما تقديمك نافعاً يصلى بالناس فإن نافعاً إمام فى القراءة لا يؤمن أن تبدر منه فى المحراب بادرة فتحفظ عليه . فقال : وفقك الله يا أبا عبد الله .

والروايات الشتى عن اللقاءات الأخرى مع هؤلاء الخلفاء تثبت بيقين لقاء مالك وأبى جعفر واستنساخه الموطأ ليذاع فى الأصقاع وطلبى المهدى والرشيد . وبهذا يسوغ فى الذهن أن اللقاءات وسعت محاولات للاستفادة بعلم أهل المدينة من إمام المدينة الذى يمثل الاتباع الكامل للسنة ولنهج الصحابة والتابعين . وهى صيحة الحرب التى أججت الدولة الجديدة . ومالك ومناهجه طريقتها المثلى إلى القلوب . ورد مالك على الخلفاء الثلاثة يظهرنا على عمق نظره إلى اختلاف الفقهاء ودقة رأيه فى أن كتابه كتاب فقه قبل أن يكون كتاب سنن . وللناس أن يختلفوا

فى الفقه فلا يلزمون بفقه بعيد عنهم ، دون فقه أصاح الله به بالهم . وفى موقفه تقدير لمعارضة مخالفيه له واحترام لاجتهادهم . وهو إلى ذلك يسير بأبى جعفر المنصور وبنيه من القسر والعسر إلى اليسر كدأب أهل المدينة . وإلى الاجتهاد وعدم التقليد كدأب أصحاب الرأى من الأئمة .

وفى رد مالك على الرشيد من عدم نقض منبر الرسول ، درء لمفسدة وسمو بالتعبير عن ملامة الرشيد على معنى وضع الجوهر فى المنبر . واتباع أو استمساك بالأثر وبالأمر الأول .

وأبو جعفر خصم لفقه الشيعة . النابع من نظريتهم السياسية فى أن الإمامة لعلى وبنيه وهو لا يرتاح إلى أبى حنيفة لمجانبة أبى حنيفة له ، وربما لاتهام أبى حنيفة بالتشيع وكان فى أخريات أيامه يملأ الأفق . وتضؤل إلى جوار حلقته كل الحلق . وأبو جعفر يعرف مقداره فيحاول أن يفيد لدولته منه ، مثلما حاول أن يفيد لها من مالك فيدعو أبا حنيفة ليلى القضاء ببغداد . ويأبى الإمام أن يجلس لأبى جعفر مجلس القضاء .

وفقه العراق شركة بين الشعبين — اللذين يؤلفانه من عرب الأصول وغيرهم . وإمامه الأعظم النعمان بن ثابت « أبو حنيفة» أبوه ثابت وجده زوطى. ولقد قتل المنصور أبا مسلم الخراسانى الذى أقام دولته ودمر الرشيد الدولة الفارسية التى تحكمه داخل دولته ! نعنى البرامكة ، وكلاهما كان بحاجة إلى الرجوع إلى أهل الحجاز وإلى فقه كله من دار الهجرة أو مكة أو الطائف . حيث كان جدهما عبد الله بن عباس قرين عبد الله بن عمر الإمام الآخر لفقهاء السنة .

وكان المهدى يحارب الزنادقة فى بغداد والكوفة . ممن أسلموا واستعربوا ، فما كان أحوج الخلفاء إلى سلاح السنة . يشهرونه فى وجه أعداء الدين . ليربطوا الدولة بأصولها التاريخية بالحجاز .

الفصل الثالث

العمل بالمصلحة

« ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه؟ »
« من لم يقنط الناس من رحمة الله »
« ولم يرخص لهم فى معاصى الله . »
« ولم يؤمنهم من مكر الله »

« على بن أبى طالب »

الإمام مالك فقيه عملى يتغيا فقهه تيسير السعى فى الحياة ، دون تعقيد . أو التزام قيود — إذا وجد نصًّا قاس . وإلا لم يجهد نصًّا ، ولم يجهض علة . واستدل بالمعنى المقطوع به من تضافر النصوص . فإذا عوملت بهذا الأصل وقائع الحياة ، أخذ بما يلائم الأصل دون تكلف . ورد ما لا يناسبه دون حرج .

وهو فقيه عصرى أبداً ، لا تصرفه الصيغة عن المضمون . ولا الشكل عن الموضوع . ولا العبارة الظاهرة عن المعنى الحقيقى . ويحتفل بأعراف الناس . متبعاً فى كل ذلك روح المدينة وروحها . ومجتهداً فى آرائه ليجعل الحياة الواقعة يسيرة على الناس . والتكاليف مقدوراً عليها .

والإسلام يسر وسماحة .

اقتصرت نصوص المشرع الإسلامى على ما يمكن أن نطلق عليه « أساسيات » . منهجها تقليل التكاليف ورفع الحرج وهى جميعاً تصدر عن مقصود شامل للشارع هو التيسير . لا يكلف نفساً إلا وسعها . يقول جل ثناؤه : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) [1] . (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا) ، والنبى عليه السلام يقول « بعثت بالحنيفية السمحة » .

ويتجلى تقليل التكاليف فى العبادات فهى قليلة مقدور عليها . حتى الجيل الذى عاصر الرسول يسر عليه بالتدرج فى حالات كثيرة مثل النهى عن الخمر .

---

(١) الحرج ما لا مخرج له . جاء رجل فى ناس من قومه إلى ابن عباس فسأله عن الحرج فقال : أولستم العرب ؟ ثم قال : ادع إلى رجلا من هذيل . فقال له ما الحرج فيكم ؟ قال : الحرجة من الشجر ما ليس له مخرج . قال ابن عباس : ذلك الحرج ما ليس له مخرج .

والميسر : أشار أولاً إلى إثمهما وإلى كونه أكبر من نفعهما . والفاقهون يستنبطون الحرمة من غلبة الإثم على المنفعة . ثم أشار إلى هذه الحرمة فى النهى عن الصلاة والمصلون سكارى مما يستنبط منه أن ما تحرم به الصلاة حرام . فلما تهيأت أنفسهم حرمت الخمر والميسر نهائياً . بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان . فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

وقرر المشرع . درء الحدود بالشبهات أخذاً بالرفق؛ فقال عليه السلام : «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم . فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى توقيع العقوبة » .

وقال النبى للمسلمين « خذوا من العمل ما تطيقون » . قال رجل : والله يا رسول الله إنى لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطول بنا . قال : فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موعظة أشد غضباً منه يومئذ ثم قال « إن منكم منفرين » . ورأى ذات يوم رجلاً يصلى فتراآه ساعة ثم قال : « أتراه يصلى صادقاً » ؟ قالوا : هذا أكثر أهل المدينة صلاة . قال « لا تسمعه فتهلكه » . وقال « إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بهم العسر » وقال عمن أصابهم الإعياء من الصيام فى السفر ولا يفطرون استعمالاً للرخصة : « أولئك العصاة . أولئك العصاة » وقال : « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

وكان عليه الصلاة والسلام رحمة مهداة يقول « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

وتوارث الفقه الإسلامى كله تعريف على بن أبى طالب للفقيه « ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه ؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم فى معاصى الله ولم يؤمنهم من مكر الله » .

* * *

والشريعة تجرى فى التكليف على الوسط الخير أو الأعدل آخذة من الطرفين

بقسط ليس فيه ميل فإذا كان التشريع من أجل انحراف الناس رد التشريع الناس إلى الوسط الأعدل .

ولقد أقر النبي الصحابة على التمتع بالحلال ولم يزهدهم فى الدنيا إلا أن يظهر حرص منهم على متاعها ، ببعدهم عن الوسط العادل الذى نزلت به الشريعة . وهو ينذر ويرهب لمقاومة الانحلال ويرغب ويرخص لمقاومة الحرج أو الشدة ؛ فإذا لم يكن انحلال أو شدة فخير الأمور الوسط .

أما المقصد الشامل للشريعة فهو المحافظة على ضروريات الحياة . وحاجياتها وما يحسنها . فالضروريات هى حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال لاتجرى مصالح الدنيا على استقامة إلا بها وتفوت النجاة فى الآخرة من دونها . . أما الحاجيات فهى كل ما يدفع الحرج والمشقة فهى تتمم الضروريات ، وتجعل العمل للمحافظة عليها ممكناً بغير حرج . وأما التحسينيات فتجمل المصالح الضرورية والحاجية بمحاسن العادات ومكارم الأخلاق . ومثلها فى العبادات ستر العورة . وفى المعاملات آداب الطعام والشراب . ولا كمال بغير الستر والأدب .

وقد يختل الضرورى ، بوجه ما ، إذا اختل الحاجى ولذلك ينبغى المحافظة على الحاجى . وإذا ثبت أن التحسينى يخدم الحاجى فينبغى المحافظة على التحسينى فكلا التحسينى والحاجى يخدم الضرورى . وإذا كان منها أمر قد يختل باختلال مكملاته كانت المحافظة عليها مطلوبة لأجله . . وهكذا ترابطت الوسائل الشرعية لتهيئة مرافق الحياة فى خدمة بنى الإنسان وتكاملت لديهم المناهج ليبلغوا بها مقاصد الشارع فى إسعادهم .

وحرص الفقه على المصلحة الأصلية فى شأن ما يكمل ويجمل أو يدفع الحرج فاشترط عدم التعارض الذى يترتب عليه إلغاء الأصل . مثل أن عدم تناول النجس إذا ترتب عليه إزهاق النفس يكون قد أبطل ضرورة حفظ النفس . ولذلك يلزم تعاطى النجس عندئذ .

ومثل كون الولاية على الجماعة ضرورة لحفظها وبقائها . فإذا لم توجد العدالة

فى الولاة لم نلغ الولاية . ونزين للرعية البقاء بلا وال ، فنقيم الفتنة . . . وثمة أمل دائم فى الصلاح بالمشورة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والاعتصام بحبل الله .

* * *

وللشرع أصول من الكليات المنصوصة فى الكتاب والسنة . مثل (ألا تزر وازرة وزر أخرى) ومثل: (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) ومثل: «لا ضرر ولا ضرار» ومثل : « من بات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » . ومثل : « إنما الأعمال بالنيات » .

والكتاب والسنة والإجماع والقياس تسمى أصولاً من باب أنها أدلة الشريعة على الأحكام .

وكليات الشريعة عموماً مبنية إما على أصول عقلية مستندة إلى النصوص وإما على استقراء أصل كلى من الأدلة . وقد لا يشهد للفرع أصل معين ولكن يشهد له أصل كلى .

وكل أصل شرعى لم يشهد له نص معين ، وكان ملائماً لتصرفات الشرع ومأخوذاً معناه من أدلة الشرع فهو صحيح يبنى عليه ويُرجع إليه ما دام مقطوعاً به . ويدخل تحت هذا الضرب من الاستدلال « المصالح المرسلة » والتشريع كله يبتغى مصالح البشر .

والأصول الكلية تنماز من الفروع بأن الفروع مستندة إلى آحاد الأدلة وإلى مآخذ معينة ، بخلاف الأصول ، فهى مأخوذة من مقتضيات الأدلة بإطلاق ولا تقتصر على آحاد الأدلة الخاصة .

فأصل رفع الحرج مثلاً نتيجة جزئيات كثيرة جداً فى النصوص القرآنية والسنة . ولذلك يحكم به فى الأبواب كلها كأنه نص عام لأن الجزئيات تتضمن المعنى العام فيفهم من تعددها وتنوعها أن حكمها ليس للخصوصيات المنصوص عليها وحدها . فإذا وجدت نازلة لا نص يحكمها أو تقاس عليه ألزمناها الحكم الذى يأمر به هذا المعنى العام .

وقد نبه الله سبحانه وتعالى عباده على الاجتهاد لاستنباط آياته وآلائه

لينظروا فى ملكوت السموات والأرض وفى اختلاف الليل والنهار ويعملوا عقولهم فى تحصيل حكمته وأحكامها . وحض على العلم ورفع أصحابه درجات . وجعل ما يستنبط من الكتاب عاماً . والمصير إليه فرضاً .

قال سبحانه : (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) .

ومن أجل الاجتهاد فرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة . روى أن ابن وهب كان جالساً إلى مالك فقام ابن وهب يصلى فقال له مالك . ما الذى قمت إليه بأوجب عليك مما قمت عنه . وربما أراد مالك أن الصلاة كان لها وقت باق . وتسجيل علم . يخشى فواته . آكد عليه وفى الوقت سعة . . .

* * *

خرج عمر[1] إلى الشام بالصحابة وبلغه فى الطريق وقوع الوباء بها . استشار المهاجرين فمنهم من قال : إن الوباء لا يغير من قدر الله . ومنهم من

---

(١) من المراجع الأولى فى القضاء والاستخلاص والاجتهاد ما روى من كتاب عمر إلى قاضيه أبى موسى الأشعرى (بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس. سلام عليك . أما بعد.القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة . فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس الناس فى مجلسك وفى وجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالا .

من ادعى حقاً غائباً أو بينة فاضرب له أمراً ينتهى إليه فإن بينه أعطيته . ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم — فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق . فإن الحق قديم لا يبطله شىء ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجربا عليه شهادة زور . أو مجلوداً فى حد . أو ظنيناً فى ولاء ، أو قرابة . فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان . ثم الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سنة . ثم قايس الأمور عند ذلك .

واعرف الأمثال .. ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله. وأشبهها بالحق . وإياك والغضب والقلق والعجز والتأذى بالناس،والفكر عند الخصومة . فإن القضاء فى مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر .

ومن تزين بما ليس فى نفسه شانه الله فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً . فما ظنك بثواب عند الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام عليك ورحمة الله » .

قال له لا تقدم ببقية أصحاب رسول الله على هذا الوباء . فدعا الأنصار فاختلفوا نفس الاختلاف . فدعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فلم يختلفوا عليه وأمروه بالرجوع — ولم يكن فيهم من ذكر له آية من الكتاب أو حديثاً للرسول — فقال عمر : « إنى مصبح على ظهر » أى راكب فى الصباح .

قال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟

قال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم فراراً من قدر الله إلى قدر الله . أرأيت لو كانت لك إبل فى واد له عدوتان — إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيتها الجدبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ؟

هكذا استشار عمر واعترض أبو عبيدة باجتهاده ورد عليه عمر بالرأى المبنى على القياس ولم يحتج أحد بالكتاب أو السنة أو إجماع الصحابة لأنهم مأمورون بأن يعتبروا ويفقهوا[1] .

ويمضى الصحابة على سنة الاجتهاد . فيرسل عمر إلى شريح يقول له إن لم يجد سنة عن الرسول ليقضى .. بما يتبين له من قضاء الأئمة المهديين والصالحين فإن لم يكن فهو بالخيار . ويقول : « إن شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك . وإن شئت أن تؤامرنى — ولا أرى مؤامرتك إياى إلا خيراً لك والسلام » .

ويضرب عمر الأمثال على التطور . ويستحدث للحوادث الأحكام . كان

---

(١) قال تعالى (فاعتبروا يا أولى الأبصار) والاعتبار منه القياس . بل إن من علماء اللغة من يرى الاعتبار هو القياس . روى عن ثعلب (٢٠٠–٢٩١) وهو من يعول عليه فى اللغة الأصيلة . والنقل عن العرب . وله كتابان فى غريب القرآن الكريم ومعانى القرآن روى عنه ، فى تفسير قوله تعالى (فاعتبروا يا أولى الأبصار) أن الاعتبار هو القياس .

وقال تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) ومؤدى ذلك أن علينا أن نقيس على ما فيه من نصوص أو كليات .

فالقياس أداة علم فى القرآن قال تعالى : (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) فهو يلومهم على إنكار النشأة الثانية مع أن لهم طريقاً إلى معرفتها وهو النشأة الأولى . ومثل ذلك قوله تعالى : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟) ولما أرسل النبى معاذ بن جبل للقضاء باليمن . قال له بم تحكم ؟ قال بكتاب الله . قال فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال فإن لم تجد؟ قال أجتهد رأيى قال عليه الصلاة والسلام : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسوله ».

الصناع على عهد النبوة أكثر الناس أمانة وحرصاً على إعادة الأشياء المسلمة إليهم سليمة . مقابل أجرهم على العمل . فإذا هلكت العين عندهم لم يكن عليهم ضمان فلما تغير الناس واتسع المجتمع ، رأى عمر أن يضمن الصناع . ليتسع نطاق الاستصناع .

ويصنع في الديات صنيعاً فيه كل دلائل التطور . فرضتها السنة في الإبل لنفاستها أو ما تساويه من المال فجعلتها ثمانمائة دينار أو ثمانية آلاف درهم . وجعلتها على عاقلة المتهم تسهيلاً عليه وتيسيراً للمستحقين فلما استخلف عمر خطب الناس قائلاً إن الإبل غلت . ثم نظر فوجد أن حصرها في الإبل فيه تضييق . فجعلها على أهل الذهب ألفي دينار وعلى أهل البقر مائتي بقرة . وعلى أهل الشاة ألفي شاة . وعلى أهل الحلل مائتي حلة . وكتب الناس فجعلهم كأهل قبيلة واحدة . وأحل أهل الديوان محل العاقلة « من أهل القاتل » في الالتزام بالدية ... أي أصبحت خزانة الدولة مسئولة عن توفير التعويض لمستحقيه . . وهذا طراز من تقرير المسئولية تحاول لتبلغه جاهدة أعظم النظريات الفقهية والاجتماعية تقدماً في القرن العشرين .

أما في الحدود فيعتبر من يسرق مال الدولة يسرق نفسه لأن له حقاً في بيت المال ولا يقطع يد السارق فثمة شبهة . والرسول يقول ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم . ويدرأ عمر الحدود بالشبهات في الرجم . وفي قطع اليد عام المجاعة . ويقيس على عدم قطع اليد حداً آخر هو الجلد . والرسول يقول : « لا تقطع الأيدى في السفر » وعمر يكتب إلى واليه : «ألا لا يجلدن أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع على الدرب لئلا يحمله الشيطان أن يلحق بالكفار » ، ولم ينفذ حد السرقة في عام المجاعة ، وترك التغريب في الزنا بعد أن لحق أحد المغربين بالروم وتنصر .

ويجتهد — بمجلس الشورى — في حد آخر . يوم جاءه رسول خالد بن الوليد أبو وبرة الكلبي . وهو القائل بعد : « أرسلني خالد بن الوليد إلى عمر رضي الله عنه . فأتيته ومعه عثمان وعبد الرحمن بن عوف وعلي وطلحة والزبير رضي الله عنهم . وهم معتكفون في المسجد . فقلت إن خالد بن الوليد يقرئك السلام . ويقول إن

الناس قد انهمكوا فى الخمر . وتحاقروا الحد والعقوبة فيه . فقال عمر : هؤلاء هم عندك فاسألهم . فقال على : إذا سكر هذى . وإذا هذى افترى . وعلى المفترى ثمانون . فقال عمر : بلغ صاحبك ما قالوا » . وفى رواية سلفت وافق علياً عبد الرحمن بن عوف .

وكان التطوير وفقاً للمصلحة . سن عطاء لكل طفل بعد الفطام ، ففطم الناس الأطفال قبل الأوان ليبلغوا العطاء ، فغير التشريع فجعل العطاء للكل حتى للرضيع .

روى عبد الله بن عمر أن ركباً من التجار كانوا فى اتجاههم إلى المدينة فدخل عليهم المساء . فحطوا رحالهم خارجها . وعلم بذلك عمر فقال لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن تسهر عليهم لتحرسهم . وترعاهم ؟ . فباتا يحرسان الناس ويصليان وسمع عمر بكاء طفل فتوجه نحو أمه وقال لها ؛ اتق الله وأحسنى إلى طفلك . ثم عاد مكانه فعاد الطفل إلى بكائه فعاد عمر ينبهها وعاد إلى مكانه . فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فقال لها ويحك : إنى لأراك أم سوء . مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة !! .

قالت وهى لا تعرف من تحدث : يا عبد الله قد أبرمتنى طول الليل . إنى أعالجه على الفطام فيأبى إلا رضاعاً .

قال : لم ؟

قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم .

قال : وكم لابنك من العمر ؟ .

قالت كذا شهراً .

قال : ويحك لا تعجليه .

فلما انتهى عمر من صلاته قال يا بؤساً لعمر ! كم قتل من أولاد المسلمين . ثم أمر منادياً فنادى لا تعجلوا صبيانكم على الفطام فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام . وكتب بذلك فى الآفاق .

عمل عمر عظائم الأعمال دون بحث عن نصوص تشهد لها إلا كليات الشريعة

فى المصلحة . استخلف النفر الذين مات رسول الله وهو عنهم راض . ومنع كبار الصحابة مغادرة المدينة إلى حيث يملكون الضياع الواسعة . واتخذ الحبس . ونظم الجيش وجعل له أرزاقاً فى بيت المال ، وربط أرزاق الولاة والقضاة ، وضرب الدراهم . ووضع التاريخ الهجرى ، وفصل القضاء عن الولاية العامة .

وجعل الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ثلاثاً بعد أن كان واحدة فى عهد النبى وعهد أبى بكر وصدراً من إمارة عمر ، ونهى عن زواج الكتابيات وشاطر الولاة أموالهم . ولم ينس أبناءه :

قال عبد الله بن عمر . اشتريت إبلاً وارتجعتها إلى الحمى فلما سمنت قدمت بها فدخل عمر السوق وكان يراقبها بنفسه . وكان خبيراً فى الإبل . رعاها فى شبابه لأبيه . فرأى إبلاً سماناً فقال : لمن هذه ؟ قيل لعبد الله بن عمر . فجعل يقول : يا عبد الله بخ . بخ . ابن أمير المؤمنين ! فجئته أسعى فقلت مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ما هذه الإبل ؟ . فقلت إبل أنضاء « هزيلة » اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغى ما يبتغى المسلمون . فقال : ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين! اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين ! ! يا عبد الله — أغد على رأس مالك . واجعل باقيه فى بيت مال المسلمين .

وكل أولئك أمثلة على اجتهاد عمر فى اتباعه بنصوص أو فى هدى نصوص لتحقيق المصلحة — وهو القائل لركن الكعبة عندما استلمه : « أما والله إنى أعلم أنك لا تضر ولا تنفع . ولكنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استلمك . وأنا أستلمك » .

* * *

آل منهج عمر إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود . فصار منهجاً للفقهاء فى أقطارهم الثلاثة : مكة والمدينة والكوفة .

أما عبد الله بن عباس ابن عم النبى فكان فى فتاء السن . وكان عمر يحبه ويسامره . ويطلب إليه آراءه . ولما طُعن عمر قال له : أتشهد لى يا ابن عباس ؟ .

وابن عباس أستاذ مدرسة مكة التى انتهى علمها إلى محمد بن إدريس الشافعى .

وأما عبد الله بن عمر . فأستاذ مدرسة المدينة التى انتهى علمها إلى مالك ابن أنس .

وأماعبد الله بن مسعود فأستاذ فى مدرسة المدينة . وأستاذ أول لمدرسة الكوفة . وكان إبراهيم النخعى . أستاذ حماد شيخ أبى حنيفة . لا يعدل بقول عمر وابن مسعود إذا اجتمعا فإن اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه كان ألطف .

وكان أحب الناس إلى ابن مسعود عمر [1] وكان يجتهد رأيه . فعلم الكوفة أن تجتهد، كما تعلمت مدرسة المدينة على عمر أن تجتهد . فصار سعيد بن المسيب ، راوية عمر ، يلقب بالجرىء ؛ وربيعة بن أبى عبد الرحمن يلقب بربيعة الرأى ؛ ومالك بن أنس واحداً من أئمة الرأى والاجتهاد .

ولم يكن من ذلك بد . فالنصوص متناهية لكنها قواعد تحكم ما لا يتناهى من الوقائع . والقرآن جامع لأن المجموع فيه أموركليات . والنصوص لا تفصل إلا علاقات العبد بربه من عقائد وعبادات، وما يلحق بها من أحوال شخصية ومواريث . فلا مجال فى التعبد إلا للطاعة . والمصالح التى تتضمنها المواريث والأحوال الشخصية لا تتغير مع الزمن .

أما علاقات الناس فى أموالهم ، وسياسة دولتهم وأمانهم فى سربهم ودربهم ، مما تنظمه القواعد المدنية والجنائية والدستورية والدولية وما إليها ، فقد اقتصرت النصوص فيها على قواعد عامة لها . يهتدى الناس بهداها ، حسب الحضارات والمجتمعات .

* * *

وتنوعت دلالة النصوص من نصوص قطعية قليلة العدد ، كآيات المواريث والزكاة والحدود إلى ظنية تحتمل أكثر من معنى وهى جميعاً توجب إعمال

---

(١) يقول عبد الله بن عتبة أبو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة « أحد الفقهاء السبعة بالمدينة » : لما مات أبى — عتبة بن مسعود الهذلى — بكى ابن مسعود وقال : أخى وصاحبى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحب الناس إلىّ إلا ما كان من عمر .

والزهرى أستاذ مالك يقول : « ما ابن مسعود عندنا بأعلى من أخيه عتبة ». ولولده عبد الله إدراك وصحبة ورواية حديث .

الفكر فى العبادات والمعاملات على أساس أن النص لازم لتحريم أمر ، وفيما عداه تكون التصرفات مباحة فى حدود مقاصد الشريعة لحماية المصالح الشرعية . فالمحرمات معدودات . قال عليه السلام : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحدّ حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها » . وبهذا صار الأصل حرية وسعة فى ابتغاء المصلحة .

ومن أجل الرحمة ورفع الحرج شرع الاستثناء والرُّخَص عند الضرورة . ذلك قوله تعالى : (إلا ما اضطررتم إليه) . وهذا كلى من كليات الشريعة فهو مبدأ عام ترك التفصيل فيه للناس حسب أوقاتهم وحالاتهم . وعلى هذا الأصل جرت استثناءات الضرورة .

والغزالى وابن تيمية وابن قدامة يقولون : إذا وجد معنى يجمع بين هذا المستثنى وغيره جاز قياس غيره عليه سواء أكان الاستثناء بنص أو قياس . وهذا توسيع جديد فى التوسعة ومتابعة للرحمة والمصلحة .

وإذْ عللت النصوص الكثير من الأحكام فقد أرشدتنا إلى أن تغيير المصلحة بحيث يصبح النص غير محقق لمقصود الشارع من الحكم يجعله غير جائز التطبيق وأنه إذا ترتب على المباح نقيض ما أراده الشارع تزول إباحته حتى لا تحدث مفسدة تفوق المصلحة المرتجاة وأن المصالح عموماً قاعدة الاجتهاد سواء أكانت منصوصة أو كانت مرسلة .

ويقول إمام الحرمين « الجوينى » الشافعى : إن من تتبع أعمال الصحابة الذين هم القدوة فى كل شىء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير لواحد منهم فى مجالس الاستشوار تمهيد أصل واستثارة معنى ثم بناء الواقعة عليه . ولكن يخوضون فى وجوه الرأى من غير التفات إلى الأصول كانت أو لم تكن . .

وذلك ما يؤكده القرافى المالكى حيث يقول : « ومما يؤكد العمل بالمصلحة المرسلة أن الصحابة عملوا أموراً لمطلق المصلحة لا لتقدم شاهد بالاعتبار نحو كتابة المصحف . وولاية العهد من أبى بكر لعمر . وترك الخلافة شورى بين سنته .

وتدوين الدواوين . وعمل السكة للمسلمين واتخاذ السجن . وغير ذلك مما عمله الصحابة لمطلق المصلحة » .

وظاهر أن أهل الحجاز وبخاصة فى المدينة أخذوا إخذ عمر . يستحدثون فى الفقه أموراً لا تذكرها نصوص الشرع ولا تنكرها . ويعقلها المسلمون بفهمهم لأصل الإباحة التى شرعت لهم ، ما دام فيها مصلحة حقيقية وعامة وملائمة أو مناسبة لمقاصد الإسلام لا غريبة عنها ، ولا وهمية ولا خاصة بصاحبها بل تحقق نفعاً لأكبر عدد ، ولا خارجة عن إطار الحنيفية السمحة وسجاياها .

ومن أمثال ذلك ما رواه الزهرى فى أواخر عهد التابعين بالمدينة من أنه لم يكن يتهم سلف المسلمين الصالح فى شهادة الوالد لولده ولا الولد لوالده ولا الأخ لأخيه ولا الزوج لامرأته – ثم ظهرت أمور حملت الولاة على الاتهام فتركت شهادة من يُتّهم إذا كانت من قرابة ، وصار ذلك من الولد والوالد والأخ والزوج والمرأة – لم يتهم إلا هؤلاء فى آخر الزمان . وأمسى سعيد بن المسيب ويحيى ابن سعيد الأنصارى وربيعة بن أبى عبد الرحمن يفتون بجواز التسعير بعد أن رفضه النبى وقال : « بل الله يرفع ويخفض وإنى لأرجو أن ألقى الله عز وجل وليس لأحد عندى مظلمة » وإنما صار أهل المدينة إلى ذلك آخذين بالمصلحة كما تعلموا على الصحابة . وربيعة وسعيد ويحيى والزهرى أساتذة مالك وفى مدرسة مالك ازدهرت نظرية المصلحة المرسلة : نظرية جلب مصلحة أو درء مفسدة إذا سكتت النصوص .

وتعاصر عمل المسلمين بالمصلحة حيث لا نص ، وعملهم بالقياس حيث يوجد نص صالح للقياس بمعناه الفنى « إلحاق ما لا نص فيه بما فيه نص فى الحكم المنصوص عليه لاتحاد العلة بينهما » . من أجل أن الأمرين معاً فرعان متوازيان للاستدلال [1] .

---

(١) والقياس يكون على أصل ثابت بالقرآن أو بالسنة أو الإجماع كقياس العقود كلها على البيع المنصوص على تحريمه يوم الجمعة ، إذا نودى للصلاة (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) .

وقياس الموصى له على الوارث فى قول الرسول : « القاتل لا يرث » .

ولقد يشترط البعض أن تدخل المصلحة فى القياس حتى تنضبط انضباط القياس . لكن المالكية =

وتبارى الفقهاء فى استنباط الأحكام للمعانى الدقيقة وأفتوا بالمصلحة آخذين بالحكمة التى شرعت لها الأحكام .

والشافعى يقول : « كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة . وعليه إذا كان فيه بعينه حكم اتباعه ، وإذا لم يكن فيه بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد . والاجتهاد القياس »، وتلميذه إمام الحرمين يقول : « ذهب الشافعى ومعظم أصحاب أبى حنيفة إلى اعتقاد الاستدلال وإن لم يستند إلى حكم متفق عليه فى أصل ولكنه لا يستجيز البعد والنأى والإفراط ، وإنما يسوغ تعليق الأحكام بمصالح شبيهة بالمصالح المعتبرة وفاقاً . وبالمصالح المستندة إلى أحكام ثابتة الأصول قارة فى الشريعة . . والمذهب . . المعروف من مذهب الشافعى التمسك بالمعنى وإن لم يستند إلى أصل على شرط قربه من معانى الأصول الثابتة » .

* * *

وأصل المصلحة يستمد من فحوى نصوص جزئيات كثيرة يتجلى بها مقصود الشارع وهو الذى استعمله الصحابة فى كثير من فتاواهم مثل ما أسلفنا من أعمال عمر ، ومشاطرة الولاة أموالهم ، وإراقة اللبن المغشوش . وقتل الجماعة بالواحد وتوحيد المصحف .

وقد جعل مالك المصلحة أصلا قائماً بذاته لأن الشريعة كاملة تتضمن مصالح البشر سواء بالنصوص الصريحة فى الأحكام أو بعمومات المبادئ فى النصوص العامة والأصول العامة .

وهو الذى استعمله مالك : « إذ أجاز أن يوظف على الأغنياء نفقات للمصلحة العامة» وأفتى بالجهاد مع أئمة الجور . قال : « لو ترك ذلك لكان ضرراً

= يبنونها على مجرد المصلحة دون أن يتكلفوا لها البحث عن أصل معين . يقيسون عليه . واشتهر ذلك عنهم وعن الحنابلة . فقيل إنها بذلك صارت دليلا مستقلا . وابن العربى يرى أن « العموم إذا استمر والقياس إذا اطرد . فإن مالكا وأبا حنيفة يخصصان العموم بأى دليل كان . من ظاهر أو معنى ويستحسن مالك أن يخص بالمصلحة » .

على المسلمين ». وأجاز تعاطى ما يسد الحاجة لمن وجد فى أرض لا يستطيع تغيير ما فيها من الحرام. ولا يستطيع الانتقال منها مثلما يأكل المضطر الميتة والدم ولحم الخنزير. ورفض ما طلبه المهدى من هدم الكعبة وإعادة بنائها على ما بناها إبراهيم مخافة أن يتخذها الخلفاء فيما بعد سنة لهم.

فمالك يستدل على الحكم بالنص مثل (لا تقتلوا النفس) أو بمعقول نص بعينه مثل تحريم النبيذ من معنى تحريم الخمر. أو بمعقول مجموعة نصوص. وفى الحالة الأخيرة لا يفيد نص واحد المعنى المطلوب. وإنما تجتمع نصوص كثيرة فتنتج المعنى فيكون أصلاً كلياً قطعياً هو من مقاصد الشارع. فيطبق مباشرة على جزئيات لم يرد فيها بعينها. فهو مقصود الشارع قد تضافرت فى إنتاجه النصوص. وهو بهذا يعادل الأصل المنصوص عليه فى الكتاب والسنة تماماً لأنه فحوى نصوصهما.

والأصل الشرعى كالنص الشرعى – ويقول الشاطبى: « العموم إذا ثبت فلا يلزم أن يثبت من جهة صيغ العموم فقط. بل له طريقان أحدهما الصيغ إذا وردت وهو المشهور فى كلام أهل الأصول والثانى استقراء مواقع المعنى حتى يحصل فى الذهن أمر كلى عام فيجرى فى الحكم مجرى العموم المستفاد من الصيغ. ومثال ذلك قاعدة رفع الحرج فى الدين نستفيده من نوازل متعددة. خاصة مختلفة الجهات متفقة فى أصل رفع الحرج ».

فهذا الاستدلال لا يرجع لنص خاص. بل يعتمد على معنى معقول هو أصل عام ملائم لتصرفات الشارع. فيطبق الأصل العام كأنه لفظ عام تندرج تحته الواقعة.

والمصلحة المرسلة التى لم يرد فيها أو فى تحريمها نص – كثيرة. ولما قال مالك: الاستحسان تسعة أعشار العلم، فلعله كان يقصد الاستحسان المترتب على كليات الشريعة.

* * *

والشاطبي يزيد توضيح المعنى . إذ يقول عن الأدلة المستعملة فى أصول الفقه إنما هى الأدلة الاستقرائية المحصلة بمجموعها القطع بالحكم وأنه « إذا ذكر العموم فى أصول الفقه فالمراد به العموم المعنوى ، كانت له صيغة أم لا . . » .

فليس التعويل على نص بذاته هو الأساس ، لا غيره ، لاستنباط الأحكام فالنصوص قليلة وبقلتها تضيق دائرة القياس ، على القياسين. ومن الناحية الأخرى فتحميل نص معين مسئوليات إنتاج أحكام ، قريبة أو مقربة إليه ، إغراق خطر . وأقرب منه إلى صميم الفقه التعويل على الأصول العامة المؤكدة. وربما عنى مالك ذلك أو نحوه عندما قال : « إن المغرق فى القياس يكاد يفارق السنة » .

ولقد جمع فأوعى تفاريق الكلام فى الاستدلال المرسل قول الشاطبي من مذهب مالك « كل أصل شرعى لم يشهد له نص معين ، وكان ملائماً لتصرفات الشرع ومأخوذاً معناه من أدلته فهو صحيح يبنى عليه ويرجع إليه . إذا كان ذلك الأصل قد صار بمجموع أدلته مقطوعاً به . لأن الأدلة لا يلزم أن تدل على القطع بالحكم بانفرادها دون انضمام غيرها إليها . . . ويدخل تحت هذا ضرب الاستدلال المرسل الذى اعتمده مالك والشافعى . فإنه وإن لم يشهد للفرع أصل معين فقد شهد له أصل كلى . والأصل الكلى إذا كان قطعياً قد يساوى الأصل المعين. وقد يربى عليه بحسب قوة الأصل المعين وضعفه . وكذلك أصل الاستحسان على رأى مالك لأن معناه تقديم الاستدلال المرسل على القياس » .

ولا تعارض المصلحة نصاً قطعياً لأنه حكم الشرع . قد أفصح عنه ولوجود النص ضعف الفقهاء فتوى يحيى بن يحيى حين أفتى الملك المفطر بوقاع جاريته أن يصوم شهرين متتابعين ، فالنص صريح بعتق رقبة أو بصيام شهرين متتابعين. والنص يحمل على أن له أن يختار . وقد بدأ بالعتق .

* * *

ودفع الحرج وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ودفع أشد الضررين والمحافظة على النفس . أمثال أربعة — على قوة الأصل الكلى المستنبط من مجموع

النصوص . إذا استعمل فى مقابله نص آخر . فالأصل الكلى فى الواقع يمثل نصوصاً شتى تضافرت فى إنتاجه .

فأصل رفع الحرج مثلاً مستنبط من نصوص عدة كالتيمم لمشقة الحصول على الماء وقصر الصلاة فى السفر ، والفطر فى السفر ، وجمع الصلاة فى المرض والسفر والمطر . وإباحة الميتة وغيرها من خوف التلف . والصلاة إلى أى جهة عند تعسر معرفة القبلة وغير ذلك من جزئيات كثيرة .

وأصل تغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة مستنبط من مجموعة أحكام تتغيامصلحة الجماعة .منها تحريم الاحتكار وتحريم تلقى الركبان الوافدين بالسلع خارج السوق ، حفظاً لمصلحة أهل السوق . حتى لا يكسب المتلقى وحده وتضار الجماعة فيما تحتاجه . وتتريس أبى طلحة [1] على الرسول حفظاً لحياته فشلت يده ونجا الرسول عليه السلام ، ومنع المسلمين أبا بكر من التحرف والتجارة تقديماً لمصلحة المسلمين عامة على مصلحته خاصة ليعمل لهم لا لكسب قوته وهو خليفة ، والحجر على السفيه تقديماً للمصلحة العامة بحفظ مال الجماعة على حرية التصرف فى المال .

وأصل دفع أشد الضررين مأخوذ من جزئيات متعددة منها شرع الجهاد وفيه إتلاف للنفس لكنه ضرر خاص يتحمل لدفع ضرر عام . ومنها قتل ما نعى الزكاة ولكنه أخف من الفتنة . ومنها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإن تعرض فيه الفاعل للهلاك لكنه أخف من الضرر الكبير .

وأصل المحافظة على النفس عموماً مأخوذ من جملة نصوص بطريق الاستقراء منها نهى الشارع عن قتل النفس . ومنها جعل القتل موجباً للقصاص . ومنها إقامة الأجناد لقتال من تحدثه نفسه بقتل الآخرين. ومنها إباحة المحرّم عند الاضطرار مثل أكل الميتة .

---

(١) كان أبو طلحة « زيد بن سهل بن الأسود » بين يدى الرسول والرسول يرفع رأسه من خلفه ينظر إلى مواقع نبله وهو يرمى وكان من أمهر رماة الإسلام فيتطاول أبو طلحة بصدره يقى الرسول ويقول ! يا رسول الله نحرى دون نحرك . رواه الإمام أحمد . مات أبو طلحة سنة ٣٤ عن سبعين عاماً وهو ممن شهدوا بيعة العقبة .

وهذه أمثال لكثير غيرها توضح لنا كيف يستنبط الأصل القطعى من اجتماع كثير من الأحكام وإن لم ينتجه شاملا قاطعاً حكم واحد لكن بمجموعها ينتج معناه قاطعاً شاملا . وهذه الأمثال توضح كذلك اتساع أصل الاستدلال المرسل فيتبدى به الشرع الإسلامى شرع الكمال لشموله وسموه. ولاقتداره على أن يسع أى تطور للناس فى عصورهم المختلفة مع التيسير عليهم ما داموا فى إطار الحنيفية السمحة . وحدوده بعيدة تسع كل أبعاد جديدة . تتفق مع مقاصد الإسلام . ومن ثمة وسع الإطار كل تطور إلى خير الناس فى دنياهم . والشريعة نزلت للدنيا كلها لا لجيل ولا لقبيل .

* * *

وإنك لترى — بادىَ الرأى — أن استنباط الكليات من مجاميع الأدلة وتحصيل المقاصد من الجزئيات . عمل فكرى فى منطقة عالية كل العلو فى أفقها الدينى واللغوى والعلمى ، الذى يستلزمه استخراج الفحوى من خصائص الآى والسنن .. وهو من أقصد السبل إلى صميم الدين . أو خلاصة الفقه فى الدين . ولا يقدر على استعماله إلا كبار الفاقهين والمؤصلين ممن سبروا أغوار الشريعة . وإنه لأفعل فى النفوس أن تستخدم مجاميع النصوص ويُستعمل المستقر المقطوع به من فحواها . فهذا هو لباب الفقه . وملاك الأمر فى شرع المصالح . تجارى فيه الأئمة الكبراء والصحابة الذين حملوا مسئولية التقدم الإسلامى وتطور الفقه وتابعهم أعلام التابعين وتابعوهم الذين يتصدرهم مالك كما يتصدر اللاحقين .

وإنما شق مالك الطريق فى هذه المنطقة العليا من فكر البشر بالاتباع الكامل للأمر الأول الذى نبت فى تربته وأرسيت على أساسه قواعده . فهو يعمل بالنصوص المسعفة وبروح المدينة الميسرة معاً ، ولا يقبل الدليل العقلى مجرداً من الدليل النقلى . فنى الشرع كفاية للبشر .

ولو أطلق العنان للعقل يفكر وحيداً أو بعيداً لكان هذا هو التشهى بعينه

أو التلذذ كما عبر الشافعى فيما بعد عن ضروب الاستحسان التى لا تنهض بها الأدلة الشرعية .

ذلك وأدلة الشريعة مصداق خصائصها من العالمية والأبدية والسمو والشمول . فهى عالمية لكل العالم فى كل مصر . وهى أبدية منزّلة لكل عصر . وهى سامية عن المستوى الذى يخلد فيه الناس إلى الحياة الصغيرة . ترفعهم دائماً إلى مثل عال . وتشدهم إلى الخير من النواميس والأفعال . وهى شاملة لأحكام فى كل ما ينزل بهم . وعلى المجتهد طلب الأحكام منها لا بمجرد العقل أو المنطق وإنما بهما وبالنصوص الشرعية .

وكما يقول الشاطبى : « إذا تعاضد العقل والنقل على المسائل الشرعية فعلى شرط أن يتقدم النقل فيكون متبوعاً ويتأخر العقل فيكون تابعاً . فلا يسرح العقل فى مجال النظر إلا بمقدار ما يسرحه النقل » .

ومع أن استعمال أصل المصالح يفتح الأبواب واسعة لبلوغ أغراض الشريعة لتحقيق مصالح الناس . فالعلماء يقاربونه حذرين لأسباب : منها أنه لا يقدر عليه إلا كبار المستنبطين كما سلف القول . ومنها أن هذا العلم دين كما يقول مالك . والورع يقتضى الفقيه أن يتوقف عند حدود اليقين . ومنها كما يقول القرافى : « وإنما فر علماء الأمة من تقرير هذا الأصل تقريراً صريحاً مع اعتبار كلهم له . خوفاً من اتخاذ أئمة الجور إياه حجة لاتباع أهوائهم . وإرضاء استبدادهم فى أموال الناس ودمائهم . فرأوا أن يتقوا ذلك بإرجاع جميع الأحكام إلى النصوص . ولو بضروب من الأقيسة الخفية . فجعلوا مسألة المصالح المرسلة من أدق مسالك العلة فى القياس . ولم ينيطوها باجتهاد الحكام والأمراء . وهذا الخوف فى محله . ولكن لم يق الأمة من أهواء الحكام كما ينبغى . إذ كان يوجد فى عهد كل الحكام من علماء السوء من يمهد له ولو لبعض ما يريد من اتباع الهوى » .

* * *

وليست المصلحة أموراً ضرورية أو ما يجزئ مجزاها فحسب بل ثمة مصلحة

فيما يرفع الحرج والمشقة أويمتع الناس بالحياة وطيباتها وبمعانيها الجميلة وبمكارم الأخلاق . فما يحتاجه الناس من حاجي وتحسيني، كثيراً ما يكون مكملا للضروري لهم. وبهذا فتح فقه المصالح أنعم الله واسعة لعباده لا يقيدها إلا مقاصد الشريعة .

ولا يشترط إلا أن تدخل المصلحة تحت جنس اعتبره الشارع صريحاً أو مأخوذاً بالاستقراء المفيد للقطع من نصوص الشريعة . فتخرج كل مصلحة غريبة عن مقاصد الشريعة . وتدخل كل مصلحة ملائمة مناسبة لمقصد من مقاصدها ، لا يناقضها نص .

يقول الشافعي : كل حكم لله ولرسوله وجدت عليه دلالة فيه أو فى غيره . . بأنه حكم فيه لمعنى من المعانى فنزلت نازلة ليس فيها نص حكم ، حكم فيها حكم النازلة المحكوم فيها . إذا كانت فى معناها .

والشاطبي يقول: « إن للأصوليين قاعدة . . . هى أن المعنى المناسب إذا كان سابقاً للفهم عند ذكر النص صح تحكيم هذا المعنى فى التخصيص له والزيادة عليه ومثلوا لذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: « لا يقضى القاضى وهو غضبان » فنعوا لأجل التشويش القضاء مع جميع المشوشات . وأجازوه مع ما لا يشوش من الغضب .

فإذا لم يوجد جنس معتبر للمصلحة . فهذه ليست مصلحة شرعية بل هى مصلحة غريبة أو هى بدع فى الشرع مجمع على طرحها إذ الشرع كامل .

خرجت مدرسة مالك على هذه الأصول العامة أعظم التخريجات :

فى فقه « أصل المحافظة على النفس» أبيح قتل الجماعة بالواحد إذا تمالئوا عليه وأجيز للناس أن يتناولوا مقدار حاجاتهم من المحرم إذا طبق الحرام أرضاً هم فيها . دون ترفه أو تنعم . وفى إجازتهم مقدار الحاجة لا يقتصرون على الضرورى وإلا هلك المسلمون أو هزلوا فى حين يصح غير المسلمين .

وفى فقه « أصل دفع أشد الضررين » أباح مالك توظيف الخراج على الناس إذا خلا بيت المال مما يفى بحاجة الجند . وأجاز انعقاد الإمامة الكبرى لمن قصر عن رتبة الاجتهاد . فأصل الإمامة مصلحة ضرورية واشتراط الاجتهاد مكمل .

وإذا تعارضت الضرورات مع التكميليات كانت الأولى أولى . كما أجاز بيعة المفضول مع وجود من هو أفضل منه خوف الفتنة .

وفى « أصل تقديم المصلحة العامة على الخاصة » ضمن مالك الصناعَ الأشياءَ التى تسلم إليهم ليصنعوها إلا أن يثبتوا أن الهلاك من فعل غيرهم بعد إذ كانوا لا يضمنون ، لأن يد الصانع يد أمين . فلما غلبت الخيانة وضعف سلطان الدين قضى الصحابة بتضمينهم وقال على بن أبى طالب : « لا يصلح الناس إلا ذاك » وإذا كان بعض الصناع لا يخونون ، فإنما هى قلة تتقدم عليها مصلحة الجماعة من أرباب السلع .

يقول مالك : « هو ضامن حتى يعلم أن النار من غير سببه . أو سيل يأتى. أو ينهدم البيت » . فالقرينة فى صالح رب السلعة . حتى يثبت الصانع العكس .

وعلى أصل تقديم المصلحة العامة أفتى مالك بجواز سجن المتهم لتبلغ العدالة غرضها . .

يذهب بعض الفقهاء المالكية إلى جواز سجن المتهم وضربه ليقر . أما مالك فلم يثبت عنه أنه قال بالضرب . بل بالمشهور فى مذهب مالك أن الإقرار بعد الضرب لا يؤخذ به . ولم يخالف ذلك إلا سحنون . قال : إن أقر فى حبس سلطان يعدل لزمه إقراره . وكيف ينبغى إذا حبس أهل الظنة ومن يستوجب الحبس وأقر فى حبسه أنه لا يلزمه ؟ قال : وإنما يعرف هذا من ابتلى بالقضاء .

وسحنون كان قاضياً يأمر بضرب الخصوم فى مجالسه إذا أخطأوا فى حق بعضهم بكلام .

والسلطان العادل لا يحبس بمجرد التهمة أو الظنة ولكن بعد دلائل .

وعلى الأساس ذاته أفتى مالك بجواز التسعير على الناس بعد أن رفضه النبى حينما غلا السعر فى المدينة فقال الناس : يا رسول الله سعر لنا : فقال : إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق . إنى لأرجو أن ألقى الله وليس أحد فيكم يطلبنى بمظلمة فى دم ولا مال .

ولما ظلم التجار الناس رأى مالك أن مناط الامتناع عن التسعير كان ظلم

المسعر للتجار . فحكم الامتناع عن التسعير لم يعد يجد مجالاً لتطبيقه . وهو باق على حاله لم يتغير . وإنما أمامنا واقعة أخرى . محتاجة لحكم من نوعها يعالج ظلم التجار للناس .

وعلى الأساس ذاته أجاز مالك الأكل من الغنائم قبل قسمها .

قال : « لا أرى بأساً أن يأكل المسلمون إذا دخلوا أرض العدو من طعامهم ما وجدوا من ذلك كله قبل أن تقع المقاسم . وفى الصحيح عن ابن عمر كنا نصيب فى مغازينا العسل والعنب . فنأكله ولا نرفضه » ، فذهب الجمهور إلى جواز أكل الأقوات إذ الطعام يعز فى دار الحرب فأبيح للضرورة وإن لم تكن ناجزة قال مالك : « وإنما أرى الإبل والبقر والغنم بمنزلة الطعام يأكل منه المسلمون إذا دخلوا أرض العدو كما يأكلون الطعام بجامع أن كلا مأكول فيجوز ذبحه للأكل بشرط الحاجة » .

وعلى الأساس ذاته جاء جواز تلقى الركبان . فلقد جاء النهى عن تلقى الركبان خارج السوق ليهبطوا السوق بسلعهم . واختلف فى المناط : هل ليعرفوا سعرها أو يسدوا حاجتها . أو يوفروا الضرورى من السلع ؟ واختلفوا فى الحكم قدر ما اختلفوا فى المناط فأباح البعض التلقى لو علم الراكب سعر المثل وباع به . وأباح البعض تلقى ما لا يرغب فيه العامة من الناس فى السوق ؛ وأباح البعض الشراء خارج السوق إذا كثرت السلع . كل حسب مناطه .

ومن أجل المصلحة العامة بحفظ أموال المسلمين . أجاز مالك الحجر على السفيه .

أما المدين فتصرفاته بعد الدين . دون حاجة لقضاء القاضى . موقوفة غير نافذة ما دامت تضر دائنيه . لهم إبطالها أو إجازتها .

وعلى قاعدة المصلحة العامة الغالبة أفتى مالك بعدم قبول توبة الزنديق المستتر للكفر إلا إذا أقبل يعلن التوبة قبل الاطلاع عليه . فتقبل منه التوبة عندئذ .

قال عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم » .

والشافعى يقبل التوبة من الزنديق ولكن مالكاً لا يقبلها . ولأبى حنيفة قولان فى المسألة هما هذان الرأيان .

ومذهب مالك يقوم على الآية (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) وهى تخصص إطلاق من يعلن الإسلام فينجو بأن يكون ذلك قبل أن يرى البأس . وليس مجرد إعلان الشهادة فى مقام التماس النجاة توبة — أو كما يقول الغزالى: « والمعنى بتوبته تركه الدين الباطل . والزنديق بالنطق بكلمة التوبة ليس تاركاً لدينه الباطل بل هو حكم من أحكام دينه . . . وموجب دين الزنديق عند شهادته أنه يستعمل دينه » . فالحديث يحمل على الكفار الذين يعتقدون أن الشهادة ترك لدينهم بخلاف الزنادقة فمن قواعد دينهم الإيهام بالشهادة ذاتها . ويقول الغزالى : « فهذا لو قضيت به فى أصله استعمال مصلحة فى تخصيص عموم . . وهذا لا ينكره أحد » .

وعلى أصل حفظ الدماء أفتى مالك بقبول شهادة الصبيان فيما بينهم من الجرح بالمصلحة الملائمة لجنس تصرفات الشارع فهى داخلة تحت أصل حفظ الدماء وقد اعتبره الشارع بجملة نصوص ومجموع أدلة . تفيد القطع . وهذه المصلحة من الضروريات لحفظ البقاء وصون الدماء بين الصبيان الذين لا يشهد لعبهم سواهم فلا يمكن أن يؤدى شهادة العيان غيرهم .

سد الذرائع :

حكم مالك قاعدة سد الذرائع فى أكثر أبواب الفقه . لأن الذريعة فى حقيقتها توسل بما هو « مصلحة » إلى مفسدة . وهذه القاعدة فى جملتها منع أمر مباح لما يترتب على فعله من مفسدة . أى جعل الوسيلة التى تؤدى إلى ممنوع ممنوعة . ولذلك يسمى سداً للذريعة . مثل قوله تعالى: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) . ومثل منع النبى المتصدق عن شراء صدقته ونهيه عن قطع يد السارق فى الغزو .

والرسول يقول لأم المؤمنين عائشة : «لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم بنيته على أساس إبراهيم» وسيتبعه فى ذلك مالك عندما يستفتيه الرشيد فى معالجة منبر الرسول .

ولما منع الصحابة أبا بكر من التحرف والتجارة . حتى يتفرغ لشئون الخلافة كانوا يتوسلون إلى مصلحة . ويدفعون مفسدة . ويسدون ذريعة مؤدية لشغله عن واجب الخلافة .

وكثر قول مالك بهذا الأصل عن غيره . يقول القرافى ، وهو من أئمة المالكية : فليس سد الذرائع خاصاً بمالك رحمه الله بل قال بها هو أكثر من غيره . وأصل سدها مجمع عليه .

وعلى أساس سد الذريعة بنى كثير من الأحكام . مثل المنع من بيع السلاح وقت الفتنة أو للعدو أو إباحة أخذ الهدية لمن يلى وظيفة عامة . أو شهادة عدو على عدوه . أو تقديم خصم فى مجلس القضاء على خصمه . أو قضاء القاضى بعلمه أو الزواج من الأجنبيات . أو خروج النساء إلى المسجد فى الليل .

ومذهب مالك واضح فى إباحة تحديد الأسعار على التجار وفى الإبقاء على الإمام المفضول مع وجود الأفضل منه حقناً للدماء .

وكتحديد الأسعار تنظيم الاستهلاك ، من باب سد الذرائع .

وهذا قابل للتغيير بتغيير سببه لأنه منع مباح .

ولا يصحح مالك العقد بمجرد صحة شكله لو كان غرضه محظوراً ، كمثل بيع السلاح إذا عرف البائع أنه سيعطى لأهل الفتنة أو العدو ، وكمثل بيع العصير ممن يتخذه خمراً ، أو الإجارة على حمل الخمر لمن يشربها . أو إجارة الدار لمن يتخذها نادياً للقمار . يقول الشاطبى : « كل من ابتغى فى تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة . ومن ناقضها فعمله فى المناقضة باطل » ؛ فمالك لا يأخذ بالإرادة الظاهرة فيصحح بها إرادة باطنة .

ومن هذا النوع زواج المحلل . يتزوج رجل — وسيط — المرأة ليحلها لزوجها

الأول بعد طلاقها ثلاثاً — فهذا غرض غير مشروع يفسد به العقد عند مالك ويعاقب الزوجان عليه ويعاقب الشهود إن علموا .

أما الشافعي فيبيحه دون بحث عن النية . فالظاهر أمامه عقد صحيح . ويبطله إذا حوى شرط العودة فهذا نص صريح يوضح الغاية من العقد وهى باطلة .

وأما أبوحنيفة فيبيحه وإن نص فيه على أنه عقد لتحايل المرأة لزوجها الأول . فأمامه عقد صحيح معه شرط فاسد لا يفسد الزواج وأبويوسف يراه فاسداً . ومحمد يرى العقد صحيحاً ولا ترجع الزوجة إلى زوجها أى يلزم به المحلل .

وفى الوقت ذاته يحل مالك — للمصلحة — الوسيلة غير المنهى عنها من جهة الأصل — فالمنهى عنها من جهة الأصل محرمة بذاتها — أما غير المنهى عنها فتباح إذا أدت إلى مصلحة مثل دفع المال لمحارب حتى لا يقتل دافع المال . فدفع المال وسيلة إلى معصية هى أكل المال بالباطل . لكنه يؤدى إلى مصلحة .

* * *

وعلى أساس التعاون بين الجماعة وسد الطريق إلى المضارة بنى كثير من الفقه .

منع عمر أكل اللحوم يومين متتاليين من كل أسبوع . عندما قلت حتى أصبحت لا تكفى المدينة . وراقب ذلك بنفسه فكان يذهب إلى مجزرة الزبير ابن العوام ولم يكن بالمدينة سواها . وكان يضرب بالدرة من يخرج على هذا المنع ويقول له : « هلا طويت بطنك يومين ! ! » ، ومنع الفقهاء الاحتكار . وسوء الجوار . وسوء استعمال الحق بتجاوزه حدوده .

فمصدر الحقوق كلها هو الله الذى منحها وشرع الوسائل لحمايتها وبين طرائق استعمالها ووجوه الانتفاع بها فى حدود مقاصد الشارع . ومن المحال أن يشرع للناس ما يضرهم . قال الرسول عليه السلام : « لا ضرر ولا ضرار » فاستعمال الحقوق مقيد ابتداء بعدم الإضرار بالجماعة . فإذا أحدث ضرراً فاحشاً بالغير منع . درءاً لأشد الضررين .

وفى ذلك سارت الشريعة إلى أبعد مدى . والشرائع المعاصرة تحاول أن تبلغ شأوها .

والحق يستعمل استعمالاً سيئاً . إذا لم يقصد باستعماله إلا الإضرار بالغير . أو إذا تعارض مع مصلحة عامة . أو حقق مصلحة قليلة الأهمية لصاحب الحق لا تتناسب ألبتة مع مصلحة الغير . أو أصاب الغير ضرر عظيم محتمل غير نادر الوقوع . وإذا كان باستطاعة صاحب الحق بلوغ غرضه . بطريق آخر لا يحدث ضرراً فاحشاً بالغير . ومالك سباق فى كل أولئك . آخذ بآداب الإسلام ومعانيها التى تجعل المسلمين كالجسد الواحد .

ويقول الشاطبى فى ذلك : « الشريعة مبنية على الاحتياط والأخذ بالحزم والتحرز عما عسى أن يكون طريقاً لمفسدة » ..

العرف :

نهى النبى عليه السلام عن أشياء ثم استثنى موضع العادة ورخص فيه . مثل نهيه عن بيع ما ليس عند الإنسان ثم ترخيصه فى بيع السلم . إذ كان من عرف المدينة أن يسلفوا فى الثمار فنظمه لهم بقوله : « من أسلف فليسلف فى كيل معلوم . ووزن معلوم إلى أجل معلوم » .

والقرافى — المالكى — يقول : « كل ما فى الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة ..وليس تجديداً من المجتهدين حتى تشترط فيه أهلية الاجتهاد . بل هذه قاعدة اجتهد العلماء فيها وأجمعوا عليها ؛ فنحن نتبعهم فيها من غير استئناف اجتهاد » ويقول : « فمهما تجدد العرف اعتبره . ومهما سقط أسقطه . ولا تجمد على المسطور فى الكتب طول عمرك . بل إذا جاءك أحد من غير أهل إقليمك يستفتيك لا تجره على عرف بلدك واسأله عن عرف بلده وأجره عليه . وأفته به دون عرف بلدك ، والمقرر فى كتبك ، فهذا هو الحق الواضح والجمود على المنقولات أبداً ضلال فى الدين . وجهل لمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين » ..

أما العرف الذى يخالف الشريعة . من أى وجه . فعرف فاسد كشرب الخمر والربا وملابس النساء الفاضحة ..

ويشترط السرخسى فى المبسوط أن يكون المجتهد مصيباً فى القياس عالماً بعرف الناس . فالعرف شرط للاجتهاد ذاته .

ولقد أقر الشارع كثيراً من أعراف الجاهلية بعد أن نظمها فى الطراز الإسلامى كالبيوع والإجارة والزواج والقصاص والديات على عاقلة القاتل فقيل : العادة محكمة والمعروف عرفاً كالشروط شرطاً والثابت بالعرف كالثابت بالنص واختلفت الأقضية عند الناس باختلاف الأعراف والظروف والعصور وهو ما يقال عنه اختلاف زمان ومكان لا اختلاف حجة وبرهان .

وكان القضاة يتجارون مع الأحداث فى الأقضية . روى ابن سعد أن أبا البخترى جاء شريحاً فقال له : ما الذى أحدثت فى القضاء ؟ فقال شريح : إن الناس أحدثوا فأحدثت .

واختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد ليس فى الحقيقة باختلاف فى أصل الخطاب . لأن الشرع موضوع على أنه أبدى دائم . وإنما معنى الخلاف أن العوائد إذا اختلفت رجعت كل عادة إلى أصل شرعى يحكم به عليها . كالحكم بعد الدخول بأن القول قول الزوج فى دفع الصداق بناء على العادة، وبأن القول قول الزوجة بعد الدخول أيضاً بناء على نسخ تلك العادة . فالحكم جرى مجرى العادة فى الأولى والثانية .

ومن أمثلة تغير الزمان قبض الأجرة الآن على تعليم القرآن والإمامة والأذان وقديماً كان اللون الأسود مذموماً فى عهد أبى حنيفة فى أيام بنى أمية، فرأى أن صبغ ثوب باللون الأسود ينقص قيمته . فلما صار السواد شعار دولة بنى العباس رأى صاحبا أبى حنيفة أن صبغ الثوب باللون الأسود يزيد قيمته .

والشاطبى يقرر فى الموافقات أن كشف الرأس قبيح لذوى المروءات فى بلدان المشرق فيكون قادحاً فى العدالة وغير قبيح فى بلدان المغرب ، وهذا يتغير .

ومالك يأخذ بالعرف فى مقابل الدليل العام . كمثل ما يرد الأيمان للعرف . فلو حلف امرؤ لا يدخل بيتاً فإن القياس يقتضى الحنث بالدخول فى كل ما يسمى

بيتاً ولو كان مسجداً . لكن مالكاً يخصص العموم المستفاد من اللغة بالعرف والعادة المستعملة، لأن الناس لا تعتبر المسجد بيتاً فلا يرد عليه اليمين .

ويترك المالكية القياس إذا خالفه العرف . والعرف عندهم يقيد المطلق ويخصص العام . وهم يرون فيه ضرباً من ضروب المصلحة .

وأجاز المالكية على أساس العرف دخول الحمام دون تقدير الأجرة أو المدة أو الماء المستعمل إذ الناس قد تعارفوا ذلك .

وإذ كان نفى الغرر جملة ، فى العقود غير مقدور عليه ، فقد أجاز مالك أن يستأجر الأجير بطعامه . إذ قد تعارف على ذلك الناس . والغرر فيه يسير . كذلك الغرر فى الأجل عنده يسير ؛ لكنه فى الثمن لا يكون يسيراً . فقال متابعاً لعرف الناس : بجواز شراء السلعة إلى الحصاد، وبعدم جواز بيع سلعة « بما يقارب» الدرهم .

وقال تعالى : (والوالدات يرضعن أولادهن) . وأفتى مالك بأن الشريفة التى تتضرر بالإرضاع لا يجب عليها الإرضاع معتمداً العرف كتفسير لعقد الزواج .

قال قوم إن مالكاً خصص النص بالمصلحة . وقال آخرون إنها مصلحة كمالية . أو حاجية لا تصل إلى مرتبة الضرورة . لأنها المحافظة على الجمال أو دفع أذى التعيير . وقال آخرون إنها مخالفة للنص (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) وخرج البعض من هذا أن مالكا يقدم رعاية المصلحة على نصوص الكتاب والسنة !

والملاحظة الأولى على هذه الأقوال هى أن ما يزعمونه مصلحة هو مصلحة غريبة غير ملائمة لقصد الشارع الإسلامى، فالناس سواسية فى الإسلام ، سواء أصحاب الجمال أو أصحاب الكبرياء . ولا تمييز بين الشريفة والمشروفة يسقط الحقوق أو يعفى من الواجبات .

والحق أن مالكاً يفتى فى حدود عرف المدينة فى عهده . وقبل عهده . وكان العرف يقضى بأن الإرضاع ومعالجة الأطفال والخدمة فى المنزل لا يلزم الشريفة . فإن قامت به فلها الأجر عليه . وأما غيرها فإن قامت به فلا أجر لها . فحكم

مالك هذا العرف في عقد هو عقد الزواج وفي أمر مالى هو الأجر المستحق[١]

وذهب المالكية والحنابلة والمتأخرون من الحنفية إلى تقييد الجار بألا يضر جاره ضرراً بيناً غير معتاد . والاعتياد مرجعه إلى أعراف البلاد . فهذا نتيجة قاعدة لا ضرر ولا ضرار .

وأبو حنيفة : يرى عدم تقييد المالك في ملكه . من أجل جاره . يفتح ما يشاء من نوافذ أطلت على الجار أو لم تطل . ويعلى بناءه كما يشاء . ويحول داره إلى مصنع أو متجر وإلى هذا ذهب الشافعي ، وأحمد في بعض الروايات .

وجوز مالك البيع بالمعاطاة تبعاً للعرف الذى يجرى عليه الناس بالأفعال دون الأقوال . وزاد مالك على ذلك قال : « كل ما عده الناس بيعاً فهو بيع »،

---

(١) وقوله تعالى : (والوالدات يرضعن) لا يؤدى إلى وجوب الإرضاع على الكل دون استثناء بعضهن . ومن المفسرين — الطبرى — من يقول إن الآية تقصد أجل الرضاع (حولين) والشيرازى لا يرى إيجاباً لقوله تعالى : (فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن) ولو وجب الإرضاع ما استحقت أجراً . وقوله تعالى (وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى) مؤداه أن الإرضاع على سبيل الندب . وابن كثير يراه إرشاداً وقال — الجصاص — إنه يراد به إثبات حق الرضاع للأم وتقرير النفقة عنه على الأب . وقال آخرون هو على الأم عند موت الأب أو إذا لم يقبل غيرها أو فى حال الزوجية . وقال ابن حيان فى البحر المحيط : فوجوب الإرضاع إنما هو على الأب . لا على الأم . وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه وهى مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه فإذا لم يقبل غيرها أو يوجد له ظئر وعجز الأب عن الاستئجار وجب عليها إرضاعه فعلى هذا يكون الأمر للوجوب فى بعض الوالدات .

ومذهب مالك « أنه — أى الإرضاع — حق على الزوجة لأنه كالشرط إلا أن تكون شريفة ذات نسب فعرفها ألا ترضع » والمعروف عرفاً كالمشروط شرطاً .

وفقهاء المالكية يقولون مقالة ابن رشد — الحفيد — « وأما من فرق بين الدنيئة والشريفة . فاعتبر فى ذلك العرف والعادة » ويقول ابن رشد « الجد » ويستحب للأم أن ترضع ولدها فإنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس لبن يرضع به الصبى أعظم بركة عليه من لبن أمه » .

وفى المدونة « وسألت مالكا عن المرأة ذات الزوج أيلزمها رضاع ابنها ؟ قال نعم . يلزمها إرضاع ابنها . على ما أحبت أو كرهت . إلا أن تكون ممن لا تكلف ذلك قلت لمالك ومن التى لا تكلف ذلك ؟ قال : المرأة ذات الشرف واليسار . التى ليس " مثلها " ترضع وتعالج الصبيان فأرى ذلك على أبيه وإن كان لها لبن » .

فقوله إلا « التى ليس مثلها ترضع » معناه أن العرف يجعل للبعض شأناً دون بعض آخر .

والكلام والإشارة والكتابة التي تنعقد بها العقود ما هي إلا أفعال في حقيقتها .
وإن كان العقد لا يكون ملزماً حتى يوجد القبض من الجانب الآخر فيلزم العقد . ومن هذا النوع ما تعارفه الناس من شراء الأطعمة المعروضة وغيرها . . يدفعون الثمن . ويأخذون دون مقاولات .

ويخضع للعرف عند مالك . خيار الشرط وهو أن يشترط العاقد لنفسه الحق في إمضاء العقد أو فسخه في مدة معلومة . وأصله أن حبان بن منقذ كان يغبن في البياعات فطلب أهله إلى الرسول أن يحجر عليه فيمنعه من البيع والشراء . لكنه عليه السلام قال : « إذا بايعت فقل . لا خلابة ولي الخيار ثلاثة أيام » . والنص صريح في المدة ووجوب الاشتراط .

فأبو حنيفة والشافعي يجعلانها ثلاثة أيام والخيار عندهما لا يثبت إلا بالشرط.

لكن مالكا يرى أن المدة تختلف باختلاف السلع . فلا تقيد بالأيام الثلاثة بل ترجع إلى كل سلعة وظروفها لأن الخيار مشروع للتروى حتى سمى خيار التروية . ثم هو يذهب إلى أن الخيار يثبت بالشرط ويثبت بالعادة والعرف . بمعنى أن العادة إذا جرت بثبوت الخيار في سلعة من السلع ثبت الخيار فيها من غير شرط .

وإذ لم يعمل أهل المدينة بخيار المجلس ، لم يثبت لمالك حديث ابن عمر عنه .

روى ابن عمر عن الرسول « البيّعان كل واحد منهما على صاحبه بالخيار . ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار» . وقال عنه مالك في الموطأ رواية يحيي : ليس لهذا عندنا حد معروف ولا أمر معمول به أي لم يعلم له حد . ولا عمل به . ولعملهم بالمدينة كل القوة في أصوله[1] .

---

(١) هو يرى أن البيع كلام . فإذا أوجبا البيع بالكلام وجب البيع ولم يكن لأحدهما أن يمتنع مما قد لزمه . . . وكما يقول أشهب تلميذ مالك . الذي اجتمع عليه أهل العلم من أهل الحجاز أن البيعين إذا أوجبا بينهما فقد لزم ولا خيار لواحد منهما إلا أن يكون أحدهما اشترط الخيار فيكون ذلك لمشترط الخيار على صاحبه وليس العمل على الحديث الذي جاء « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا » قال أشهب : ونرى أنه منسوخ بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلمون عند شروطهم » ولقوله « إذا اختلف البيعان استحلف البائع » فلو كان الخيار بينهما ما كلف البائع باليمين .

الغرر :

وأكثر أسباب فساد العقود فى الفقه ترجع إلى الغرر . وهو مجال جد فسيح لتطبيقات العرف وحاجات الناس . يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) ويقول : (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) . فكل تعامل واجب وفاؤه وكل تجارة أكل فيها أموال الغير بالباطل حرام . والنبي نهى عن الغرر نهياً صريحاً فالشارع الإسلامى يريد عقوداً جادة يتقابل فيها الأداءات دون مجازفة بما لا علم به للمتعاقدين . وفى حين تسوغ القوانين الوضعية أكثر العقود الاحتمالية ، تجعل الشريعة الإسلامية الغرر قيداً على قيام التعاقد فترتفع بالمجتمع إلى أعلى مستوى خلقى فى المعاملات .

روى مالك وابن جريج والليث بن سعد ويحيى بن سعيد وغيرهم عن نافع عن ابن عمر « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا » والشافعى رضى الله عنه يقول : « لا أدرى هل اتهم مالك نفسه أو نافعاً وأعظم أن أقول ابن عمر » ! بل كان ابن أبى ذئب يقول يستتاب مالك فى تركه لهذا الحديث .

ويحتج آخرون له بأقوال منها أن الخيار يكون قبل إبرام العقد فى إبرامه أو تركه . وأن من التفرق التفرق بالقول لا بالأبدان

ويقول آخرون : إن البيعين هما المتشاغلان بالبيع المتراوضان فيه . فإذا تم العقد بينهما صارا متعاقدين فهما بالخيار قبل العقد لا بعده .

وكان عمر نفسه يقول: « البيع صفقة أو خيار » فالبيع الذى لا يشترط فيه الخيار يتم صفقة لقصر مدة الخيار فيه . أما اللى يشترط فيه الخيار فذلك بيع بشرط .

وجاء فى الموطأ رواية محمد :

أخبرنا نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المتبايعان كل واحد منهما بالخيار على صاحبه ما لم يتفرقا . إلا بيع الخيار » قال محمد وبهذا نأخذ « وتفسيره عندنا على ما بلغنا عن إبراهيم النخعى أنه قال : المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا . قال ما لم يتفرقا عن منطق البيع إذا قال البائع قد بعتك فله أن يرجع ما لم يقل الآخر قد اشتريت . وإذا قال المشترى قد اشتريت بكذا وكذا فله أن يرجع ما لم يقل البائع قد بعت . وهو قول أبى حنيفة والعامة من فقهائنا » وفى هامشه تعليق يقول قال مالك فى رواية يحيى وليس لهذا عندنا حد معروف ولا أمر معمول به .

قال ابن عبد البر وهو — مالكى — أجمع العلماء على ثبوت هذا الحديث . وقال به أكثرهم ورده مالك وأبو حنيفة وأصحابهما . وتوزع مالك فى إجماع أهل المدينة على رد هذا الحديث .

وتجعل الدين من ضوابطها[1] أما القوانين الوضعية فالأصل فيها إطلاق التعاقد بغرر اللهم إلا بعض استثناءات منصوص عليها مثل بيع الحقوق فى تركة إنسان على قيد الحياة ولو برضاه ومثل المقامرة والرهان .

وتحريم المجازفة تحريم لاستغلال الإنسان للإنسان لحاجته أو ضعفه أو فساد رأيه أو طمعه أو مقامرته والتحريم وتوسيع مدى التحريم دلالتان على أن الشارع الحكيم ينشر على عباده جناح الرحمة . فينقذهم من قسوة الغير ومن أنفسهم .

والغرر فى الفقه الأمر المجهول العاقبة أو ما خفيت عاقبته وطويت مغبته . والمتعاقد إذ يجهل عاقبته المستورة عنه لا يكون مجرد مخدوع فالخداع عيب يفسخ لأجله التصرف . أما الغرر فلا ينعقد به التصرف أصلاً . فإذا نقلنا تعريف فقهاء القانون الوضعى للعقود الاحتمالية التى يسميها القانون الوضعى عقود الغرر ، وهو أنها عقود لا يستطيع كل من العاقدين فيها أن يحدد فى وقت تمام العقد القدر الذى أخذ أو القدر الذى أعطى . فإننا ندرك مقدار ما تتسع دائرة الغرر ، فى الفقه الإسلامى ، فتنضبط المعاملات عند الناس ، فيكون الكل على بينة مما أعطى صاحب العقد أو أخذ . وهو مكاف ديناً بالوفاء به .

ويمتاز الفقه المالكى بالتوسع فى الحديث عن الغرر وحسبنا مثلاً على ذلك تقسيمات الغرر من حيث الجهالة عند الفيلسوف الإسلامى والعالم المالكى ابن رشد فى «بداية المجتهد» على أوجه : فى المعقود عليه ، وفى العقد ، وفى الثمن والمثمون . ثم يستطرد للتفصيل فيقول إن من البيوع التى توجد فيها هذه الضروب من الغرر

---

(١) عن زيد بن ثابت . كان الناس فى عهد الرسول عليه السلام يتبايعون الثمار فإذا جذ الناس وحضر تقاضيهم قال المبتاع إنه أصاب التمر الدمان . أصابه مراض . أصابه قشام ، عاهات يحتجون بها . فقال لما كثرت عنده الخصومة فى ذلك . فإمالا — فلا تتبايعوا حتى يبدو صلاح التمر . كالمشورة يشير بها لكثرة خصومتهم . . . ولم يكن زيد يبيع ثمار أرضه حتى يتبين الأصفر من الأحمر (الدمان فساد الطلع والمراض الأمراض . والقشام أن ينتقص التمر قبل أن يصير بلحا . فإما لا . فإن كان لا » .

بيوعاً منطوقاً بها وبيوعاً مسكوتاً عنها ، ويضرب الأمثال للمنطوق بها ثلاثة عشر بيعاً كبيع ما لم يخلق وبيع الثمار حتى تزهى وبيع السنبل حتى يبيض والعنب حتى يسود . كما يضرب الأمثال للمسكوت عنها ثلاثة عشر بيعاً أخرى كبيع الجزاف . وبيع السمك فى الغدير وبيع الغائب .

وتحدث مالك عن الغرر فى الموطأ تحت أبواب البيوع والتجارات والسلم فى واحد وثلاثين بابا . . . وهذا التفصيل آية على خطر الموضوع عنده واتساع تطبيقاته .

وجوز مالك كراء الأرض بأجر معلوم أما المزارعة ففيها عنده غرر . قال: فأما الرجل يعطى أرضه البيضاء بالثلث والربع مما يخرج منها فذلك مما يدخله الغرر ؛ لأن الزرع يقل مرة وربما هلك رأساً فيكون صاحب الأرض قد ترك كراء معلوماً يصلح أن يكرى أرضه به وأخذ أمراً غررا لا يدرى أيتم أو لا . . . فهذا مكروه وإنما مثل ذلك رجل استأجر أجيراً لسفر بشىء معلوم وقال الذى استأجر الأجير هل لك أن أعطيك عشر ما أربح فى سفرى هذا إجارة لك ؟ فهذا لا يحل ولا ينبغى . . .

هذا مع أن الإجارة ، وقد جوزها ، قد لا تعطى منافع . ومع أن الناس كانوا يتعاطون المزارعة لحاجتهم إليها ! وكهيئة مالك لم يجوز أبو حنيفة المزارعة . وكمثل الجمهور جوزها بعده صاحباه[1] .

وجوز مالك الإجارة على المنفعة المظنون حصولها كالوعد بجائزة يبذله الإمام

---

(١) قال أبو يوسف : إذا أعطى الرجل أرضاً مزارعة بالنصف أو بالثلث أو الربع فإن أبا حنيفة يقول: هذا كله باطل . . لأنه استأجر بشىء مجهول . أرأيت لو لم يخرج من ذلك شىء ؟ أليس كان عمله ذلك بغير أجر ؟ وكان ابن أبى ليلى يقول : ذلك كله جائز . بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أعطى خيبر بالنصف فكانت كذلك حتى قبض وخلافة أبى بكر رضى الله عنه وعامة خلافة عمر وبه نأخذ وإنما قياس هذا عندنا مع الأثر . ألا ترى الرجل يعطى الرجل مالا مضاربة بالنصف ولا بأس بذلك وقد بلغنا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعن عبد الله بن مسعود وعن عثمان ابن عفان رضى الله عنهما . . أنهم أعطوا مالا مضاربة ، وبلغنا عن سعد بن أبى وقاص وعن مسعود رضى الله عنهما أنهما كانا يعطيان أرضهما بالربع والثلث .

لمن يدله على ما فيه مصلحة عامة ، وكالإجارة على البلاغ . وهو اصطلاح للمالكية فى بلوغ النتيجة كما يقول الفقهاء الغربيون . كبرء المريض وحفظ القرآن واستنباط الماء .

والمضاربة من الضرب فى الأرض للتجارة – شركة يدفع فيها صاحب مال ماله إلى الغير ليتجر به والربح بينهما حسبما يتفقان . ويسميها أهل الحجاز القراض والمقارضة . ويقول ابن رشد : إنما رخص فى المضاربة لموضع الرفق بالناس ووجه صحتها أن الدنانير فيها لا تزكو إلا بالعمل . فالمضاربة مشاركة كما يقول ابن تيمية يشارك فيها العامل بنفع عمله وصاحب المال بنفع ماله وما قسم الله بينهما من الربح على الإشاعة .

* * *

وإذ شرعت العقود لحاجة الناس وما جعل الله عليهم فى الدين من حرج – فقد شرط الفقهاء لتأثير الغرر فى العقود شرطاً عمليًّا حقًّا : هو ألا يكون الناس بحاجة إلى ذلك النوع من العقود . فعقد السلم تدعو إليه الحاجة لأن المزارع قد يحتاج للمال لإصلاح أرضه وزرعه إلى أن يدرك وقد لا يجد من يقرضه ومن أجل ذلك أبيح السلم . والحاجة دون الضرورة ، بل إن الضرورة هى خوف الهلاك لا الهلاك نفسه . وعلى ذلك يعرف السيوطى الحاجة تعريف اليسر الإسلامى فى كتابه الأشباه والنظائر فيقول : « هى أن يصل المرء إلى حالة بحيث لو لم يتناول الممنوع يكون فى جهد ومشقة . ولكنه لا يهلك » .

ويقول مقولة تدل على اقتدار الفقه على التطور « القياس يقتضى منع الإجارة . لأنها عقد يرد على منافع معدومة . وإنما شرعت لعموم الحاجة إليها . والحاجة إذا عمت كانت كالضرورة » .

ويقول ابن تيمية : « ومفسدة الغرر أقل من الربا . فلذلك رخص فيما تدعو إليه الحاجة منه فإن تحريمه أشد ضرراً من كونه غرراً مثل بيع العقار جملة . وإن لم يعلم دواخل الحيطان » .

الباب السادس

إمام المدينة والسلطان

« إذا رأيت من سلطانك ما لا يوافق »
« العلم فاذكر ذلك ، مع طاعتك »
« إياه ، فإن يده أقوى من يدك »

« أبو حنيفة »

كانت المدينة مصدر الخطر على خلفاء الدولتين الأموية والعباسية . ومنها خرج على الخلافة آل البيت من أبناء على رضى الله تعالى عنهم . وكان رضاها أملاً لأولى الأمر . ورضى إمامها أول الأمل . وفقه مالك فقه الحياد فى الفتن . وطاعة ولى الأمر — وكان مالك أموى الهوى لأكثر من سبب . فلما غلبت الدولة العباسية على الأمر ، توسل به أبو جعفر إلى المدينة وإلى الأمة . ومع ذلك لم يسلم مالك من أذى أميره على المدينة وابن عمه . ولم ينقطع الخلفاء عن الجلوس إلى مالك هم وأولياء عهدهم على ما سنبين فى الفصلين التاليين .

الفصل الأول

طاعة الإمام

جاءت الدولة العباسية وليدة تطور مكنت له انتصارات الجند الوافد من خراسان لنصرة الرضى من أهل البيت ، فلما نصرهم الله ولى قائدهم أبو مسلم الخراسانى الأمور وجهة عباسية ، فبايع أبا العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس . وأخات دمشق المكان للكوفة . واستبدل أهل المدينة قسوة تستغلظ وتتأجج بقسوة كانت قد فترت . . وأنزلت الدولة الجديدة صعقاتها ببنى أمية . فلم يكذب أبو العباس أملاً للشاعر سديف عندما ناداه .

ارفع السيف وامنع العفو حتى لا ترى فوق وجهها أمويـا

استأمنه سليمان بن هشام بن عبد الملك وابناه فى نحو ثمانين رجلاً من بنى أمية . فأمنهم . ثم أعمل السيوف فيهم . فقتلوا جميعاً ! وقتل عمه عبد الله ابن على عدة آلاف ، منهم من قتلوا وهم يطعمون طعامهم! وهرب من المذبحة غلام لمعاوية بن هشام اسمه عبد الرحمن ، فوصل فى مهربه إلى الأندلس فملكه أهلها فقامت دولة كبرى لبنى أمية ، تقدم فى عواصمها وبخاصة قرطبة . حضارة الإسلام لكل أوربة . وتبذر بذور نهضة أوربة فى الحضارة المعاصرة . وتجعل مذهب مالك المذهب الوحيد الذى تعترف دول الأندلس به فى كل تاريخها . وتؤدى له العون ، من كل وجه ، برجالها ووسائلها ، حتى غربت شمس العرب من أسبانيا . وبقيت فيها حضارتهم .

وكانت البطشات فى دمشق والشام تحدث الأصداء فى كل الأرجاء . فتتلاقى فى دار الهجرة التى تصدر عنها تعاليم السنة وأولها التسامح والعفو وتفد إليها الأنباء دفقاً مع القوافل ، أو فى المؤتمر العام الذى يعقده المسلمون فى موسم الحج كل عام .

ولقبت الأمة الخليفة الجديد بالسفاح ونعتت بذلك عمه عبد الله بن على .

استدعى عبد الله بن على الأوزاعى إمام الشام (١٥٧) وعبد الله فى جنده شاكى السلاح فتحاورا حوار الفقه والبطش بين الحديد والدم .

قال : ما تقول فى دم بنى أمية ؟

قال : قد كانت بينك وبينهم عهود . وكان ينبغى أن تفوا بها .

قال عبد الله : ويحك . اجعلنى وإياهم لا عهد بيننا . ويقول الأوزاعى . « فأجهشت نفسى . وكرهت القتل . فذكرت مقامى بين يدى الله . فلفظتها « دماؤهم عليك حرام » فغضب وانتفخت عيناه وأوداجه .

فقال : ويحك لم ؟

قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث . ثيب زان . ونفس بنفس . وتارك لدينه » .

قال : ويحك : أوليس الأمر لنا ديانة ؟

أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى ؟

قلت لو أوصى إليه ما حكم الحكمين .

فسكت . وقد اجتمع غضباً وجعلت أتوقع رأسى يسقط بين يدى فقال . . . أخرجوه ؛ فخرجت .

كان أبو جعفر أخا السفاح الأكبر . لكن أمه لم تكن عربية ، فولى السفاح الخلافة ، وعمل المنصور لأخيه فى سباق البطش بإخلاص ! أعطى أماناً ليزيد ابن هبيرة الوالى السابق لبنى أمية فلما استسلم لم يلبث أن قتله بأمر أبى العباس ! ! وأسرعت المنية بالسفاح إلى بارئه يوفيه حسابه . فتولى المنصور نيفاً وعشرين عاماً وضع فيها أساس الدولة الجديدة وشاد بغداد .

ودارت دائرة السوء على عبد الله فخرج على أبى جعفر فحبس ليخر عليه البيت ويقتل .

ودارت دائرة أبى جعفر على قائده المظفر ، أبى مسلم الخراسانى بعد أن أمنه ، فقتله ! !

وخرج عيسى بن زيد « بن على بن الحسين » فقتل بين الكوفة وبغداد .

* * *

أدرك أبو جعفر « المنصور » غايات مراجل المدينة . وقصد إليها فى موسم الحج سنة ١٤٤ . فلم يأته محمد بن عبد الله بن . . الحسن بن على الذى سمته الأمة بالنفس الزكية . ولم يأت أخوه إبراهيم . فوضع عليهما العيون فأعجزاه هربا . فبعث إلى أبيهما مالك بن أنس واحداً من سفيرين طالبين أن يسلم محمداً وإبراهيم وكان سودان المدينة قد ثاروا فى شوال سنة ١٤٤ لما ينزله الولاة بالمدينة من قسوة . وهرب الوالى وترضاهم مواليهم . الذين ثاروا لهم . مخافة النقمة المنتظرة من أبى جعفر .

ولم تفلح سفارة مالك عند عبد الله بن الحسن بل هو رفض مبدأ المفاوضة مع السفراء قال : لا . والله لا أرد عليكما حرفاً . إن أحب أن يأذن لى فألقاه فليفعل .

ورفض اللقاء أبو جعفر . فلقد كانت فى عنقه بيعة لمحمد .

فى أواخر أيام بنى أمية . اجتمع إبراهيم بن محمد بن على وأبو جعفر . وصالح بن على ، ممثلين لبنى العباس . مع عبد الله بن الحسن وابنيه محمد وإبراهيم ممثلين لبنى على ، ليختاروا من يبايعون . فبايعوا محمدا . وأبو جعفر يومئذ أشد الناس حماساً ، وكان يلبس قباء أصفر . يوم ذاك . فلقبه الناس صاحب القباء الأصفر . وحج مع محمد . وتقدم يمسك ركابه ويقول : هذا مهدينا أهل البيت .

ولما ولى السفاح قرّب عبد الله بن الحسن ودعاه إلى الكوفة . أما أبو جعفر فكانت فى عنقه بيعة فنقضها . وحبس عبد الله وبقية أهله فى بيت وطين عليهم ليموتوا بداخله بعد .

خرج محمد النفس الزكية فى رجب سنة ١٤٥ من المدينة على أبى جعفر . وتبعه أعيان المدينة . وعزل عنها عثمان بن رباح أميرها من قبل المنصور . وشده . وفتح أبواب السجون . وعين على المدينة عاملاً وقاضياً . وخرج معه ابن هرمز

وهو شيخ هرم . قيل له : والله ما فيك شيء ! قال ، على ما يروى عنه تلميذه مالك : قد علمت ولكن يرانى جاهل فيقتدى بى .

وكتب أبو جعفر إلى محمد يقول : « ولك على عهد الله وميثاقه وذمة الله وذمة رسوله . إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وأسوغك ما أصبت من دم ومال وما سألت من الحوائج . . . وأطلق من فى حبسى من أهل بيتك » .

وكتب إليه محمد : « وأنا أعرض عليك من الأمان مثلما عرضت علىّ . فإن الحق حقنا . . وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد . لأنك أعطيتنى من الأمان والعهد ما أعطيت رجالاً قبلى . فأى الأمانات تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة . أو أمان عمك عبد الله . أو أمان أبى مسلم » ؟

وخرج إبراهيم أخو محمد فاستولى على البصرة . ومادت الأرض تحت أقدام أبى جعفر . لكن النصر حالف أعلامه . فقتل محمد فى ١٤ رمضان سنة ١٤٥ وأرسل المنصور رأسه إلى المدينة يطاف بها على طبق . وقتل إبراهيم عند باخمرى فى ذى القعدة . فقال شعبة بن الحجاج — الملقب بأمير المؤمنين فى الحديث — عن وقعة باخمرى : والله لهى عندى بدر الصغرى . وجيء بابن هرمز إلى عيسى بن موسى قائد الجيوش المنتصرة فقال له : يا شيخ — أما وزعك فقهك عن الخروج ؟ قال : كانت فتنة شملت الناس فشملتنا . . . فعفا عنه .

ورجع إلى المدينة مائة من المنهزمين فقتلوا واليها الذى أوثقه محمد . واشتعلت نيران الكراهية فى أهلها . . سألت امرأة عن أخيها الذى لم يرجع من هذه الحرب ، فقيل لها : قتل . فخرت ساجدة . قيل : أتسجدين أن قتل أخوك ؟ قالت : أليس لم يفر ولم يؤسر ؟ وألبس أبو جعفر المدينة لباس الجوع والفزع . فأمر بالبحر فأقفل عليهم . فلم يحمل عليهم من ناحية البحار شيء من التجارة أو الطعام . حتى كان المهدى ففتح وأذن بالحمل إليهم . فكان قوت المدينة قبل ذلك يجيئها من الصحراء .

واستحكمت بينها وبين أبى جعفر أزمة الثقة . فقاربها مقاربة سياسية بتولية الحسن بن زيد بن الحسن بن على عليها راح يقاربها مقاربة علمية ،

وسياسية معاً . عند مالك بن أنس ، سفيره السابق للسلام .

* * *

لكن ريب الليالى كان لمالك بالمرصاد ، فلم يكن من طبائع الأمور أن تمر به الأحداث كلمى . دون أن يصيبه منها أذى ، ولو يسير ، أو أزمة مع الدولة . ولو محلية . والحلقة عاملة ناصبة لا تكف عن القيام بدورها فى التحديث بحديث الرسول وسننه . فرفع الوشاة عنها إلى والى المدينة جعفر بن سليمان « ابن عم أبى جعفر المنصور» أن شيخها لا يرى أيمان بيعتكم بشىء — لأنه يحدث بحديث « طلاق المكره لا يجوز» .

ودس الوالى إلى الحلقة من يسأل الشيخ فى مجلس الدرس فحدث على رءوس الأشهاد أن « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» . وأن « ليس على مكره يمين » وهو أصل من الأصول لا يتزعزع واقترنت الفتوى فى الأذهان بخروج محمد وإبراهيم ونقض الناس بيعتهم لأبى جعفر .

روى الطبرى عن الواقعة « أن مالك بن أنس استفتى فى الخروج مع محمد ابن عبد الله بن الحسن وقيل له إن فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر فقال: " إنما بايعتم مكرهين . وليس على مكره يمين" . فأسرع الناس إلى محمد ولزم مالك بيته » .

وأمسى سهلاً على الكارهين لمالك أن يدسوا . وعلى الخائفين من أبى جعفر أن يتوهموا . وعلى الأمير الوافد من الميدان . تتراقص فى خياله رؤى الحرب . مع محمد وإبراهيم ، وكان الأمير من قواد جيش عيسى بن موسى ، أن تتناهى به سورة البطش ونشوة الظفر . فيرى التحديث بهذا الأصل الدينى مسوغاً عند الناس لنقض بيعة أخذت منهم بالأيمان المغلظة وبالفزع الأكبر . فدعا بمالك . فجرد وضرب بالسياط ، أوجع ضرب . من ثلاثين إلى مائة سوط . حتى انخلعت كتفه .

قال ابن وهب : وحمل على بعير للتشهير . فكان يقول : ألا من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا مالك بن أنس بن أبى عامر . الأصبحى . وأنا أقول : طلاق المكره ليس بشىء . . فبلغ ذلك الأمير . فقال : أدركوه . أنزلوه .

وتأثرت يد مالك بالضرب . فبقى لا يستطيع أن يرفعها . ولا أن يسوى رداءه .
قال الدراوردى: سمعته يقول حين ضربه : اللهم اغفر لهم . فإنهم لا يعلمون .

لكنه كما يعبر ابن قتيبة تعبيره . العصرى أبدا . لم يزل بعد هذا الضرب فى علو ورفعة . وكأنما كانت هذه السياط حلياً حلى به !

ولا جرم إن من العمل فى الدين أن يؤذى المرء فى سبيل دينه. أو الإمام من أجل تعاليمه . وكان احتمال الأذى درساً من دروس مالك للأمة والأئمة .

وليس غريباً أن يصفح الأمير عيسى بن موسى عن ابن هرمز أو يصفح جعفر بن سليمان عن محمد بن محمد بن عجلان الذى خرج فعلاً مع محمد إذ قيل له عن علمه وورعه إنه فى المدينة كالحسن البصرى فى البصرة ، فى حين يضرب مالك ، فضرب مالك أريد به إيقاع الرعب فى القلوب ، والرعب لا يبلغ غرضه إلا بضرب الرؤوس . ومالك هو الإمام والزعيم ، جدير فى شرعة البطش بأن يضرب حتى إذا لم يخرج بل ولو كان الحديث حقيقة علمية لا يمارى فيها اثنان .

وليس غريباً كذلك أن يبقى مالك . فلا يخرج مع محمد . فلقد لزم ابن أبى ذئب (٨٠ — ١٥٩) « محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبى ذئب » داره فلم يخرج وكان من أشد العلماء فى نصح الخلفاء .

وأبرد البريد إلى أمير المؤمنين فى بغداد فجزع لأن مقاربته لمالك فى السنوات العشر المنصرمة على بدء خلافته قد أصابها ابن عم فيه حمق . ومالك دعامة الاستقرار فى المدينة . ورضاه عن حكمه حجة له . فبعث إلى مالك . ليلقاه بمنى فى موسم الحج . فلقيه . واعتذر له بكل أنواع الاعتذار . ولم يزل يستدنيه حتى أجلسه وقد لصقت ركبتا مالك بركبته . وحلف له أنه ما أمر بالذى كان . ولا علمه قبل أن يكون . ولا رضيه إذ علمه . وهنا حمد مالك ربه على كل حال وصلى على الرسول ونزه الخليفة عن الأمر بذلك أو الرضا به .

وواصل المنصور كلامه : يا أبا عبد الله ما يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم . وإنى أخالك أماناً لهم من عذاب الله وسطوته . ولقد رفع الله بك

وقعة عظيمة . فإنهم أسرع الناس إلى الفتن . وأضعفهم عنها . قاتلهم الله أنى يؤفكون . وقد أمرت أن يؤتى بجعفر من المدينة على قتب . وأمرت بضيق محبسه وامتهانه . ولابد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه .

ورد مالك : عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه . قد عفوت عنه لقرابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرابته منك .

ورد المنصور : وأنت عفا الله عنك ووصلك .

* * *

ولو أفتى مالك بالخروج لكان من الثوار . ولحقت عليه العقوبة التى نزلت به . بل ربما استحق أكثر . من خليفة كان يخطب فيقول : « إنما أنا سلطان الله فى الأرض أسوسكم بتوفيقه وتسديده . وتأييده . وحارسه على ماله . أعمل فيه بمشيئته وإرادته » . فأى شىء لا يشمله بطشه .

لكن أبا جعفر بحنكته السياسية . لم يزد المسألة قيمة كما فعل واليه . ولم ينقصها . فيسكت عن خطيئته . بل بين فى لقياه لمالك أنه يعطيه القود منه . وأن مالكا فى المدينة عمدته كأداة للهداية والاستقرار .

وازداد الخليفة إليه زلفى . فراح يخاطب شغاف قلبه بمقاربته فى فكره وإيمانه بفقهه . فأعلن له حاجته إلى أن يجعل الموطأ كتاباً للمسلمين أجمعين . فاتباع الأئمة إيمان بخصائصهم وفيه ، من أبى جعفر . باسم المسلمين قاطبة ، قصارى المودة .

ولم يجزع الشيخ لما جرى به قدره . ولقد كان يروى للمسلمين وللأئمة موعظة أعيمش بنى تيم القاسم بن محمد بن أبى بكر عن جيل الصحابة « أدركت الناس وما يعجبهم القول . إنما يعجبهم العمل » بل يروى قول عمر بن عبد العزيز : لا تغبطوا أحداً لم يصبه فى هذا الأمر أذى . وإذا كان مالك وجيهاً عند الله والناس ، فقد صار بعد ضربه أوجه . وكان العلم العظيم بحاجة إلى العمل العظيم . يكلل به مجده — فرزقه الله الفرصة ليكون إماماً للأئمة ، وليتم به اتباعه للسابقين . وإنما كان يعجبهم العمل .

وأعطى مالك المسلمين وخلفاءهم وولاتهم ، درساً جديداً بالعفو — والعفو أقرب للتقوى — مثل درسه فى احتمال الأذى ودرسه فى حديث رسول الله عن الإكراه . فعلم الشافعى وابن حنبل الصمود عند المحنة فيما تعاماه .

وسبق مالك أبا حنيفة فى أذى بنى العباس . إذ يموت أبو حنيفة فى سنة ١٥٠ بسجن أبى جعفر . بعد ضرب ، أو من غير ضرب . وفى العمل الجليل الواحد عظات لا تعد .

* * *

ولا يرد على الذهن أن ضرب مالك كان بأمر من أبى جعفر . إلا أن يجهل المرء حقائق الرجل .

فمالك لم يصنع شيئاً ضده . والتحديث العلمى بحديث للرسول فى الحلقة . ليس خطيئة . ولا يستطيع الخليفة أن يمنع منه الإمام إلا أن تكون سنة الرسول ضد الخليفة . وبهذا يفقده غضبه على مالك حجته على الأمة .

وأبو جعفر فقيه محدث يعرف هذا الحديث . وفقهه . وله دراسات فى أيمان البيعة بطبيعة الحال . ورأيه فيها نقيض لرأى جده الأعلى عبد الله بن عباس[1] .

---

(١) كانت أيمان البيعة فى السبعينات من القرن الأول عندما أخذ الحجاج البيعة لعبد الملك ابن مروان ، وفى الثلاثينات من القرن الثانى عند البيعة لأبى جعفر مشغلة الخلفاء . فى صيغها وإحكام عباراتها . خذ مثلا لإحدى المبايعات « فإن أنتم بدلتم من ذلك شيئاً أو غيرتم أو نكثتم أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين واشترط عليكم فى كتابه هذا . فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وذمم المؤمنين والمسلمين . وكل مال هو اليوم لكل رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين . وعلى كل رجل منكم المشى إلى بيت الله الحرام الذى بمكة . خمسين حجة نذراً واجباً لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك . وكل مملوك لأحد منكم أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة فهو حر . وكل امرأة له فهى طالق ثلاثا البتة ، طلاق الحرج لا مثنوية فيها » .

ومثلا آخر :

« فإن غيرت — فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ودينه ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً . وكل امرأة هى اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتة طلاق الحرج » .

حارب الأئمة هذه الأيمان . مالك يقول ليس على مكره يمين . وداود سيقول إن اليمين بغير الله =

يقول الجاحظ عنه : « كان مقدماً فى علم الكلام ومكثراً من كتاب الآثار . ولكلامه كتاب يدور فى أيدى العارفين والوراقين . معروف عندهم » . ومالك يقول فيه : « . . ثم فاتحنى فى العلم والفقه، فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه وأعرفهم بما اختلفوا فيه . حافظاً لما روى . واعياً لما سمع » .

وأبوجعفر بخيل ، كل البخل ، بالمال . مقل كل الإقلال فى سفك الدم . لا يَضع السيف حيث ينفع الندى . إذا سخا سخا بقدر ، وإذا بطش فحيث البطش ضرورة

ولقد دعا الإمام جعفر الصادق فى زيارته للمدينة، عامئذ ، يروِّعه . فجعل الصادق الخالقَ سبحانه بينه وبينه . وطالبه ببعض ماصادره من أموال أهل بيته . وذكره مسئوليته أمام بارئه .

قال أبو جعفر . إياى تهدد بهذا الكلام ؟ والله لأزهقن نفسك .

قال الصادق : لا تعجل ؛ فقد بلغت ثلاثاً وستين وفيها مات أبى وجدى .

قال المنصور : قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربى . قد هممتُ أن أبعث إليهم من يغور عليهم ويجمر نخلهم .

قال الصادق : يا أمير المؤمنين : إن سليمان أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى

= لا قيمة لها ولا تأثير . والشافعى يقول : إن طلاق امرأة لم يتزوجها الإنسان لا تأثير له .

وآخرون يقولون إنه يجوز لمن حلف أن يستثنى من يمينه ولو بعد أيام . فيقول بعد أن يحلف إن شاء الله فلا تكون لليمين قيمة، أما أبوحنيفة فلا يجيز الاستثناء إلا متصلا . ولما حاول الربيع بن يونس حاجب أبى جعفر أن يوقع بينه وبين أبى حنيفة . نسب إليه فى مجلس الخليفة أنه يخالف ابن عباس جد أبى جعفر . فى قول ابن عباس بتجويز الاستثناء عن اليمين . استثناء منفصلا . بعد يوم أو يومين إلى سنة فى قول . وإلى غير حد فى قول آخر . وأبو حنيفة لا يجيز الاستثناء إلا متصلا باليمين . ولا يصح إذا كان القول باتاً فى المجلس . فلم تأخذ أبا حنيفة مفاجأة الربيع فقال : يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أنه ليس لك فى رقاب جندك بيعة . قال كيف ؟ قال أبو حنيفة يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فيبطل أيمانهم . . . وبهت الربيع وضحك أبوجعفر وقال : يا ربيع لا تتعرض لأبى حنيفة . فلقد كان أبو جعفر يتلمس البيعة من كل مكان .

فصبر . وإن يوسف قدر فغفر . فاقتد بأيهم شئت . وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون ويصفحون »

وتعالى المنصور على الموعظة قال : إن أحداً لا يعلمنا الحلم ولا يعرفنا العلم . وإنما قلت هممت . ولم ترنى فعلت . وإنك لتعلم أن قدرتى عليهم تمنعنى من الإساءة إليهم .

وأبو جعفر فى دخيلة نفسه يريد ليقارب المدينة . ويتمنى لو رضى عنه أهل البيت . وأى زلفى كمثل التقرب إلى النبى فيهم ! وأى رضى نفسى إذا لقى ذكرى للنبى . كانت دار « الأرقم » على الصفا بمكة هى الدار التى استتر فيها عليه السلام . ودعا الناس إلى الإسلام . وقد تصدق بها الأرقم على ولده . فلم يزل المنصور يرغبهم بالمال حتى باعوه إياها .

* * *

وكما كان أبو جعفر عالماً بالحديث . كان لا يخشى النقدة . . بل يقبل النصح العنيف والجدل العاصف — ما دام فيه إخلاص .

قصد إليه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافرى . من القيروان . وكان زميلاً له فى طلب العلم . فعرض عليه المقام ببغداد . وقال له : كيف رأيت ما وراء بابنا ؟ قال : رأيت ظلماً فاشياً وأمراً قبيحاً . قال لعله فيما بعد من بابى . فقال : بل كلما قربت استفحل الأمر وغلظ . قال ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا وقولك مقبول عندنا ؟ قال : رأيت السلطان سوقاً وإنما يرفع إلى كل سوق ما ينفق فيها . قال كأنك كرهت صحبتنا ؟ قال ما يدرك المال والشرف إلا من صحبتكم . ولكنى تركت عجوزا . وإنى أحب مطالعتها .

بل دخل عليه سفيان الثورى (١٦١) ، وهو من أتراب مالك ، فقال له : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً . فطأطأ رأسه ثم رفعه وقال : ارفع إلينا حاجتك .

فقال : إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار . وأبناؤهم يموتون جوعاً . فطأطأ رأسه ثم رفعه وقال : ارفع حاجتك .

فقال : حج عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال للخازن كم أنفقت فقال : بضعة عشر درهماً . وأرى هنا أموالاً لا تطيق الجمال حملها . ثم خرج .

ولما راجعه حاجبه فى شأن سفيان . قال له : اسكت يا أنوك (أحمق) . لم يبق على الأرض من يستحى منه غير « مالك » وسفيان .

وذات يوم قال له عمرو بن عبيد : ببابك ألف مظلمة . اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق .

ولما دخل عليه عمرو بعد الخلافة . وأراد الانصراف قال له : سل حاجتك . قال : حاجتى ألا تبعث إلىّ حتى آتيك ، وألا تعطينى حتى أسألك .

وسنرى بعد مواقفه من ابن أبى ذئب وابن طاووس .

ولم يك أبو جعفر ليخاف التبعة — لو أمر بضرب مالك . فكم تحمل أبو جعفر من تبعات . أمام الله والناس ! لقد قتل عبيده أبا مسلم فى مجلسه بتدبير منه ! وقتل ابن هبيرة بعد الأمان الذى أعطاه إياه . وحبس عمه ليخر عليه البيت بعد أمان . أعطاه إياه[1] وفى محبسه فنى العلويون المحبوسون !

وسيحبس أبا حنيفة فيموت فى سجنه .

إنما كان أبو جعفر بحاجة إلى الهدوء فى الإمبراطورية التى يحكمها . وفى المدينة التى يخرج منها أصحاب الحق فى الخلافة . ومن أجل ذلك احتاج لمالك .

ولقد بلغ بمودته كل السلام ، الذى نشده . فلم يخرج منها أحد حتى سنة ١٦٩ بعد موته بعشر سنين. ولما خرج يومذاك الحسين بن. . . على ، فقتل عند فخ . خرج مغاضباً لأهلها . يقول : « يا أهل المدينة لا أخلف الله عليكم بخير » ويقولون : « بل أنت — لا أخلف الله عليك ولا ردك » .

* * *

---

(١) خرج عبد الله بن على على ابن أخيه « أبى جعفر المنصور » وأرسل إليه المنصور جيشاً بقيادة أبى مسلم . وفر عبد الله إلى أخويه سليمان وعيسى فتوسطا له لدى المنصور . فقبل شفاعتهما واتفقوا على أن يكتبوا له أماناً من المنصور . فكتب عبد الله بن المقفع — وكان كاتباً لعيسى — أماناً فيه « ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن على فنساؤه طوالق . ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حل من بيعته » وشقت العبارة على أبى جعفر . فأسرها فى نفسه ، فلما قتله والى أبى جعفر سفيان بن معاوية سر أبو جعفر . وكان عمر ابن المقفع ٣٦ سنة .

أما عمه عبد الله فحبسه سنة ١٣٨ وخر عليه البيت فقتل سنة ١٤٧ .

الفتنة أشد من القتل :

الحق أن مالكاً كان مغنما للدولة الجديدة . لكثير من الأسباب . فهو إلى ما مضى كان أموى الهوى . فموادعته للدولة الجديدة تثبت بجدارتها أكثر من الدولة القديمة ، التى لم تعد إلا ذكريات .

وهو إمام السنة . فإذا واجه معه أبو جعفر الأمة واجهها والسنة معه — ومن ثمة أمر ألا يفتى غيره فى المدينة . أو أن يفتى هو أو ابن أبى ذؤيب . كما كلف ولاته بابتغاء إقراره لعملهم . وذات يوم رفع أبو جعفر صوته فى المسجد . فنهاه مالك فانتهى .

وهذه الأسباب جميعاً يسبقها أمر له المنزلة الأولة هو فقه مالك ذاته . فى طاعة السلطان . فمالك لا يرى الخروج على الإمام الجائر كما يرى الخوارج . ولا يرى سل السيف فى سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . كما يرى المعتزلة . ومالك يسد الذرائع إلى الفتنة . ويرى أن الدنيا يصلحها السلام .

وعندما سأله واحد من ولد عمر بن الخطاب عن بيعة أهل الحرمين للسائل بدلاً من أبى جعفر . قال له : « أتدرى ما الذى منع عمر بن عبد العزيز أن يولى رجلاً صالحاً بعده ؟ قال : لا — قال مالك : كانت البيعة ليزيد بن عبد الملك فخاف عمر إن بايع لغيره أن يقوم ويقاتل الناس فيفسد ما لا يصلح » .

ومالك يحمل لواء ابن عمر فى « الاتباع » — روى البخارى عن ابن عمر أنه أتاه فى فتنة ابن الزبير رجلان فقالا : إن الناس قد صنعوا . وأنت ابن عمر . وصاحب النبى صلى الله عليه وسلم . فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : « يمنعنى أن الله حرم دم أخى» قالا ألم يقل: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة). قال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله . وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله .

ويقول ابن عمر كذلك . عن الرسول عليه السلام: « السمع والطاعة على المسلم فيما أحب أو كره . ما لم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» .

أما الحبر أو البحر الذى كان يرجع إليه ابن عمر. نعنى عبد الله بن عباس؛ فيقول عن النبي: «من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية».

وهذا الحديث يرويه البخارى عن ابن عباس. والبخارى - زعيم المحدثين - يرى عدم الخروج على أئمة الجور لأن الخروج أكثر ضرراً. وأن هناك دائماً فرصة ليصلح الوالى من شأنه.

قال عبادة بن الصامت «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا. وأثرة علينا. وأن لا ننازع الأمر أهله. قال إلا أن تكون كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان».

ومالك يرى أن علياً. وسعدا. وابن مسعود. وأبا ذر. وعمارا قد أطاعوا عثمان. ولم يخرجوا عليه وإن ناقضوه. والبيعة إنما تكون على الطاعة. والفتنة أشد من القتل. وصلاح الأمر مأمول مع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والشورى. ومالك يجيز خلافة المفضول مع وجود من هو أفضل منه. ويشترط عليه أن يعدل.

فمالك يغير المنكر بيده. فإن لم يستطع فبلسانه. فإن لم يستطع فبقلبه. لكنه لا يحمل السيف ولا يجمع لحمله الآخرين.

ذلك كله وأمر آخر. فمالك لم يكن متشيعاً ولا فيه شبهة تشيع. وتلك كانت مشكلة الساعة - قضية الحرب والسلام للدولة - أو الموت والحياة لأبى جعفر، وأولاده. ولعل أبا جعفر قرب من مالك لبعد مالك من العلويين.

ومذهب مالك معروف مذاع على الملأ من سنين وربما عشرات سنين وهو حياد الفقيه مع ولائه للسلطة. سأله سائل عن جواز محاربة الخارجين على السلطان.

قال مالك: إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم.

قال السائل: فإن لم يكونوا مثله؟

فأجاب: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم. ثم ينتقم من كليهما.

وعمر بن عبد العزيز لا يتكرر. فمالك يفتى بالحياد أبدا. لأنه يأمل

صلاح الحكام بالموعظة الحسنة . والذى لا يخرج مع محمد بن الحسن وله بيعة من الخليفة ذاته . لا يخرج مع أحد .

وليس تغيير النظم السياسية عمل الفقيه وإنما عمله بيان حدود الله وحقوق المسلمين .

وأبو حنيفة فى العصر ذاته يعلم أبا يوسف معاملة السلطان فيقول : « وإذا رأيت من سلطانك ما لا يوافق العلم فاذكر ذلك مع طاعتك إياه فإن يده أقوى من يدك » . ثم يعامه موعظة السلطان فى يسر ولين .

* * *

أما أن هوى مالك مع بنى أمية — فيدل عليه تاريخه كله حتى قبل أن يولد — من جده الذى شجع الشجاعة الكبرى بالمشاركة فى دفن عثمان بليل وقتلته آخذون بخناق المدينة ، وكان يدخل على عمر بن عبد العزيز ، إلى عمه أبى سهيل الذى يتردد ذكره فى الموطأ بما يشبه الافتخار . وكان يتردد على عمر بن عبد العزيز كذلك و يسأله فى العلم .

يسأله عن القدرية — كما يروى الموطأ — فيرى أن يستتابوا . فيقول عمر هذا رأيى . ويعاق مالك فى الموطأ بقوله « وهذا رأيى » فيلتقى رأيه — ورأى عمه — مع رأى خامس الراشدين وهو من بنى مروان ، من بنى أمية .

ولقد كانت صلة مالك بعمر بن عبد العزيز . وفكره وورعه . مجداً لمالك ، وكان يهتز طرباً إذا ذكر كلماته .

وكما ارتبط فكر مالك بعمر . من كل وجه ، ارتبطت آماله للدين والدنيا . بمثال آخر لبنى مروان بالأندلس . . يوم سأل عن سيرة عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك . فقالوا له : إنه يأكل الشعير ويلبس الصوف . ويجاهد فى سبيل الله . فقال : ليت أن الله زين حرمنا بمثاله . وبلغ هذا المقال عبد الرحمن فسر له .

ولقد كانت حفاوة الأمويين وبخاصة هشام بن عبد الرحمن فى الأندلس

بمذهب مالك وفقهه بعض مظاهر الظفر للمذهب . فى كل أوربة . إذ تعصبوا له تعصباً بقى على الأجيال قروناً فى أوربة . بعد موت مالك . وتعصبوا له فى حياة مالك — شعاراً لاستقلالهم عن دار الخلافة ببغداد . وارتباطهم بدار الهجرة . وهى تحية فكرية تأسر القلوب وافدة من بعيد .

وإذا كان تأثره بابن شهاب ومروياته من أبرز المظاهر فى علمه فتأثره بأبى بكر بن حزم عن طريق ولديه ظاهرة لا تقل بروزاً . وكلا الرجلين ، ابن شهاب ، وابن حزم ، كان أموى الهوى ، الأول علمهم والثانى عمل لهم . وكان كلاهما مقدماً فى العلم والعمل بالمدينة . وهذان أساس فكر مالك . . وطريقته . كل ذلك إلى جوار ما يرويه مالك ويستمسك به من حديث النبى عن اختصاصه معاوية بسفرجلات يلقاه بهن فى الجنة كما سنرى بعد . ومعاوية رأس الأسرة . وهو أساس الدولة . وهو كاتب النبى وصهره . وكان نابغة يسر وتسامح . ومالك هو اليسر والتسامح .

الفصل الثانى

الخلفاء فى الحلقة

« ما رأيت فى العلماء أهيب »
« من مالك »
« هرون الرشيد »

طلب أبو جعفر إلى مالك أن يصحبه إلى عاصمته . وأجاب فى طاعة للخليفة . واعتزاز بمنهجه . وبالمدينة . قال : إن تكن عزمةً من أمير المؤمنين فلا سبيل إلى مخالفته . وإن تكن غير ذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

ولم يكن ولاء مالك للسلطة محل شك . عند أبى جعفر . فى حين كان يبادل غيره الرجاء الحذر . لكن مالكا نفسه لم يكن يأمن غدر أبى جعفر . أو هكذا يظهر من فهم المقاربين فى العصر لمواقف أبى جعفر . وهم يروون عن مالك أنه قال :

لما ولى أبو جعفر الخلافة ورقى إليه الملاقون المشاءون بالنميمة . . فأتانى رسوله ليلاً قال : أجب أمير المؤمنين . . . فلم أشك أنه القتل ففرغت من عهدى واغتسلت وتوضأت ولبست ثياب كفنى . وتحنطت ثم نهضت فدخلت عليه فى السرادق . والشمع يحترق بين يديه، وابن أبى ذؤيب ، وابن سمعان، قاعدان . . فلما قعدت وسكن روعى رفعت رأسى أنظر تلقائى . فإذا أنا بواقف وعليه درع وبيده سيف . . ثم التفت إلينا قال : أما بعد معشر الفقهاء فقد بلغ أمير المؤمنين عنكم ما أخشن صدره وضاق به ذرعه . وكنتم أحق الناس بالكف من ألسنكم . .

قال مالك : يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم

فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين)

قال أبو جعفر : على ذلكم . أى الرجال أنا ؟ أمن أئمة العدل أم من أئمة الجور ؟

قال مالك : قلت يا أمير المؤمنين أنا متوسل إليك بالله تعالى وأتشفع إليك بمحمد صلى الله عليه وسلم . وبقرابتك منه إلا ما أعفيتنى من الكلام فى هذا . قال : قد أعفاك أمير المؤمنين . ثم التفت إلى ابن سمعان وقال : أيها القاضى . . . أى الرجال أناعندك ؟ قال: أنت والله خير الرجال يا أمير المؤمنين تحج بيت الله الحرام . وتجاهد العدو وتؤمن السبل . ويأمن الضعيف بك أن يأكله القوى ؛ فأنت خير الرجال وأعدل الأئمة . ثم التفت إلى ابن أبى ذؤيب وقال . . . أى الرجال أنا عندك ؟ قال : أنت والله عندى شر الرجال . استأثرت بمال الله ورسوله وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين . وأهلكت الضعيف وأتعبت القوى وأمسكت أموالهم — فما حجتك غداً بين يدى الله ؟ قال أبو جعفر ويحك : ما تقول : قال : نعم قد رأيت أسيافاً وإنما هو الموت ولابد منه عاجله خير من آجله .

ثم خرجا وجلست .

قال : أجد رائحة الحنوط عليك ! قلت أجل . لما نمى إليك عنى ما نمى وجاءنى رسولك ظننت أنه القتل . . قال : أو ما ترانى أسعى فى أود الإسلام وإعزاز الدين عائذاً بالله . . . . يا أبا عبد الله . انصرف إلى مصرك راشداً مهديا . وإن أحببت ما عندنا فنحن ممن لا يؤثر عليك أحداً . قلت إن يجبرنى على ذلك أمير المؤمنين فسمعا وطاعة . وإن يخيرنى أمير المؤمنين اخترت العافية قال : انصرف إلى أهلك معافى مكلوءاً . .

فلما أصبحنا أمر أبو جعفر بصرر دنانير فى كل صرة خمسة آلاف دينار ثم دعا برجل من شرطته فقال له : تدفع لكل رجل منهم صرة . أما مالك إن أخذها فبسبيله وإن ردها فلا جناح عليه . وإن أخذها ابن أبى ذؤيب . فائتنى برأسه . وإن ردها عليك فبسبيله . وإن يكن ابن سمعان ردها فائتنى برأسه وإن

أخذها فهي عافيته .

قال مالك : فأما ابن سمعان فأخذها فسلم . وأما ابن أبي ذؤيب فردها فسلم . وأما أنا فكنت والله محتاجاً إليها فأخذتها . ثم رحل أبو جعفر متوجهاً إلى العراق .

وذات يوم استدعى أبو جعفر مالكاً وعبيد الله بن طاووس بن كيسان — وكان عبيد الله من أحسن الناس ، قال له : حدثني عن أبيك : وكان أبوه تلميذاً لابن عباس — قال : حدثني أبي أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه . . قال مالك : فضممت ثيابي خوفاً من أن يصيبني دمه . ثم قال له المنصور : ناولني تلك الدواة . ثلاث مرات . فلم يفعل وقال أبو جعفر : لم لا تناولني ؟ قال : أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها . قال : قوما عني . ذلك ما كنا نبغي . قال مالك فما زلت أعرف لابن طاووس فضله منذ ذلك اليوم .

* * *

مع العلويين :

لم يك هوى مالك مع العلويين ، وكان ذلك حسبه عند أبي جعفر . وتاريخ مالك وفقهه دلائل على ذلك . فمالك لم يأخذ عن علماء الشيعة إلا ما أخذه عن جعفر الصادق . وعظم ما أخذه عن هذا الإمام سماحته وحياده ومسالمة السلطة والناس .

وولاء مالك لحلف أسلافه أو ولاءهم لبني تيم يجمع جذوره كلها عند علمائهم أو زعمائهم الأعاين . ولقد سلف علينا الأمر في بداية تعليمه وفي أساتذته منهم . أما زعماؤهم فمنهم طلحة بن عبيد الله[1] ، شهيد موقعة الجمل ، وقد أظفر الله فيها أمير المؤمنين علي . وبنو تيم رهط أبي بكر . والشيعة تعنف

---

(١) يروى مالك في الحلقة ما يرويه عنه الشافعي في الرسالة ويرويه هو في الموطأ : عن عمه أبي سهيل عن جده عن طلحة بن عبيدالله .

العنف كله على أبى بكر وعمر . إلا فرقة زيد بن على «زين العابدين» بن الحسين بن على . فقد كان يحسن القول فى الشيخين : «أبى بكر وعمر» . كل أولئك ومالك فقيه المدينة — وفقه المدينة هو فقه أبى بكر وعمر وأبنائهما فى المقام الأول . حتى أستاذه جعفر الصادق إمام الشيعة — ولده أبو بكر مرتين !

والمذهب الشيعى لا يقبل إلا السنة التى يرويها رجاله ، وهو منحى مناقض تماماً لمنهاج أهل المدينة . وكذاه فى شدة المناقضة الرأى فى الخلافة والخلفاء

فإذا انضاف إلى ذلك صلة مالك بعثمان — وبنى مروان ، تاريخياً وعلمياً ومن أجل السنة ، فلا عجب أن ينسب راو إلى مالك أنه سئل عن خير الناس فقال : أبو بكر قيل فمن ؟ قال : فعمر . وفى رواية أنه قيل فمن ؟ قال : فعثمان ، وفى رواية أخرى أنه قال : الخليفة المقتول ظلماً عثمان . وفى رواية أخرى أن أحد السائلين مرة كان علوياً فلما قال ذلك قام وقال : لا أجالسك أبدا . وأن مالكا قال له : فالخيار لك .

ولا تقف الروايات فى هذا الاتجاه ، فثمة روايات مبعدة منها : أنه بعد أن ذكر عثمان كان يقول : هنا وقف الناس . . بل إن منها هو أبعد : أنه كان يعلل ذلك بقوله : وليس من طلب الأمر كمن لم يطلبه .

ومناقشة هذه الروايات فى صدد على رضى الله عنه — مجملة أو مفصلة ليست مناقشة لمالك ، إلا أن تصح الروايات عنه . أو تسلم واحدة منها ، فتجدر بالجدل .

ومن المسلمات أن بيعة عثمان كانت بترشيح عمر فبايعه المسلمون . وعلى فى الطليعة . فهو اختيار إسلامى شامل . فيه بطل الإسلام على . . .

أما القول بأن من طلب الأمر ليس كمن لم يطلبه . فكلمة حق يراد بها باطل . فعلى قد طلب الأمر وحارب عليه قياماً بواجب الدين . بعد إذ صار أميراً للمؤمنين ، عليه أن يرجع إلى الجماعة من خرجوا عليها . وهم بنو أمية ، الشاغبون عن غير فهم ، أو عن طموح ، أو عنهما معاً . وطلحة والزبير بعد إذ بايعاه .

وأما قبل تمام البيعة لعثمان فقد كان الستة مرشحين وليسوا طالبين بالمعنى

الذى يؤخذ على أحد . فإنما كانوا الستة الذين مات النبى وهو عنهم راض، وكلفهم عمر تكليفاً بتنصيب خليفة للمسلمين من بينهم . وكانوا على الهدى ، لا على الهوى ، أجمعين .

ولئن صار الأمر إلى معاوية فإنما صار إليه بعد أن قتلت الفئة الباغية من الخوارج أمير المؤمنين ، كما قتلت عمارا الفئة الباغية ـــ كحديث الرسول ـــ وكانت فى جند معاوية فى موقعة صفين . . أما وقد بويع لمعاوية ورضى الجمهور فهو خليفة بويع له . وكان حكمه ، فيما عدا بعض اجتهاده بما صنعه لأجل دولته ووراثة الملك ، حكماً فى مصلحة الأمة. ومعاوية هو معاوية : واحد من الكبار . . كاتب النبى وصهره . وعامل عمر وعثمان ، رضى الله عنهما وعنه . وذلك كله لم يمنع الشاعر : أو غيره ، أن يقول بحق : وأين معاوية من على !

كل أولئك جدل فى الروايات ، أما جدال مالك نفسه فى المسلم من فقهه. وفقهه هو فقه عمر بن عبد العزيز الذى يقول : « تلك دماء طهر الله منها يدى فلا أحب أن أخضب بها لسانى » .

وإنما خضب بها لسانهم قوم عموا وصموا . سعياً وراء السلطة ، ولى بعضهم الخلافة بانتسابهم إلى أهل البيت . ولقد تولى كبره من بينهم أبو جعفر فى كتابه إلى محمد بن عبد الله بن الحسن :

« وأما ما فخرت به من على وسابقته فقد حضرتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة . ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه. وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها . ولم يروا له حقًّا فيها . أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان . وقتل عثمان وهو له متهم . وقاتله طلحة والزبير . وأبى سعد بيعته . وأغلق دونه بابه . ثم بايع معاوية بعده . ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفرق عنه أصحابه » .

مع المهدى :

فى سنة ١٥٨ حج أبو جعفر فمات عند بئر ميمون بمكة وتولى المهدى الخلافة (١٥٨ — ١٦٩) .

ورث المهدى عن أبيه علمه. لكنه امتاز عنه بالسخاء والسماحة. وكان المهدى يزور مالكا. ويقعد فى حلقته. ويبعث والديه الهادى والرشيد « موسى وهرون » ليسمعا كتبه. وأمر واليه على المدينة كمثل ما أمره أبوه أن يكون مالك مرجعه.

وكان المنصور قد بعث إلى مالك يقول: « إن رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد عمال الحجاز فى ذاتك. أو ذات غيرك، أو سوء سيرة فى الرعية، فاكتب إلىّ. فأنت خليق أن تطاع ويسمع منك » فصار مالك بين الحين والحين يقضى ويفتى فى المشاكل. ويجلس عند الوالى فيعرض عليه السجن فيقول: اقطع هذا واضرب هذا مائة. وهذا مائتين. واصلب هذا...

وصى مالك المهدى يوماً فقال: « أوصيك بتقوى الله وحده والعطف على أهل بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وجيرانه. فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: المدينة مهاجرى. وبها قبرى. وبها مبعثى. وأهلها جيرانى. وحقيق على أمتى حفظى فى جيرانى فمن حفظهم كنت له شهيداً أو شفيعا يوم القيامة ».

ووعظ والى المدينة بقوله: افتقد أمور الرعية فإنك مسئول عنهم قال عمر ابن الخطاب: « والذى نفسى بيده لوهلك حمل بشاطئ العراق ضياعاً لظننت أن الله يسألنى عنه يوم القيامة ». ووعظ والياً آخر بقوله: « فلتكن رحمنا الله وإياك فيما كتبته إليك وما استرعاك الله من رعيته فإنك المسئول عنهم صغيرهم وكبيرهم. وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " ».

وذكروا أن مالكا لما أخذ فى تدوين كتبه ووضع علمه قدم عليه المهدى فأتاه بالموطأ، فأمر المهدى بانتساخه. وقرئ على مالك. فلما تمت قراءته أمر له بأربعة آلاف دينار ولابنه بألف.

وفى سنة ١٦٠ فرّق المهدى فى الحجاز ثلاثين مليون درهم ووزع مائة وخمسين ألف ثوب.

ولما قدم المدينة زائراً قبر النبى سنة ١٦٧ دخل عليه مالك فحضه على الإحسان إلى أهلها. وحدثه بفضلها وفضائلهم. وبقول رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « أمرت بقرية تأكل القرى. يقولون يثرب . تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد » . ثم قال يا أمير المؤمنين أفليس هؤلاء أهلاً أن يعانوا على الصبر عليها ؛ وعلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال المهدى : والله يا أبا عبد الله حتى لا أجد إلا مثل هذا « ومد يده ليأخذ من الأرض شيئاً فلم يجده » ثم قال صدقت وبررت وحضضت على الرشد فأنت أهل أن يطاع أمرك ويسمع قولك . وأمر بخمسة أبيات مال « والبيت عندهم خمسمائة ألف » وأمر مالكاً أن يختار من تلامذته رجالاً يقسمونها على أهل المدينة ويؤثرون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأهل بيت أبى بكر وعمر وعثمان . ثم أهل بيوت المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان ففعل . فأغنى المدينة عامهم ذلك .

فإذا قدم مالك على المهدى لم يجلس بين الزحام بل ينادى يا أمير المؤمنين . أين يجلس شيخك مالك؟ فيقول المهدى: عندى يا أبا عبد الله . فيتخطى الإمام الناس حتى يرفع المهدى ركبته اليمنى ويشركه فى مجلسه . فإذا جاء الطعام طعم معه دون وضوء . لأن الوضوء قبل الأكل ليس من الأمر المعمول به فى المدينة . فيقول أمير المؤمنين للغلام الذى جاء بالماء : ارفع يا غلام .

ويطلب مالك ماء فيجاء به فى كوب له حلقة فضة . فيأبى أن يشرب . فجىء بكوز فخار فشرب . فأمر المهدى بالحلقة فخلعت .

ويجتهد المهدى ليقنعه بتقديم الموطأ ليكون مرجعاً وحيداً للأمة فينهاه مالك فينتهى ، كمثل أبيه ، ويستمع إلى وصية مالك فى البر بأهل الحجاز فيبلغ بها منتهى غايتها : أن يصهر إلى أهل المدينة ويتخذ لنفسه منها حرساً خاصاً .

كانت صلة مالك بالولاة والخلفاء حماية للمدينة ، من ظلم الولاة وإهمال الخلفاء . ولذلك لم يكف عن التدخل فى أعمالهم . قيل له إنك تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويجورون . قال : « رحمك الله . وأين التكلم بالحق » .

وكان يحمل على نفسه وهو مريض أو ضعيف فيذهب إلى الأمراء فى حين يدع الخروج إلى المسجد . ويقول لمن يسأله فى ذلك: « أما تركى الخروج إلى المسجد

فإنى ضعفت عن ذلك وأما إتيانى الأمراء فبالحمل منى على نفسى . فإنه ربما استشير بعض من لا يستشار » .

ويقول عن الولاة : « لولا أنى آتيهم ما رأيت للنبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المدينة سنة معمولاً بها » .

والرسول يقول : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

ومالك رضى الله عنه يقول : « على كل مسلم جعل الله فى صدره شيئاً من العلم والفقه أن يدخل إلى كل سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر . ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره . لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك فإذا كان فهو الفضل الذى لا بعده فضل » .

* * *

ويمسى عمل مالك فى إعظام مجلس العلم درساً للأمة . والفقهاء والأمراء فيتعلمون أن الفقيه فى حلقته فوق الأمير . قال قائل : كنت عند شريك فأتاه بعض أولاد المهدى فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث فلم يلتفت إليه وأقبل علينا . ثم عاد الأمير لمثل ذلك وقال : أتستخف بأولاد الخلفاء ؟ قال شريك : لا . ولكن العلم أجل عند الله تعالى من أن أضعه . فجثا على ركبتيه . قال شريك : هكذا يطلب العلم .

مع الرشيد :

خلف المهدىَّ الهادى ثم الرشيد — فى ليلة مات فيها خليفة هو الهادى وولد فيها خليفة هو المأمون وتولى فيها خليفة هو الرشيد .

وجلس الرشيد فى حلقة مالك هو ووليا عهده الأمين والمأمون . . . واستفاد المأمون من مالك علماً وسماحة . قيل إنه صعد المنبر يوماً فأورد نحواً من ثلاثين حديثاً بسندها . ثم نزل وقال لقاضيه يحيى بن أكثم : كيف رأيت مجلسنا ؟ قال أجلّ مجلس . قال ما رأيت له حلاوة — إنما المجالس لأصحاب الحلق والمنابر . . . وكان يقول عن نفسه لو عرف الناس حبى للعفو لتقربوا إلى بالجرائم

ويصلى شكراً لله الذى رزقه العفو عن الفضل بن الربيع إذ كان معواناً لأخيه الذى حاربه « الأمين » .

قال يحيى بن أكثم : «كان يحلم حتى يغيظنا » مر به ملاح فأشاروقال : أتظنون أن هذا نبيل وقد قتل أخاه الأمين ؟ فلم يزد المأمون على أن ابتسم قائلا ما الحيلة حتى أنبل فى عين هذا السيد الجليل ؟

وكأن الرشيد يستفتى مالكا مع أن بين يديه أبا يوسف ومحمدا صاحبى أبى حنيفة ومع جلال شأنهما عنده . سأله فى يمين حنث فيها فقال مالك : عليك صيام ثلاثة أيام : قال الرشيد : يقول تعالى : (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) فهل أنا معدم ؟ وكان الفقهاء الآخرون قد أجمعوا رأيهم على أن عليه عتق رقبة . قال مالك : يا أمير المؤمنين كل ما فى يدك ليس لك . فعليك صيام ثلاثة أيام . فصام .

والتسبيب ، على هذا الوجه — تذكير حسن التعبير للرشيد . للقصد فى أموال المسلمين . وعطاياه أساطير التاريخ . وفيه فى الوقت نفسه دروس للمفتين والواعظين ليبلغوا باللطف ما لا يبلغه العنف .

وينتقل الفقه الدقيق من مالك إلى تلاميذه فنرى يحيى بن يحيى فى الأندلس يسير فى الدرب ، فيبعد ، فيفتى ملكها إذ وقع على جارية له فى رمضان ، فأفطر ، بأن يصوم ستين يوماً متتابعة . ولم يفت بجواز العتق مع أن النص يجيزه للمفطر . فنقل يحيى الخيار بين العتق والصوم من المفطر إلى المفتى! فلما نوقش قال : لو فتحنا له باب العتق لفعل كل يوم وعتق .

ولا يقلل الفقه فى الفتوى حدة النقد لها . قال قوم إنه استعمل المصلحة ضد صريح النص . وقال آخرون : إنه يسد أبواب الترخيص . ودفع الحرج أصل قوى قوة النص وأيدها آخرون بأنه أفتى بها تعزيراً للملك .

وفى جيل لاحق سيقول الخليفة الواثق (٢٣٢) لقاضيه أحمد بن أبى دؤاد : حنثت فى يمين فما كفارتها ؟ فيقول مائة ألف دينار فيقول الوزير ابن الزيات :

ما سمعنا بهذا فى الكفارات . ويقول القاضى : تلك كفارة مثله فى بعد همته وجلالة قدره ... ويقول الخليفة : تحمل إلى أبى عبد الله « ابن أبى دؤاد » يتصدق بها .

* * *

كان مالك ينصح الرشيد بمثل قوله له : « لقد بلغنى أن عمر بن الخطاب كان فى فضله وقدمه ينفخ لهم عام الرمادة تحت القدور حتى يخرج الدخان تحت لحيته وقد رضى الله منكم بدون هذا » .

وأصدر الرشيد أمره من بداية عهده كأبيه وجده إلى واليه على المدينة ، سنة ١٧٣ ، محمد بن عبد الله بن سليمان ألا يقطع أمراً دون مالك .

وقدم المدينة وال جديد وأتاه مالك فيمن أتى . فاستدناه وأكرمه ؛ فلما نهض الإمام نهض الناس معه . قال الوالى : تنهض يا أبا عبد الله دون وصية ؟ فقال له مالك – يعلمه الحلم والحيطة ويوصيه بالمشورة : إذا عرض لك أمر فيه كسر فاتئد. وعاير على نظرك بنظر غيرك . فإن العيار يذهب عيب الرأى كما تذهب النار عيب الذهب .

ومن قبل ذلك رأى مالك عبد الملك بن صالح والى المدينة يخرج إلى المسجد فى رايات يوم العيد فنهاه لأنها ليست السنة . فانتهى .

لقد جاوز مالك الثمانين من حياة شهدت بضع عشرة خليفة ، ودولتين عظيمتين ، وواحداً من الخمسة الراشدين ، وأمسى مفخرة للأمة والدولة طوال حكم الخلفاء الثلاثة الذين لم يتتابع مثلهم ثلاثة فى أى دولة. وفيهم يقول الحافظ الذهبى : « وأين مثل أبى جعفر – على ظلم فيه – فى شجاعته ، وجرأته وكمال عقله وعلمه ومشاركته فى الأدب . ووفور هيبته . ثم ابنه المهدى فى سخائه وكثرة محاسبته وتتبعه لاستئصال الزنادقة ، وولده الرشيد هرون فى جهاده وحجه ، وعظمة سلطانه – على لهو ولعب – لكن كان معظماً حرمات الدين قوى المشاركة فى العلم نبيل الرأى محبًّا للسنن» .

أما الرشيد فيقول عن مالك :« ما رأيت فى العلماء أهيب من مالك ولا أورع من الفضيل» [١] .

هكذا يتجلى لنا إمام المدينة ، إماماً للفكر فى الأمة كلها ، وحاكماً على الحكم فى المدينة نفسها . فى عهود الخلفاء الثلاثة العظماء قرابة نصف قرن ، نشر فيه ألوية السنن ، ورفع رأس العلم فى وجه السلطة . وعلم فيه الولاة العدل . وحمى تراث المدينة المنورة وأهلها فجعلها منطلقاً للفقه . وجاء أهل الحجاز

---

(١) تاقت نفس الرشيد فى إحدى حجاته إلى رؤية الفضل بن عياض (١٨٧) فقصد إليه مع عبد الله بن المبارك . قال عبد الله : إنه إن عرفك لم يأذن لك عليه. فقدمه له على أنه رجل من قريش له مكانة من العلم والفقه . فتحدثوا ساعة ثم قال هذا هرون الرشيد أمير المؤمنين فنظر إليه الفضل ساعة ثم قال : هذا الوجه الجميل يسأل غداً عن أمة محمد ويؤاخذ بها . ثم جعل يعظ الرشيد حتى بكى . وراح الفضل يذكر مثالب الرشيد ومثالب بيته فقال الرشيد : يا أبا الحسن أما لك ذنوب تخاف أن تهلك بها إن لم يغفرها الله؟ قال بلى . قال الرشيد : فما جعلك أحق منى بأن ترجو المغفرة ؟ ومع ذلك فإنى والله ما كنت لأخير بين شىء وبين الله إلا اخترت الله تعالى على ما سواه .

ثم قام الرشيد للخروج . فقال الفضل : يا أمير المؤمنين إنى أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا . قال الرشيد : أجل إنه ما قلت .

وقدم الرشيد العراق فكان أول ما ابتدأ فيه النظر أن كتب إلى الأمصار كلها ليكتبوا : ١ - من التزم الأذان فى ألف من العطاء - ٢ - ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم ، وعمر مجالس الأدب فى ألفى دينار من العطاء - ٣ - ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه فى العلم واستبحر فى أربعة آلاف من العطاء . قال ابن المبارك فما رأيت عالماً ولا قارئاً ولا سابقاً للخيرات ولا حافظاً للحرمات فى أيام بعد أيام الرسول عليه السلام وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم فى زمن الرشيد . لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين . ويستبحر فى العلم والفقه ويروى الحديث ويجمع الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة .

وهذا العهد وما بعده هو الذى يقول فيه « نيكلسون » : وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها . أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية لم يتعهدها الشرق من قبل . حتى لقد بدا الناس جميعاً ، من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأناً ، طلاباً للعلم ، أو على الأقل أنصاراً للأدب ، وفى عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعياً وراء موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتفقهين .ثم يصنفون ، بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات. التى هى أشبه بدوائر المعارف والتى لها أكبر الفضل فى إيصال العلوم المدنية إلينا. بصورة لم تكن متوقعة .

بأرزاقهم التى بلغت أكثرها فى عهد المهدى والرشيد[1] فكان حقيقاً عليها وخليقاً به أن يحمل اسمها فيقال له إمام دار الهجرة .

* * *

ولما كانت سنة ١٧٤ خرج الرشيد حاجاً فقدم المدينة زائراً قبر النبى فسمع الموطأ من مالك ولم يتخلف أحد من فقهاء الحجاز والعراق والشام واليمن . إلا وقد حضر الموسم مع الرشيد وسمع من مالك موطأه .

قال مالك للرشيد فى بعض مجالسه : « إن أباك يا أمير المؤمنين بعث إلىّ فى هذا المجلس كما بعثت إلىّ . وحدثته بما حدثتك به فى شأن أهل المدينة وما يصيرون إليه من البلاء وشدة الزمان وغلاء الأسعار صبراً على ذلك . واختياراً لجوار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم » .

قال هرون : ذلك أبى وأنا ابنه وسوف أفعل ما فعل . وأمر لأهل المدينة بعشرة أبيات مال ، أى ضعفى ما أمر به المهدى .

قالوا : بعث الرشيد حاجبه الربيع بن يونس إلى مالك بكيس مختومة فيها ألف دينار ثم رجع إليه الربيع يقول : إن أمير المؤمنين يحب أن تعاد له إلى مدينة السلام . ويوجس خيفة مالك . ويقول : إن الكيس على حاله لم أحركه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

وأرسل الرشيد إلى مالك : ما تقول فى هذا المنبر ، فإنى أريد أن أنزع ما زاد فيه معاوية بن أبى سفيان . وأرده إلى الدرجات الثلاث التى كانت بعهد الرسول صلى الله عليه وسلم . فقال مالك : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه من عود ضعيف قد تخرّ منه المسامير . فإن نقضته تفككك وذهب أكثره . ومع هذا إنه يا أمير المؤمنين لو أعدته إلى ثلاث درجات لم آمن عليه أن ينتقل عن المدينة . يأتى بعدك خليفة فيقول أو يقال له : ينبغى لمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون معك حيث كنت ، فإنما المنبر للخليفة . فينتقل كما انتقل من المدينة كل

---

(١) فى سنة ١٨٦ حج الرشيد وعلق فى الكعبة كتاب ولاية العهد لبنيه الثلاثة . الأمين فالمأمون فالمؤتمن وفرق ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار .

ما كان بها من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم . ما أعلم أنه ترك له عليه الصلاة والسلام بها لا نعل ، ولا شعر ، ولا فراش ، ولا عصا ، ولا قدح ولا شيء مما كان هنا من آثاره إلا وقد انتقل . . . وأطاع الرشيد الإمام . وكان ذلك رحمة من الله للمدينة وأهلها . وتثبيتاً لمنبر الرسول بين أظهرهم .

وكان الرشيد يصحب أبا يوسف. فسأله أن يجمع بينهما ليحدثه في الفقه وأنف مالك وتنزه عن ذلك . وقال لهارون : ها هنا من فتيان قريش من يبلغ حاجة أمير المؤمنين ويخصمه فيما يتكلم به ويذهب إليه . وسر الرشيد أن يضاف ذلك إلى قريش . والرشيد منها . فقال: من هو؟ قال : المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي .

قال المغيرة لأبي يوسف : كلمني بما بدا لك أجاوبك .

قال أبو يوسف : يا أمير المؤمنين إن هؤلاء — يعني مالكاً وأصحابه — يقضون بغير ما في كتاب الله . يقول الله عز وجل: (وأشهدوا ذوى عدل منكم) ؛ ويقول: (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) وهؤلاء يقضون باليمين مع الشاهد . ولا نسمع أن الله تعالى ذكر إلا شاهدين . أو أربعة شهداء . ولم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قضى باليمين مع الشاهد .

قال المغيرة : قضى به النبي صلى الله عليه وسلم . وقضى به عليّ بالكوفة .

قال أبو يوسف : أنا أكلمك بالقرآن وأنت تكلمني بأفعال الناس ؟ ! تعرفني بهذا وبما قضى به علي وغيره ؟

قال المغيرة : فأنت كافر بنبي قضى باليمين مع الشاهد . أو مؤمن به ؟ فسكت أبو يوسف . وأمر الرشيد للمغيرة بألف دينار .

وربما عرض الرشيد ولاية قضاء المدينة على المغيرة في هذه المرة أو في زيارة تلت هذه الزيارة . ورفض المغيرة أن يلي القضاء . وجائزته أربعة آلاف دينار . قائلاً : يا أمير المؤمنين يخنقني الله أحب إليّ من القضاء . فقبل رفضه وأجازه بألفي دينار .

* * *

كان الرشيد يحج عاماً ويغزو عاماً . وربما روعه الخطر الداخلى أوالخارجى فطلب — خوف الفتنة — إلى مالك الامتناع عن حديث معاوية والسفرجل . ونسى الرشيد أنه يطلب الكف عن تدريس السنة إلى إمام السنة . وهيهات أن يمتنع .

وكأنما أنسى الشيطان الرشيد أن السنة وإعلانها والدفاع عنها مهمة حياة إمام دار الهجرة . فكيف إذا نهته السلطة أو الخليفة ! إنه عندئذ يكون الجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمته وليس مجرد علم أو تعليم .

قال يعيش بن هشام بن الخابور : كنت عند مالك إذ أتاه رسول الرشيد ينهاه أن يحدث بحديث معاوية فى السفرجل . فتلا قوله تعالى : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات . . .) إلى آخر الآية ثم قال والله لأخبرن بها فى هذه العرصة ،

وحدث فى جهارة ودوى :

حدثنا نافع عن ابن عمر قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدى إليه السفرجل فأعطى أصحابه واحدة واحدة . وأعطى معاوية رضى الله عنه ثلاث سفرجلات وقال : القنى بهن فى الجنة .

ولو قد أصيب مالك كما أصيب قبل ، لما ضروه إلا أذى . والأذى بعض أبواب المغفرة . والرسول يقول : « ما من مسلم يصيبه أذى إلا تحاتت عنه خطاياه ، كما يتحات ورق الشجر » .

ويقول للصحابة وهم يتدارسون العلم بمسجد قباء : « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا » وهو درس مطلوب أن يعلمه الإمام . وإنه لأبلغ تدريساً إذا جاهد الإمام أو أوذى فى سبيل علمه . وما أجل الدروس إذا علمها للخليفة .

فى هذه الواقعة الأخيرة . يمكن تحصيل حياة مالك ومهمته فى ثلاثة أرباع قرن فى المدينة وفى الدنيا : لقد كان « حارس القلعة » التى يحتمى بها المسلمون أو « حامى المنارة » التى يستضيئون بها على مدار القرون .

الباب السابع

إمام المسلمين

« إذا وجدت الرجل يبغض مالكا »
« فاعلم أنه مبتدع »
(أحمد بن حنبل)

بلغ إمام المسلمين فى حياته أمله ، إذ وطأ العلم بالسنة ، وظهرت آثاره وهو حى ، فى الأئمة . وانتشر الذين تلمذوا له انتشار الشعاع فى شتى الأصقاع ، من شرق وغرب ، فمدوا أسباب فضله إلى الزمان كله .

والإمام يهدى بالقدوة ، من حياته وصفاته ، وقوله وعمله . ولقد ملأت حلقة مالك وسيرته أرض الإسلام علماً وهداية . كما ملأتها تآليفه وفى طليعتها الموطأ . ورسالته إلى الليث بن سعد إمام مصر فى عصر مالك . ورسالته فى الرد على القدرية كتبها إلى ابن وهب بمصر أيضاً . وكتاب فى النجوم وحساب مدار الزمن ومنازل القمر . ورسالته فى الأقضية فى عشرة أجزاء كتبها إلى بعض القضاة . ورسالته إلى أبى غسان محمد بن المطرف وهو ثقة من أهل المدينة . وكتابه فى تفسير غريب القرآن يرويه عنه خالد بن عبد الرحمن المخزومى . ومنها كتب أخرى . مثل ما ذكر عن أقواله فى كتاب الاستيعاب لأقوال مالك ، أن أجزاء منه حملت إلى « الحكم » أمير الأندلس فأمر بتكملتها فصار الكتاب مائة جزء . فهو عمل من أعمال تلاميذه على أساس فقهه . ومنها ما نسب إليه مثل كتاب يسمى السير يرويه عنه ابن القاسم ، ومجموعة مسائل تحوى سبعين ألف مسألة فى كتب كانت عند أبى العباس السراج النيسابورى . ومنها ما لم تسلم نسبته إليه مثل رسالته إلى هارون الرشيد فى المواعظ والآداب . حدث بها كثيرون وأنكرها آخرون . وحلف أصبغ بن الفرج تلميذ ابن القاسم ، أنها ليست من وضع مالك .

على أن مؤلفات مالك ، بل موطأ مالك ، على جلال قدره ، واتساع نشره ، وشموله وسبقه ، بقرن أو أكثر ، على الكثير من صحاح السنن ومسانيدها ، وسبقه بيقين كتب الحنفية الأولى التي دونها محمد وأبو يوسف ، كل أولئك لم ينشر علم مالك قدر ما رفع اسمه ونشر علمه تلامذته بحلقاتهم وتأليفهم وتأليف تلاميذهم الذين نقلوا عنهم .

والأئمة لا يقطعون كل أشواط العلم دأباً ولا يلقون العلماء طراً . وإنما يشقون طرائق قدداً . ويفتحون العالم العلمي للناس . كالذين يكشفون أرض الله لعباده ويدعونها لهم يلتمسون فيها مراغماً وسعة .

وكان طبيعياً أن نلقى من الرواة عن مالك أكبر عدد من الرواة ، عن إمام ، لأن السنة الطهور مادته . والرواة يرتوون منها ويروون ، وكان مفهوماً كذلك أن ينفع مالك أساتذته بعلمه. فيكون أول إمام يروى عنه أساتذة له كابن شهاب وربيعة ويحيى بن سعيد الأنصارى. وموسى بن عقبة وهشام بن عروة. وأن يكثر الرواة عنه من قرنائه كأبي حنيفة . والشافعى . وأبي يوسف ومحمد. ويلتحق بهذين أتراب لهما مثل الحسن بن زياد ووكيع بن الجراح . ونوح بن مريم . تلاميذ أبي حنيفة المقربين . وأساتذة الحجاز كابن جريج — أستاذ مكة وأستاذ الأسود الزنجى شيخ الشافعى . وكابن أبي ذئب ، قرين مالك فى المدينة ورقيب العصر . على الخلفاء والولاة . والثورى وحماد بن سلمة إمامى العراق — والأوزاعى إمام الشام . والليث بن سعد إمام مصر .

أما الرواة والتلاميذ والحفظة والنقلة الآخرون فقد أبلغهم القاضى عياض ألفاً وثلثمائة ، وأبلغهم الخطيب البغدادى ألفاً إلا سبعة . . . منهم الخلفاء الستة : أبو جعفر والمهدى والهادى : والرشيد والأمين والمأمون . ومنهم أحفاد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم عيسى بن زيد والحسين بن زيد من حفدة على. ومحمد ابن عبد الله من حفدة أبي بكر . وعمر بن محمد من حفدة عمر . ومنهم حفدة له أو لزملائه مثل عمر بن حماد بن أبي حنيفة . وعثمان بن محمد بن ربيعة الرأى

ومنهم رجال من آسيا ومن أوربا ومن أفريقية . ومن مكة والمدينة ومن الكوفة وبغداد . ومن خراسان ومصر ، والقيروان والأندلس .

وكان طبيعيًّا أن نجد بين تلاميذه محمد بن إدريس الشافعى ، ومحمد بن الحسن الشيبانى وهما إمامان يدوران فى مدار لكل منهما — ولكنهما يسطعان فى أفق مالك نفسه .

وتلاميذ مالك يكشفون لنا حقيقة تاريخية : أن الرجال تنشر علم الأئمة أكثر مما تنشر الكتب . ولقد يكون لهم مثل ما للإمام من فضل فى المذهب .

عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة :

وإذا ذاع فى التاريخ أن أبا يوسف ومحمدا وأبا حنيفة أقران ، أونعت الأولان بأنهما « الصاحبان » فإن لعبد الرحمن بن القاسم فى مذهب مالك نفس المنزلة . وابن حزم الأندلسى يقول : إن كثيراً من المنقول عن أصحاب مالك هو رأى ابن القاسم . واستحسانه وقياسه . وابن رشد — الجد — يقول فى (المقدمات الممهدات) إن « المدونة » موضعها من الفقه موضع أم القرآن من الصلاة . والمدونة قد صدرت عن إجابات لابن القاسم بآراء مالك .

ولد عبد الرحمن بالفسطاط — وجده ممن أعتقهم النبى من الأسرى . جاء إلى مصر مع عمرو ، وكان الفاتحون يجعلون لكل بطن منهم راية تشير إليهم فعد جده من أهل الراية . صحب عبد الرحمن مالكا عشرين سنة وانتفع به أصحاب مالك بعد موت الإمام . وأخذ أسد وسحنون عنه إجاباته على«المدونة» . وروايته عن مالك أرجح الروايات فى المذهب . قال فيه النسائى : « ابن القاسم رجل صالح ثقة . سبحان الله ما أحسن حديثه وأصحه عن مالك بن أنس . ولم يرو أحد الموطأ عن مالك أثبت من ابن القاسم وليس أحد من أصحاب مالك عندى مثله . قيل فأشهب؟ قال ولا أشهب . ولا غيره . . وهو أعجب من العجب. والفضل والزهد وحسن الحديث يشهد له » .

ويحيي بن يحيي يقول فيه : كان ابن القاسم أعلمهم بعلم مالك . وآمنهم عليه .

توفى سنة ١٩١ ودفن بالقرافة الصغرى بالفسطاط .

* * *

ابن وهب :

سبق ابن القاسم فى التلقى على مالك . فهو قد ولد بمصر سنة ١٢٥ قبل ابن القاسم ورحل إلى مالك سنة ١٤٨ ولازمه وتودد عليه حتى مات مالك سنة ١٧٩ وكان مالك يكتب إليه « إلى عبد الله بن وهب فقيه مصر » أو إلى أبى محمد المفتى . ولم يكن يفعل ذلك لغيره . كان يسمى ديوان العلم . ينظر إليه مالك ويقول : « أى فتى لولا الإكثار » وفى تلميذيه يقول مالك : « ابن وهب عالم وابن القاسم فقيه » . أما ابن وهب فيقول فى ابن القاسم : « إن أردت هذا الشأن (يعنى فقه مالك) فعليك بابن القاسم فإنه انفرد به وشغلنا بغيره »[1] مات سنة ١٩٧ .

* * *

أشهب بن عبد العزيز :

ولد سنة ١٤٠ وتوفى سنة ٢٠٤ عقب وفاة الشافعى . يروى عن مالك كتبه وسننه . وموطأه . وفيه يقول الشافعى : « ما رأيت أفقه من أشهب لولا طيش فيه » وابن قيم الجوزية يراه أفقه أصحاب مالك على الإطلاق .

* * *

عبد الله بن عبد الحكم :

سمع مالكاً والليث وابن لهيعة وسفيان بن عيينة . وصحب الشافعى ، وأكرم وفادته إلى مصر ، وجعل ابنه محمداً يلازمه . وإليه أفضت رياسة المذهب بعد

---

(١) ولابن وهب مصنف مشهور باسمه باسم جامع ابن وهب عثر عليه حديثاً فى مدينة أدفو بمصر ويعد من أقدم المخطوطات العربية فى العالم وهى نسخة مكتوبة على ورق البردى .

موت أشهب فبقى فيها حتى وفاته . سنة ٢١٤ . وجده مولى رافع مولى عثمان ابن عفان . وبيته من أعلى بيوت العلم قدراً وذكراً وتضحية فى سبيل العلم بمصر . وقد رجع ابنه محمد إلى مذهب مالك بعد موت الشافعى . ومن بنيه عبد الرحمن أول مؤرخى الخطط بمصر ، وعبد الله وعبد الرحمن مدفونان إلى جوار الشافعى .

ولعبد الله مؤلفات فى مذهب مالك هى المختصر الكبير والأوسط والصغير . ويقال إن مسائل المختصر الكبير ثمانية عشر ألفاً وفى الأوسط أربعة آلاف وفى الصغير ألف ومائتان . وله روايته المشهورة فى التاريخ عن مالك فى سيرة عمر ابن عبد العزيز .

* * *

أصبغ بن الفرج :

رحل إلى المدينة ليسمع مالكاً فدخلها يوم مات فرجع إلى مصر يسمع ابن القاسم وأشهب وابن وهب واختص بابن وهب فصار كاتبه . ولما جاءت المنية أشهب قيل له من لنا بعدك ؟ قال عليكم : بأصبغ — فهو بهذا ملحق بشيوخه السابقين . وكان يعرف فقه مالك مسألة مسألة ، وكان أستاذاً للمزنى وللربيع قبل أن يقدم الشافعى إلى مصر . مات سنة ٢٢٥ .

وعن العلماء بالفسطاط ذاع علم مالك فى المشرق والمغرب .

* * *

عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة — الماجشون :

من بيت الماجشون موالى بنى تيم — تفقه عليه بالمدينة الأئمة مثل أحمد ابن المعذل وابن حبيب . توفى سنة ٢١٢ .

* * *

أسد بن الفرات :

ولد فى خيزان بديار بكر . سنة ١٤٣ وأصله من أبناء جند خراسان وانتقل إلى أفريقية وخرج إلى مالك سنة ١٧٣ فلما فرغ من مالك قال : زدنى . قال : حسبك

ما للناس . أو حسبك يا مغربى . إن أحببت الرأى فعليك بالعراق . فارتحل إلى محمد بن الحسن بالعراق ولازمه . وكان محمد يخصه بمجلس وحده .

ثم لزم ابن القاسم بمصر وكان يقول فيه : أيها الناس إن كان مالك قد مات فهذا مالك . وكان قد أخذ أسئلة عن محمد بن الحسن فوجهها إلى ابن القاسم وما زال يسأل وابن القاسم يجيب حتى دون ستين باباً من العلم سماها (الأسدية) فاستنسخه أهل مصر إياها فرفض فشكوه ، وأيده القاضى . ثم أمكنهم منها برجاء خاص من القاضى فنسخوها .

وانتقل أسد إلى القيروان وبعث إليه ابن القاسم ليعيد النسخة التى نسخها فأبى وأسمعها الناس ومنهم (سحنون) . واحتال سحنون فنسخها ورجع بها إلى ابن القاسم سنة ١٨٨ فرجع ابن القاسم عن بعضها وبعث إلى أسد ليراجع مدونته على (مدونة سحنون) . فاستشار أسد أصحابه فمنعوه كيلا يقال إن الأصل هو كتاب سحنون ، وقالوا إن سحنونا تلميذك وأنت أدركت مالكا وأصحاب أبى حنيفة . وقيل لم يقبل المراجعة لأنه تلقى الأسدية مشافهة والمشافهة أدق من الكتاب .

وأظهر أسد بالقيروان مذهب أبى حنيفة وعلا نجمه بالفضل والعلم والورع . واحترام الولاة له ؛ وجعله زيادة الله بن الأغلب قائداً للأسطول الذى فتح صقلية . فكان أول قاض جمعت له قيادة الأساطيل والقضاء . توفى فى حصار سراقوسة سنة ٢١٣ . وقبره بصقلية من جزر إيطاليا واحد من قبور عظماء المسلمين فى أوربة .

سحنون : عبد السلام بن سعيد (١٦٠ — ٢٤٠) :

سمى سحنونا باسم طائر حديد النظر . لحدة نظره ، وأصله من حمص . رحل إلى المشرق سنة ١٨٨ فسمع المصريين الأربعة ابن القاسم وابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم . وسمع بالمدينة معن بن عيسى ومطرف بن عبد الله والمغيرة . وسمع بمكة من سفيان بن عيينة . ومن العراق عبد الرحمن بن مهدى ووكيع بن الجراح وحفص بن غياث . وحج مع ابن القاسم وابن وهب وأشهب فكان زميل

ابن وهب على راحلته . ثم قدم القيروان سنة ١٩١ فأظهر علم المدينة ورتب المدونة ومسائلها واحتج لبعض مسائلها بالآثار . من الموطأ الذى رواه عن ابن وهب . وذاعت المدونة بالمغرب وبالأندلس .

دعا ابن القاسم لسحنون حين دعا على أسد لرفضه تصحيح ما ورد فى « الأسدية » قال : اللهم لا تنفع أحداً بابن الفرات ولا كتابه فهجره الناس وعملوا بمدونة سحنون .

سئل أشهب من قدم إليكم من المغرب ؟ قال سحنون قيل له ؟ فأسد ؟ قال سحنون والله أفقه من أسد بتسع وتسعين مرة .

ويؤثر عن سحنون قوله : ما أقبح العالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيه فيقال هو عند الأمير أو الوزير أو القاضى فإن هذا وشبهه شىء من علماء بنى إسرائيل . لأنهم يحدثونهم بما يحبون من الرخص مما ليس عليه العمل . وقوله : رد دانق مما حرّم الله تعالى أفضل من سبعين ألف حجة يتبعها مثلها عمرة مبرورة . وسبعين ألف فرس فى سبيل الله وسبعين ألف بدنة للبيت وعتق سبعين ألف رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل .

قالوا : لأن رد الدانق رد مظلمة فهو واجب . وما عداه تطوع . والتطوع وإن كثر ، لا يقوم مقام الواجب وإن قل .

ولى سحنون القضاء سنة ٢٣٤ بالقيروان . فلم يأخذ أجراً . وكان الناس عنده يكتبون أسماءهم فى رقاع تجعل بين يديه ويدعوهم واحداً واحداً ، إلا أن يأتى مضطر أو ملهوف . وكان يضرب الخصوم — تعزيراً — إذا آذى بعضهم بعضاً بكلام .

على بن زياد « التونسى » :

سمع مالكاً والثورى والليث بن سعد وأسداً . قال فيه سحنون : لوكان لعلى بن زياد من الطلب ما للمصريين ما فاته أحد منهم . مات سنة ١٨٣ .

زياد بن عبد الرحمن :

الملقب بشبطون . سمع مالكا والليث وابن عيينة . وهو أول من أدخل الأندلس موطأ مالك . ثم تلاه يحي بن يحي . وأهل المدينة يسمون زيادا فقيه الأندلس مات سنة ١٩٣ .

عيسى بن دينار الأندلسى :

رحل فسمع ابن القاسم وانصرف إلى الأندلس فلم يتقدمه أحد فى قرطبة وكانت له الرياسة وكان أفقه من كل نظرائه بما فيهم يحي على جلاله وعلو شأنه . شيعه ابن القاسم عند انصرافه عنه ثلاثة فراسخ . وقال لمن راجعه : تلومنى أن شيعت رجلا لم يخلف بعده أورع منه ولا أفقه — توفى سنة ٢١٢ .

* * *

يحي بن يحي الليثى :

أصله من البربر. سمع زياد بن عبد الرحمن ورحل وهو ابن ثمان وعشرين إلى مالك سنة مات ، فسمع الموطأ منه إلا ثلاثة أبواب . ثم رحل إلى مكة ليسمع من ابن عيينة . ثم شد رحله إلى عبد الرحمن بن القاسم . وتفقه به . وعاد إلى الأندلس بعلم كثير . فأصبحت له الفتيا بعد موت عسى بن دينار . وبهما انتشر فقه مالك فى الأندلس وكان عمله فى دين الله من مستوى علمه . لم يل وظيفة للسلطان . لكن الوظائف كانت تملأ بمشورته .

وكان يحي يمثل السنة فى الدولة . . وهو معلم من المعالم فى تاريخ المذهب.

تكاد تتلاقى فى يحي كل أسباب المذهب من فقه مالك ذاته وابن القاسم ، ومن الموطأ الذى هو العلم ، إلى الفقه الأكبر الذى هو العمل ، ومن الإحاطة بالسنن

إلى الاجتهاد بالمصلحة — ومن السمو فى وجه السلطة إلى مسالمتها . وبهذا نشر مذهبه .

يقول ابن حزم الأندلسى (٤٥٦) عن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول فى القضاة فكان لا يلى قاض فى أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه . والناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به . على أن يحيى لم يل القضاء قط ولا أجاب إليه وكان ذلك زائداً فى جلالته عندهم وداعياً إلى قبول رأيه .

كانت هذه السلطة ليحيى فى عهد الحكم بن هشام ، ومن قبل الحكم كان أبوه هشام بن عبد الرحمن الداخل يحمل الناس على اتباع مذهب مالك لما سمعه من ثنائه عليه

والحميدى فى تاريخ الأندلس يوضح أثر سحنون فى نشر المذهب فى أفريقية والمغرب حيث يقول : «مذهبان انتشر أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب أبى حنيفة بالعراق لما ولى أبو يوسف قضاء القضاة بالعراق والمالكى بالأندلس . . . لما ولى القضاء سحنون بأفريقية . وهذا هو السبب فى اشتهار الموطأ فى بلاد المغرب» .

والمذاهب الجديدة أفكار وليدة أو طرائق لم تطرق بعد ، فهى بحاجة إلى حماية السلطة والاستعانة بأدواتها — وعلى هذا استطاع مذهب ثالث هو المذهب الشافعى أن ينشر أجنحته على مصر والشام وفى المشرق يوم صار مذهب الدولة الأيوبية ، وفى عصر السلطان محمود بن سبكتكين ووزيره نظام الملك . ولقد نشرت الدولة الشيعية التشيع — بالقوة — فى مصر ، فلما ذهبت ذهب معها .

* * *

تمسكت الأندلس بالمذهب تمسكها بعروة وثقى تجمعها بإمام المدينة . وهى لبعدها من المدينة كانت أحوج لعروة الولاء الفكرى التى تجمعها وإياها . «والاتباع» شعار الأمة الإسلامية . وهو أولى بدولة تنشأ فى أقصى أطراف اليابسة إلى الغرب .

وكانت الجفوة بين دولتى الإسلام فى الغرب بالأندلس . وفى الشرق ببغداد . جفوة موروثة مذ ثل العباسيون عرش بنى أمية . ومنهم عبد الرحمن الداخل الذى

وكان أهل الأندلس يعملون بالواضحة . والعتبية وكتب ابن رشد على العتبية . وكذلك كتب ابن الحاجب بمصر بعد زوال دولة الشيعة ما سمى بمختصر ابن الحاجب فأمسى كالبرنامج للمذهب .

ويقولون الدواوين سبعة : الأربعة السابقة والمبسوط للقاضى إسماعيل والمجموعة لابن عبدوس والمختلطة لابن القاسم وهى نفس المدونة بغير ترتيب لكنهم إذا قالوا : الكتاب ، فهم يقصدون المدونة .

* * *

وكان طبيعياً والإمام عالم كامل أن تظهر وتزهو فى آفاقه نجوم ذات أضواء خاصة ، فتنتج منها ثقافات عالمية لا تقتصر على الفقه وآية ذلك لنا اسمان يقرعان الأسماع فى الحضارة العالمية والعلمية .

ابن رشد (الجد) (٥٢٠) ابن رشد الحفيد (٥٢٠ — ٥٩٥) :

علمان من أعلام المذهب — أما الجد فهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد . زعيم فقهاء قرطبة ، والأندلس ، كلها فى عصره . قالوا كانت الدراية أغلب عليه من الرواية . ومن ثمار هذه الشجرة ابنه أحمد ، وقد ولى القضاء ، ثم ينع ولمع حفيده وسميه محمد بن أحمد بن محمد بن رشد . فلم ينشأ بالأندلس فى عصره مثله كمالا وعلماً . ومن أحسن تآليفه فى الفقه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) لكن التاريخ العالمى يسلكه فى سلك الفلاسفة العالميين الذين نقلت عنهم أوربة فبلغت عصر النهضة وعليه تعلم القديس توماس الأكوينى منهاج اتفاق العقل مع العقيدة وذاعت كتبه الفلسفية مترجمة فى جامعات أوربا جميعها فى العصور الوسطى .

ابن خلدون (٨٠٨)

درّس ابن خلدون فقه مالك فى الأزهر بالقاهرة . بعد أن طوف ببلاد الإسلام . وعاد إلى مسقط رأسه فى تونس . ثم نزح إلى مصر . والتاريخ العالمى يذكر ابن خلدون باعتباره واضع أسس علم الاجتماع الحديث .

* * *

إمام الأئمة :

هؤلاء كبار تلاميذ مالك تشارك أضواؤهم ضوء الشيخ فى انتشاره لكنهم لا يرجحون فى موازين مجده وانتشار أثره تلميذيه اللذين خالفاه فى طريقته .

الإمام الشافعى :

والشافعى يقف على رأس هذه الطائفة من الفحول . أن كان إماماً للمسلمين مثل أستاذه . وكان أستاذاً لإمام ثالث للمسلمين هو أحمد بن حنبل . ولمالك عليهما فضل العلم الذى تعلماه ، والسبق الذى سبقه ، قدر ما يسبق أول قرن آخره أو قدر ما يسبق الآباء البنين والحفدة .

والشافعى بانتسابه لمالك كالابن الذى يرزقه الشيخ فى خواتيم عمره . ومذهب الشافعى بتمامه استمرار لمذهب مالك فى الاحتجاج بالسنة ، ونصرتها بقواعده التى قعدها وعدم إطلاق العنان للرأى بغير قياس . أوضح حدوده . فصان السنن عن المجازفة ووسع دائرة الاحتجاج بها[1] .

* * *

محمد بن الحسن :

ومن قبل أن يجلس الشافعى إلى مالك سنواته العشر جلس محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة[2] إلى مالك سنوات ثلاثاً . فزاد المعرفة بالسنن عند أصحاب الرأى ، حول أساطين المساجد فى بغداد والكوفة وما تلاهما شرقاً فى صميم آسيا وقدم إليهم رواية كاملة من موطأ مالك . حافلة بطراز جديد من دراسات الفقه المقارن بين المذاهب .

ولم يك أبو يوسف (١٨٣) أقل إقبالاً واستفادة فلقد تلقى موطأ مالك عمن نقله إليه . فكان مثل محمد سفيراً بين المنهجين . . . وما هما إلا منهج واحد .

---

(١) الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول للمؤلف (ص ٢٦٣ – ص ٣٢٠) .

(٢) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام للمؤلف (ص ١٠١ – ١٠٦) الطبعة الرابعة.

منهج الاتباع . فى مذهب واحد . مذهب أهل السنة الذى يدور فى آفاقه مالك وأبو حنيفة ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل .

من حق محمد بن الحسن[1] أن يملى التاريخ هنية أمامه . فنى الأربعينات من القرن الثانى بدأ وضع الموطآت وجمع موطأ مالك . وفى حياة أبى حنيفة (١٥٠) دوّنت له كتب قليلة العدد محدودة الحجم . وحل أبو يوسف فى حلقة أستاذه بعد زفر بن الهذيل سنة ١٥٨ ، واستقضاه المهدى سنة ١٦٦ ثم صار قاضى قضاة الرشيد حتى مات سنة ١٨٣ . والذى آل إلينا من كتاباته يسير . لكن محمد ابن الحسن جلس مجلساً فى مسجد الكوفة وهو فى العشرين ، أى بعد عامين من وفاة أبى حنيفة . وأنفق فى تحصيل العلم ثلاثين ألف درهم ، نصفها على اللغة ونصفها على الفقه ، لتصبح خصيصته الكبرى هى استعمال اللغة العظيمة لكتابة الفقه الشامل فكان أول من دوّن فقه السنة تدويناً شاملاً متكاملاً ، وفصله أبواباً وفصولاً .

ولما انتقل إلى المدينة فى حكم المهدى يدرس الموطأ كان فى عنفوان اقتداره .

ولما رجع إلى الكوفة وبغداد روى فيهما موطأ مالك وعلق عليه تعليقه العظيم من كل وجه فأضاف جديداً إلى علوم العراق . حتى إذا مات سنة ١٨٩ كانت بين أيدى المسلمين كتب العراق وخلاصة كتب المدينة تتضمن فقهاً ضافياً فى المعاملات والعبادات وقوانين الحرب والسلم والسياسة الشرعية . وما إلى ذلك .

وحسب محمد ذلك . ليتراءى فى التاريخ الفقهى العالمى ، مؤلفاً فى كل علم ، ومعلقاً على كل مذهب .

---

(١) ولد محمد بواسط سنة ١٣٢ ونشأ بالكوفة حيث أبو حنيفة وطلب الحديث فسمع سماعاً كثيراً – وجلس إلى أبى حنيفة فغلب عليه الرأى وعرف به وتقدم فيه وقدم بغداد بعد موت صاحبه. واختلف إليه الناس وسمعوا منه الحديث والرأى. قال إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة : جلس محمد فى مجلس بالكوفة وهو ابن عشرين سنة. وخرج إلى الرقة فولاه الرشيد قضاءها ثم عزله فعاد إلى بغداد فلما خرج الرشيد إلى الرى الخرجة الأولى خرج معه فمات بالرى سنة ١٨٩ .

يقول إنه سمع لفظ أكثر من سبعمائة حديث على مالك وكان إذا حدث عن مالك امتلأ عليه منزله وكثر عليه الناس حتى يضيق عليه الموضع وإذا حدث عن غير مالك لم يجئه إلا اليسير من الناس . فقال ما أعلم أحدا أسوأ ثناء على أصحابه منكم إنما تأتون متكارهين .

وتحديث محمد فى بغداد يضع أمامنا صورة لإقبال مدرسة الرأى على السنن .

لكن التاريخ كان يدخر له فى أواخر حياته يدا أخرى هى كسابقتها يد كبرى ، على العلم : تلك هى تكوين الرجال — وأى رجال ! لقد صنع الكثير بإعداد الشافعى وأسد بن الفرات . ليصنعا صنيعهما بعد .

لقد آلت إلى محمد خصيصة أستاذه أبى حنيفة . فى تكوين الرجال وتعهدهم . والرجال يبنون الرجال من جديد . وينشئون المذاهب. ويحملون الشعلة وهاجة من جيل إلى جيل فلا تنطفئ أبدا . لتبقى كلمة الإسلام هى العليا .

* * *

أنجى محمد الشافعى بشهادته له — ورأسه بين النطع والسيف — فى تهمة الخروج على الرشيد سنة ١٨٤ . فحمل حمل بعير من كتب العراقيين وكتب محمد ، إلى مكة حيث كوّن لنفسه حلقة . وكم كان عظيما تقدير الشافعى إمام الفقه والبلاغة العربية لبلاغة محمد بن الحسن وفقهه ومناظرته .

ومن مكة بعث الشافعى إلى عبد الرحمن بن مهدى شيخ المحدثين فى بغداد (بالرسالة) التى وضعها فى الأصول ، فكانت فتحاً جديداً فى العلم . وأعد كتبه التى أعلنها فى بغداد بين سنتى ١٩٥ ، ١٩٧ ثم أعاد الكتابة فى الفسطاط بين سنة ١٩٩ ، ٢٠٤ فاجتمع منها (كتاب الأم) . والمجموع فى كتاب الأم — بتفصيله لكل فروع الفقه وتبويبه ومجادلاته لعلم المذهبين السابقين عليه، مذهب أبى حنيفة . ومذهب مالك بن أنس ، آية على الصلة بين السابقين واللاحقين .

والذى صنعه الشافعى إذ أفاد من كتب محمد ، صنعه المزنى تلميذ الشافعى ليكون علماً من أعلام المذهب . ولما قالوا للطحاوى إمام الحنفية الكبير (٣٢١) لماذا خالفت خالك (المزنى) قال : « لأنى كنت أرى خالى يداوم النظر فى كتب أبى حنيفة » .

وأسكن محمد أسدا فى داره ، وخصه بتدريس العلم بالليل له إذ يخلو من عمله أو حلقته العامة ، فإذا أخذت أسدا سنة من النعاس رش الماء على وجهه . فلما استوى أسد نقل المذهب الحنفى إلى أفريقية فأمسى مذهبا فى دولة الأغالبة .

ولكن أثر محمد فى أسد كان أخلد فى مذهب مالك ! فالأسئلة التى تعلمها

على محمد ببغداد وأجابه ابن القاسم عنها بمصر على مذهب مالك — طراز من الفقه المالكى الأصيل المفصل من إمام أصحاب مالك الأولين . هيأت له طريقة العراقيين المستطردة للفروض والفروع أن يتعدى حدود الحلقة إلى العصور كافة يلاقى ما يستجد من حوادث ويحكمها . ولم يك أسد ليقدر على تقديمها لمالك فى حياته مذ صده مالك عن الاسترسال فى السؤال . فكان من تقدير العزيز الحكيم أن قدمها بعد ممات الإمام إلى أعظم أئمة المذهب بعد وفاة الإمام — نعنى عبدالرحمن بن القاسم — لتصبح الأسدية «نواة للمدونة» على ما سلف القول . وهى تحوى فقه المالكية فى نحو ستة وثلاثين ألف مسألة ما تزال حتى اليوم مثلاً يحتذى فى الفقه العالمى ، دقة حكم ، وعمق فقه ، وحسن تناول ، وشمول نظر ، ووفاء بحاجات العصر . وكأنما وضعت للفقه المتطور فى كل عصر ومصر . . . ولا يشوه جمالها إلا مختصراتها .

هكذا تجرى آثار محمد بن الحسن . كالماء تحت جذور « المدونة » التى خدمت حضارة الإسلام جريان الجداول التى ترفد البحر العظيم من فقه الشافعى . ومن قبل ذلك كانت كتب محمد هى البحر العظيم نفسه الذى حوى فقه أبى حنيفة كله ، وما تزال « المدونة » و « الأم » وكتب محمد ، بعد اثنى عشر قرناً ، مثلاً عالياً على وضوح الفكر الإسلامى التشريعى واتساعه لكل ما يحدث للناس من أقضية .

لقد اختتمت الأعوام الثلاثون الأخيرة من القرن الثانى بالقمم الفقهية التى أدركتها ، جهاد قرن بدأ يجاهد لتدوين السنن والآثار فدوّن الموطآت فى الأربعينات وما تلاها ، وانتهى إلى تدوين الفقه الإسلامى جُله فى المذاهب الثلاثة مذاهب مالك وأبى حنيفة والشافعى .

* * *

إمامة المدينة :

كانت المدينة بذاتها وبروحها ، جزءاً من ذات مالك وفقهه . فامتزج الإمام ومدينته فصارا كلاً واحداً ، يؤخذ بجمعه لا بأجزائه ، وصار إمام « دار الهجرة» لواء ترفعه كالألوية التى ترفعها فى معترك المجد فى أى مجال. والمدينة ذاتها إمام.

ولو لم يك مالك موجوداً لأوجدته المدينة شعاراً على علمها ، تقيم حوله مجداً علمياً لها ، فى مقابلة الموجات العارمة القادمة من بعيد، من العراق أو الكوفة ، حيث مدرسة أبى حنيفة . أو من قريب، من مكة ، حيث نشأ الشافعى . أو من الفسطاط أو بغداد حيث قامت مدرستا الشافعى وابن حنبل .

كانت المدينة بذاتها عاملاً لانتشار المذهب المالكى لسببين هما خروج المذهب على أيدى تلاميذ مالك ومجيء الناس إليها من كل بقاع العالم . ولما تعاقبت على الشيخ السنون تعاقب عليه التلاميذ . فازدادوا عددا . وازدادت الأمصار بمنهجه علماً . واقترن طول العمر وكثرة العلم بعظمة المكان ذاته : مسجد الرسول وجوار قبره ، ومغداه ومراحه ، وأبنائه وأبناء الصحابة . والآثار والأخبار ، والذكر العطر . بلدة طيبة وعلم كبير . تقع على سابلة الحاج والمسلمون يجيئون خفافا وثقالا . وحدانا وأرسالا . إذ يحجون فيزورون قبر الرسول ، تلتقى فيها وتفترق شعوب الشرق والغرب . والإقبال عليها يتبع الإقبال على الدين بأداء الفريضة .

والمذهب المالكى ممثل أصيل لفقه الفقهاء السبعة وعمل أهل المدينة به ، ولفقه الذين علموهم من الصحابة . فهو امتداد طبيعى عضوى ، فكرى وتاريخى ، لأيام الرسالة . ولذلك اقترن بفكرة اتباع السنة ألصق اقتران ، فى الأذهان . . فأقبل المسلمون عليه استمساكاً بعامل الأمان . حتى لا يتورطوا فى مستحدثات الأمور وبدائعها . ومثل مالك بطول عمره القرن الثانى ، جله، فى المدينة متبعاً للأمر الأول ومتابعاً للقرن الأول الذى بدأ بالرسول وانتهى بخلافة خامس الراشدين عمر ابن عبد العزيز .

كان مالك يتكلم بسنة الرسول ، ويتأسى بما صنعه عمر الثانى وبما انحدر إليه من اجتهاد عمر الأول ، واجتهاد الصديق والصحابة والتابعين ، على امتداد مائة عام بتمامها . اجتهاداً ثبت على التطبيق مع اختلاف الأجيال التى طبقته . وتجلى فيه معنى الإيمان بالرسالة وكمالها .

والناس يستفتونه فى الحلقة ، أو من بعيد ، بالبريد . أو بالرحلة أو بالرسل تحمل الأسئلة . فأصبح قريباً من القلوب ، وهو بعيد . وأمسى علماً على السنة . وجرى على الألسنة فى كل العصور والأصقاع « لا يفتى ومالك فى المدينة » .

وكلما تكاثرت على المسلمين المحن عبر القرون ، كان أخذهم بالأمر الأول عاصما لهم ووسيلة لنهضتهم . فالاتباع منجاة للأمة مما يكرثها . وحافز لها . والإمام الذى يدافع عن الاتباع ويجعله عنوان مذهبه هو الذى تبايعه الأفئدة. ومن عارضه عد صاحب بدعة — ذلك قول أحمد بن حنبل : « إذا وجدت الرجل يبغض مالكاً فاعلم أنه مبتدع » وهكذا اقترن حب مالك بالابتعاد عن البدعة واقترن مالك بالسنة فصار شعاراً عليها وعلى المدينة عند الناس والأئمة .

وتابعت الأجيال جميعاً نظرية الاتباع ، واستجابت النظرية لحاجاتها على هدى السنة والأصول العامة للدين ، وعمل الصحابة والتابعين . فذلك هو ما نسميه نحن « روح المدينة » بتعبير عصرى ، ويكفى أن يحمل الرأى طابع « روح المدينة » ليسوغ فى كل حال . « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » . وهى سلام للمسلمين تسود بجلال السنة وسمو السيرة .

ومالت الأفئدة إلى المذهب لما فيه من يسر ومرونة فى موضوعه وشكله . أو فحواه وطريقته . وتوخيه المصلحة ودفع المشقة . فهذان هما لباب الدين مقصداً ومنهجاً . ومنهما يفوح شذا السنة الأرج. وما يتراءاه البشر فيها من يسر وسماحة تفضى إلى التقدم الحضارى ، سواء عمل بها فقه حجازى أو عراقى أو عالمى فى أيامنا الحالية .

ويقدم التطور الحضارى الأدلة فى آسيا وأفريقية وأوربة من اقتدار المذهب على التمكين للتقدم الإنسانى فى القارات المتباينة والمدنيات المختلفة .

* * *

كان الليث بن سعد (٩٣ – ١٧٥) فى مصر يملأ الأرض علماً بالسنن وبالفقه طوال حياة مالك، ومع تلاميذ الليث عاش الفقهاء الفحول الذين تعلموا على مالك : ابن القاسم وابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم . والمدرسة المصرية لمالك هى التى نشرت علم مالك فى أقطار الأرض على ما سلف من بيان وإن كان لغيرهم فضل معهم .

ونقل المحدث الكبير عبد الرحمن بن مهدى وعبد الله بن مسلمة القعنبى تلميذ مالك المذهب إلى العراق ثم تابعهما ابن المعذل ويعقوب بن شيبة وآل حماد ابن زيد إذ تولوا القضاء ببغداد ولكن المذهب فقد قوته فى بغداد بعد سنة ٤٥٠ فلم يعد له إمام . وما زال عليه أهل قطر والبحرين .

وإلى خراسان نقل المذهب يحيى بن يحيى التميمى النيسابورى تلميذ مالك (١٤٢ – ٢٢٦) وكانوا يسمونه الشكاك لكثرة شكه فى الحديث. قال عنه إسحق ابن راهويه: «مات يحيى بن يحيى وهو إمام لأهل الدنيا» ونقله كذلك عبد الله ابن المبارك وقتيبة بن سعيد وانتشر المذهب بقزوين – روسيا – وما وراءها من بلاد الجبل . وكان آخر من درس فيه بنيسابور أبو إسحق القطان .

وأدخل المذهب بفارس من أئمة المذهب أبو عبد الله البركانى ثم غلب عليها المذهب الظاهرى ثم المذهب الشيعى .

وفى أفريقية استقر المذهب بعد أن غلب على مذهب أبى حنيفة .

وبقى أهل الأندلس يعملون بمذهب الأوزاعى حتى دخلها مذهب مالك فى عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٧٢ – ١٨٠) .

أدخله شبطون (زياد بن عبد الرحمن) . وأمسى الناس هنالك منذ القرن الثانى يقولون : «لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك» . فإن ظهروا على شافعى أو حنفى هناك نفوه . ولما حكم أفريقية المعز بن باديس سنة ٤٠٧ حمل

أهل المغرب على الأخذ بالمذهب. وفى دولة بنى تاشفين بالمغرب الأقصى والأندلس كان على بن يوسف بن تاشفين ثانى أمرائهم (٥٠٠ — ٥٣٥) لا يؤتى أحداً ولاية إلا إذا كان له علم بمذهب مالك. ولا يقطع أمراً إلا بمشاورة العلماء ويكلف ولاته أن يستشهدوا فى كل أمر أربعة فقهاء . فنفقت فى زمنه كتب المذهب المالكى ونبذ ما سواها . وبهذا غلب المذهب على شمال أفريقية (الجزائر . تونس . ليبيا . المغرب) .

لكن مصر بقيت بالنسبة للمذهب وكأنها هى «المدينة» الثانية ففيها الجهابذة من خلفاء الإمام بل سبق أن نقله إليها من منتصف القرن عثمان بن الحكم الجزامى وعبد الرحمن بن خالد بن يزيد، وكان فقيهاً روى عن الليث بن سعد، قبل أن ينقله إليها كبار خلفاء مالك فى أواخر القرن ويعلموه للآخرين .

ولم يستطع المذهب الشافعى على قوته بمصر أن يظهر على المذهب المالكى فهو ما يزال غالباً فى صعيد مصر وفى السودان . وكان بين المذهبين تنافس ومع ذلك ناصرت الدولة المذهب الشافعى ولم تقاوم مذهب مالك بل أنشأت له المدارس . وإنما قاومت المذهبين دولة الشيعة . وفى عهدها سنة ٣٨١ جلد الشيعة رجلاً وجدوا معه موطأ مالك !

* * *

أجمعت المدينة على مالك . فتفرد فيها كالنجم نصف قرن من حياتها وحياته . وذلك إجماع لا يتم إلا لأسباب . فالمدينة لا تبايع إلا الفرد العلم . من كثرة ما نتج فيها من الأئمة فلا ينفق فى سوقها إلا الحقائق المسلمة . وهى مقر النقدة ، ومولد الحفاظ ، ومجال المجتهدين المجادلين ، وملتقى الأجنحة الإسلامية من شرق وغرب ، ترفرف وتحوّم وتنضم فى الحرم ، على أمل الإسلام . فإذا خلصت الحقائق فى هذه البقعة المباركة كانت حقائق عالمية ثبتت على الامتحان . والزعامة أو الإمامة التى تتصدر هذا المكان . وليدة الاختيار العام ، يتأكد ويتجدد فى كل عام . فلا يكون رضى للمدينة إلا قمة القمم . وطوبى لمن قدر أن يستقر هنالك نصف قرن كامل .

ولم يكن جدال أبي حنيفة لمالك . وأبو حنيفة إمام العراق ، أو جدال الليث ابن سعد والليث إمام مصر . وأمثال جدالهما له إلا سعياً من العلماء للإفادة من علمه ، ومعايرة الآراء الوافدة من بعيد بآرائه . وهو إقرار بما للمدينة من الصدارة ولإمامها الذى توزن الآراء عنده فيصح الصحاح ويلفظ الزيوف وتنبذ الأحاديث الشاذة — ولما بايعته عواصم الإسلام . بايعته من أجل العلم الذى يعلمه ، والحياة الشخصية التى حييها . فالفقه العظيم لا يرفع الفقيه العظيم إلى مستوى الإمامة إلا بالعمل العظيم فى الدين ، بالجهاد والبذل اللذين يفرضان الإمامة .

ولما تابعت الأمة الشافعى تابعته فى إعظام أستاذه . ففى كل تحية أدتها له الأمة قدر مشترك بين الشافعى وشيخه الذى نشأه . لا ينقص الشافعى درجة وإن زاد فى فضل مالك . فالشافعى بذاته تحية القدر لمالك . ولما تلمذ أحمد ابن حنبل للشافعى ، كانت تحية أخرى من مستوى الأولى لتجعل مالكاً شيخ المدرسة ، وأى مدرسة !

* * *

وتزاحفت الأيام ، وتزايدت الآلام ، فترك الإمام الخروج إلى المسجد لما به من سلس البول. دون أن يتحدث عن ذلك مخافة أن يظن به عدم الرضا بأمر الله . وانقطعت زياراته الخاصة ، وعيادته للمرضى ، والمشى فى الجنائز ، وصلاة الجمعة ، مدة خمسة وعشرين عاماً وهو يقول : « ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره » فلما سئل فى ذلك بعد قال : « لولا أنى فى آخر يوم ما أخبرتكم بسلس بولى ... كرهت أن آتى مسجد رسول الله بغير وضوء . وكرهت أن أذكر علتى فأشكو ربى » .

وفى ربيع الأول سنة ١٧٩ مرض مالك مرضاً دام اثنين وعشرين يوماً . وفى العشية التى قبض فيها دخل عليه تلاميذه . فقالوا : كيف تجدك ؟ قال : لا أدرى ما أقول لكم . إلا أنكم ستعاينون غداً من عفو الله ما لم يكن فى حساب .

وبقوا . فلم يبرحوا داره حتى أغمضوه رحمه الله ، بعد إذ تشهد ، ثم قال : لله الأمر من قبل ومن بعد . فكان آخر كلامه .

وكفن مالك فى ثياب بيض بوصية منه واشترك فى غسله ابنه يحيى وصلى عليه

فى موضع الجنائز محمد بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس والى المدينة للرشيد عند الوفاة . وكان الوالى أحد من حماوا نعشه ، وقبره بالمدينة معروف .

قال ابن مالك لما دفنا مالكاً دخلنا منزله فأخرجنا كتبه فإذا فيها سبع صناديق من حديث ابن شهاب — ظهورها وبطونها ملأى — فجعل الناس يقرءون ويدعون ويقولون : رحمك الله يا أبا عبد الله قد جالسناك فما رأيناك ذاكراً لنا بشىء مما قرأناه .

وكانت لحظة من اللحظات فى تاريخ المدينة لخص فيها يعقوب بن عتيق تاريخ اجتماعها وفرقتها على الرجال . فقال : « ما اجتمع على أحد بالمدينة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم إلا على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ومات مالك وما يعلم أحد من أهل المدينة إلا أجمع عليه » .

* * *

وتناقلت صحائف الدهر آيات التكريم الذى أحظى به المسلمون إمام دار الهجرة لمكانه من حديث الرسول الكريم وسنته وصحبه .

أما أئمة العراق فنهم عبد الرحمن بن مهدى يقول : « مابقى على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من مالك » ويقول : لا أقدم عليه فى صحة الحديث أحداً ، وما رأيت أعقل منه ، ومنهم يحيى بن معين يقول : « مالك أمير المؤمنين فى الحديث» ومنهم الحمادان : حماد بن زيد ، وحماد بن سلمة يقول أولهما : رحم الله مالكا ما خلف على الأرض مثله . ويقول لرجل جاءه فى مسألة اختلف فيها الناس : « يا أخى إن أردت السلامة لدينك فسل عالم المدينة واصغ إلى قوله فإنه حجة بين الناس» . ويقول ثانيهما : « لو قيل لى اختر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم إماماً يأخذون عنه دينهم لرأيت مالكا موضعاً وأهلاً ورأيت ذلك صلاحاً للأمة » والأوزاعى يسميه « عالم العلماء »

وأما محدث مكة : سفيان بن عيينة شيخ الشافعى قبل مالك فيقول إذ مات : رحم الله مالكاً ما كان أشد انتقاده للرجال وكان لا يبلغ من الأحاديث إلا ما كان

صحيحاً — ولا يحدث إلا عن ثقات الناس. ويقول ما ترك مالك على الأرض مثله بل إنه ليراه مصداق حديث للرسول ، فيقول: « لا سعيد بن المسيب ولا زيد ابن على هو المقصود بحديث « يوشك أن تضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » .

أما إمام مصر: الليث بن سعد فهو القائل قبل أن يموت فى حياة مالك : « ما على وجه الأرض أحب إلىّ من مالك » ويدعو الله بدعائه المستجاب «اللهم زد من عمرى فى عمره » .

وأما إماما المسلمين الشافعى وابن حنبل فيقومان علمه ودينه قيمته التى يقدرها المسلمون .

قال الشافعى : « مالك أستاذى وعنه أخذت العلم . وما أحد أمَنّ علىّ من مالك وجعلت مالكا حجة بينى وبين الله تعالى » .

ولما سأل عبد الله بن أحمد بن حنبل أباه من أثبت أصحاب الزهرى؟ قال أحمد : « مالك أثبت فى كل شىء » .

وأبو حنيفة يقول لليث بن سعد: « ما أسرع ما رأيت منه بجواب صادق ونقد تام » . .

إنه عند أئمة المسلمين الآخرين مثال الصدق والثبوت فى كل شىء وإنه لحجة بين الأئمة أنفسهم وبين الله سبحانه ، فأعظم بها حجة وأكرم بها مكانة ، عند الله والناس أجمعين .

فهرست المسائل

(ك)

(م)

(و)

فهرست الأعلام

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

المراجع

١ – تزيين المسالك بمناقب الإمام مالك : السيوطى
٢ – مناقب مالك : مسعود الزواوى
٣ – الفوائد البهية فى تراجم الحنفية : اللكنوى طبعة الخانجى ١٣٢٤
٤ – الانتقاء فى فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء : ابن عبد البر
٥ – الديباج المذهب : ابن فرحون
٦ – وفيات الأعيان : ابن خلكان
٧ – مالك : الشيخ محمد أبو زهرة
٨ – مالك بن أنس : المرحوم الشيخ أمين الخولى ... أعلام العرب
٩ – مالك بن أنس ترجمة محررة : المرحوم الشيخ أمين الخولى
١٠ – ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك : القاضى عياض (مخطوط دار الكتب المصرية ٢٢٩٣)
١١ – الموطأ : محمد فؤاد عبد الباقى – دار إحياء الكتب العربية
١٢ – الموطأ : رواية محمد بن الحسن طبعة المجلس الأعلى
١٣ – الموافقات فى أصول الشريعة : الشاطبى أبو إسحق (إبراهيم بن موسى)
١٤ – تاريخ التشريع : الشيخ محمد الخضرى
١٥ – الفقه على المذاهب الأربعة : وزارة الأوقاف
١٦ – عمر والتشريع : الشيخ محمد أنيس عبادة
١٧ – أبو هريرة : محمد عجاج الخطيب
١٨ – الأئمة الأربعة : دكتور أحمد الشرباصى
١٩ – أصول الفقه : الشيخ محمد الخضرى
٢٠ – أصول الفقه : الشيخ زكى الدين شعبان
٢١ – المقدمات الممهدات : ابن رشد
٢٢ – المدخل للفقه : الشيخ محمد مصطفى شلبى
٢٣ – الفقه الإسلامى بين الواقعية والمثالية : الشيخ محمد مصطفى شلبى (مجلة كلية الحقوق بالإسكندرية)

٢٤ ــ نظرية المصلحة فى الفقه الإسلامى : مخطوط بمكتبة كلية الشريعة والقانون (الأزهر سبتمبر ١٩٦٦) رسالة دكتور حسين حامد حسان بإشراف العميد المرحوم الشيخ طه الدينارى

٢٥ ــ الغرر فى الفقه الإسلامى : دكتور الضرير

٢٦ ــ التعزيز : دكتور عبد العزيز عامر

٢٧ ــ اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى : الإمام أبى يوسف مطبعة الوفاء ١٣٥٨

٢٨ ــ مصادر الحق والفقه الإسلامى : دكتور عبد الرزاق السنهورى

٢٩ ــ تاريخ التشريع الإسلامى : الأساتذة السبكى . السايس . البربرى

٣٠ ــ الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول : عبد الحليم الجندى

٣١ ــ أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام : عبد الحليم الجندى

٣٢ ــ المعارف لابن قتيبة : دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٠

٣٣ ــ الإمامة والسياسة : لابن قتيبة

٣٤ ــ المدونة الكبرى (الجزء الأول)

٣٥ ــ تاريخ الدولة العربية : يوليوس فلهوزن ترجمة أبى ريدة

٣٦ تاريخ الفقه الإسلامى : على حسن عبد القادر

٣٧ ــ الخراج لأبى يوسف : المطبعة السلفية

٣٨ ــ عمدة التفسير للحافظ ابن كثير : اختصار أحمد محمد شاكر

٣٩ ــ عصر المأمون : دكتور أحمد فريد رفاعى

٤٠ ــ تهذيب الأسماء واللغات : أبى زكريا محيى الدين شرف النووى

٤١ ــ حياة محمد : محمد حسين هيكل

٤٢ ــ الصديق أبو بكر : محمد حسين هشكل

٤٣ ــ الفاروق عمر : محمد حسين هيكل

٤٤ ــ عبقرية الصديق : عباس العقاد

٤٥ ــ معاوية : إبراهيم الإبيارى

٤٦ ــ فجر الإسلام : أحمد أمين

٤٧ — ضحى الإسلام	: أحمد أمين
٤٨ — عمر بن عبد العزيز	: عبد العزيز سيد الأهل
٤٩ — عمر بن عبد العزيز	: رواية عبد الله بن عبد الحكم
٥٠ — الفتنة الكبرى	: دكتور طه حسين
٥١ — الفتنة الكبرى (على وبنوه)	: دكتور طه حسين
٥٢ — عبقرية عمر	: عباس العقاد
٥٣ — مختار الأغانى	: المؤسسة العامة للتأليف
٥٤ — أدب السياسة فى العصر الأموى	: دكتور الحوفى
٥٥ — الوليد بن عبد الملك	: دكتورة سيدة إسماعيل كاشف
٥٦ — تاريخ الموصل	: أبى زكريا يزيد بن محمد بن القاسم الأزدى
٥٧ — عبقرية خالد	: عباس العقاد
٥٨ — ذو النورين عثمان	: عباس العقاد
٥٩ — تاريخ بغداد	: الخطيب البغدادى
٦٠ — من أخلاق العلماء	: الشيخ محمد سليمان

الفهرس

الباب الرابع
مجتمع المدينة

الباب الخامس
روح المدينة

الباب السادس
إمام المدينة والسلطان

الصفحة

للمؤلف

١ - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح	طبعة دار المعارف
٢ - الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول	طبعة دار المعارف
٣ - مالك بن أنس إمام دار الهجرة	طبعة دار المعارف
٤ - أحمد بن حنبل إمام أهل السنة	طبعة دار المعارف
٥ - الإمام محمد بن عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلفى	طبعة دار المعارف
٦ - الإمام محمد عبده	طبعة دار المعارف
٧ - الإمام جعفر الصادق	طبعة دار المعارف
٨ - الشريعة الإسلامية	طبعة دار المعارف
٩ - نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامى	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١٠ - أئمة الفقه الإسلامى	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١١ - نجوم المحاماة فى مصر وأوربا	طبعة دار الاتحاد العربى
١٢ - مجموعة مذكرات قضائية (جزأين)	طبعة هيئة قضايا الدولة بمصر
١٣ - توحيد الأمة العربية	طبعة وزارة الثقافة - مصر
١٤ - تطوير التشريعات	طبعة وزارة الثقافة - مصر
١٥ - من أجل مصر (البطل أحمد عصمت)	المطبعة التجارية - مصر
١٦ - القرآن والمنهج العلمى المعاصر	طبعة دار المعارف
١٧ - فى السيرة النبوية	طبعة دار المعارف
١٨ - نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقة الإسلامى	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أبحاث منشورة

رقم الإيداع		١٠٧٢٨ / ١٩٩٣
الترقيم الدولى	977-02-4305-1	ISBN

١ / ٩٣ / ١١٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

صورة عصرية يرسمها رجل قانون يتابع من ربع قرن تقديم الأئمة فى أضواء العصر — « أبى حنيفة »، « الشافعى »، « مالك » — بألوان ناصعة رصينة تبرز ملامح شخصياتهم ونظرياتهم من السماحة والحرية والمشاركة الفعالة فى الاندفاع الحضارى للعالم فى حدود مقاصد الإسلام.

ويظهر « مجتمع المدينة » فى الصورة كأنه الوجه الخلق لها.. من مقدم النبى الكريم إلى جهاد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى للتمكين للدين والدولة، إلى اجتهادهم الذى تابعه مالك للتمكين للسُّنَّة. وقد وسعت حياته ثلاثة عشر خليفة، منهم عمر بن عبد العزيز، أستاذه الروحى، والمنصور، والمهدى، والرشيد، الذين رفع فى وجوههم أعلام الحرية الفكرية والدفاع عن « المدينة »: حيث الثورات والفنون، والغناء الذى ازدهر فى « مجتمع المدينة » وصار لوناً من ألوان الصورة.